

أبو حنيفة

بطل الحرية والتسامح في الإسلام

عبد الحلیم الجندي



لمعارف

**Collection of Prof. Muhammad Iqbal Mujaddidi
Preserved in Punjab University Library.**

پروفیسر محمد اقبال مجددی کا مجموعہ
پنجاب یونیورسٹی لائبریری میں محفوظ شدہ

أبو حنيفة

بطل الحرية والتسامح في الإسلام

المستشار

عبد الحلیم الجندي



دار المعارف

132005

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَلَفَاتٌ

في هذا الكتاب صورة لا سيرة ، وليس فيه من التفاصيل قدر ما فيه من ألوان حاولت أن أرسم بها شخصية الإمام الأعظم لأهل الإسلام .
وإذا كان من الرجال من يعتبر بذاته حدثًا ضخماً في تاريخ البشرية تفوق آثاره حضارة كاملة ، أو كان الرجل الشجاع الرأي وحده جحفاً لجنباً . فليس كهذا الإمام مصداق لهذا الكلام .

فإلى الجليل الذي يتلفت يمناً ويسرة يبحث عن الرجل الحر الشجاع ، هذا المثل العالي للحرية والشجاعة والكفاح .

إن أبصارنا في أعقاب هذه الحرب يجب أن تتجه إلى المستقبل وإلى الماضي معاً ، لأن الماضي مركز الثقل الذي يحفظ توازننا . فلا نقبل على المجهول إلا وفي أيدينا قدر كاف من المعلوم . ولا نرد حياض الغير إلا إذا نهلنا من مصادرها وارزويننا . وإذا كنا إلى اليوم لم نعرف من كنوزنا الزاخرة إلا حفنات ، فلنرجع البصر كرات إلى تاريخنا ذا كرين أن العلاج لا يستورد من الخارج إذا تحققت المناعة بإنهاض القوى الذاتية للجسم الحي .

لنقل للمتريدين مقالة البحارة في سفينة بالمحيط الأطلسي للمستغيثين من بحارة سفينة قرب شواطئ البرازيل ، فرغ منها الماء العذب فصاحوا في طلبه . وأجابهم بحارة المحيط : « ألقوا دلوكم حيث أنتم » فأعاد المستغيثون طلب الماء . وكان الجواب دائماً : « ألقوا دلوكم حيث أنتم » . حتى إذا ألقوا الدلاء عادت بالماء عذباً فراتاً لذة للشاربين ، إذ كانوا قبالة شاطئ نهر الأمازون ، حيث يدفع النهر ماءه العذب في صميم المحيط وهم لا يشعرون .

لنلق الدلاء حيث نحن ، فما أزر الأعماق عندنا بالكنوز .

وسيرى القارئ فيما بعد آيات من البطولة لا نظائر لها إلا عند الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، أوفى كسيف الإسلام خالد بن الوليد ، أنقذ الإسلام من ردة المرتدين فكانت يده في حروب الردة أندى وأجدى من كل غزوة غزاها .

إذا كان نابليون قد فاخر « بتمانون نابليون » أكثر مما فاخر بمواقفه الستين التي أذهل بها عبقرية الحرب . وكان كل حظ التمانون منه أنه صدر في عهده . فكيف بأبي حنيفة وهو أكبر مستنبط للقوانين في الإسلام ، والإمام الأعظم للأئمة وللمشترعين . في كل نبضة من نبضات قلبه هداية . بالعلم وبالقدوة . إلى شجاعة نفس ، وكفاح متصل ، جللت للناس عمله في بناية الحضارة الإسلامية وحياطتها بما أشاعه في كيان الفقه من عناصر الخلود ، وكشفت لهم الفوارق بين العمل الموقوت لأبطال السياسة والحرب ، والعمل المتصل لأبطال العلم والرأى ، فتجلى لهم مبلغ ما يبصرون من الجمال ويصيبون من الخير في الحياة الدنيا إذا ازينت لهم بمصباح الفقيه .

ولما تعارض الفكر والسلطان ، أو الفقيه والخليفة . كانت كلمة الفكر هي

العليا .

ألا إن لنا في الإمام الأعظم قدوة حسنة ، وتأسياً في التضحيات . ونحن في مفترق الطرق . فلنقتد بهداه ، ولنأخذ من حضارتنا بالسبب الأول لنجاحها وهو السمو على ماديات الحياة . ولننعظ بما اتعظ به أصحاب الحضارة الغربية التي أوشكت أن تعلن إفلاسها في الحربين الأخيرتين لخلوها من عنصر الروح .

لنتمثل بأبطال حضارتنا ، ونستمسك بأسباب نهضتنا .

لقد اعتز الإسلام بأسبابه ، عندما استمسك أبناؤه بأدابه ، فلما ضيعوها بعبادة الذات والتعود عن التضحيات فارق سلطانهم أوجه .

وبحسب القارئ هذا المثل للرجل العظيم الذي أجرينا ذكره على الصفحات

التالية .

البَابُ الْأَوَّلُ

الرجل

« أقبلوا أيها الفيلق المبارك ، يا شباب الأيام
التي لم ينفرد عنها عقد الزمان بعد ، أقبلوا
كالفجر الطالع واملأوا آفاق الورى بالنور »
نترية

أقبل السيد في نؤدة ورزانة ، طويل القامة ، معتدل السميت عظيم الهامة ، حسن الطلعة واللحية ، تعلوه سمرة ، في وجهه أثر من السجود ، لا يلتفت إذا مشى ننة أو يسرة ، يצוע المسك من أردانه على القرب وعلى البعد حتى ليشيع الأرج إذا خرج من داره ، فتعرف أنه القمام إليك قبل أن تراه .

فإذا طالعك ودنا منك رأيت رجلا لباساً عليه بزة فاخرة تباهى بذوق صاحبها في قماشها وطرزها ، كأن قماشاً تخير لنفسه أحسن ما لديه ، فاجتمع ذوق المشتري وذوق البائع على ذلك الوجه المشرق ، تعلوه قلنسوة طويلة سوداء ، رداؤه وقميصه بأربعمائة درهم ، في زمن كانت فيه ثمانية أرطال سمن بدرهم . والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والعسل عشرة أرطال بدرهم ، ولحم الغنم ستون رطلا بدرهم ، ولحم البقر تسعون رطلا بدرهم . بل الكبش بدرهم . . . !

ومن جبة سنجاب إلى جبة ثعلب يصل فيهما ، إلى جبة فنك (نوع من جراء الثعلب التركي) في زمن لم يك يلبس الفنك فيه إلا الأقيال والدهاقين والسروات ، إذا ألفت فيه أو فيما قبله رجلا يلبس رداء بألف فهو ابن عباس أو من على شاكلة ابن عباس : ابن عم النبي ، ونائب أمير المؤمنين علي ، والجد الأعلى لهارون الرشيد . هذا السيد الذي يتم مظهره عن المقام الرفيع . ينبئك مخبره عن مقام في قمة الملأ الأعلى من المخلصين . مجلس هو الرقار بعينه ، وفؤاد جسور هو الشجاعة في عنفوانها ، وجنان ثابت لا يطيش لدى القمارعة . إذا سمع اللغو أعرض عنه . هيوباً لا يتكلم إلا جواباً ، حتى إذا دعت إلى الحديث دواعيه افترت شفتاه عن ثنتين ناتنتين ثم انبثق النبع سلسلا من سلسل . كأن ملكاً من الملائكة يوحى إليه ! مضرب المثل في وفائه ونداه . وبسطه وإيناسه . وحده على أعدائه وأوليائه . لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله فما عند الله خير من البيع والتجارة . رزقه ربه رزقاً حسناً فجعله كله زلفى لله وقربى . فثبت الله فؤاده واستخلصه لنفسه ، فجعله للناس آية في الدنيا وفي الدين .

فإن ذلك الذي هو كل ذلك . . ؟

إنه النعمان بن ثابت المكنى بأبي حنيفة . الذي يتبين عقله من منطقته ومشيته ،
 حديث العراق كله والشام والحجاز ومصر . تتردد عباراته إلى جوار أساطين المسجد
 الجامع في الكوفة ، فتتردد أصداؤها في المسجد الحرام بالمدينة . وفي المسجد الأقصى
 بيت المقدس ، وفي البيت الحرام بمكة ، وفي جامع عمرو بالفسطاط . يعرف العامة
 عنه أنه رجل عظيم يصنع العظام ولا يصطنعه الخلفاء ولا الأمراء ، فإذا ذهب إلى
 المسجد انجفل الحضور إليه يلتمسون وقع الدر من فيه . يطالعهم كل آن بجلائل
 العلم الذي ينحني له الأفاضل من العلماء . ولو أتيج للناس أن يروا ما أراه الله للأجيال
 من بعدهم لشهدوا رجلا - بعد رسول الله وبضعة من صحبه - هو أخلد الرجال في
 تاريخ الإسلام بما مكن للشريعة السمحة من أسباب التعميم والانتشار . فظلت
 كما أنزلها الله عصرية في كل عصر ومصر . وغدا الدستور الشرعي في أحدث الأمم
 الإسلامية حضارة يتحصل في كلمة يسيرة المبني كبيرة المعنى هي : « أرجح الأقوال
 من مذهب أبي حنيفة » ، الرجل الذي أعان الحرية في كل مكان وفي كل زمان ، في
 الماضي والحاضر والمستقبل . في التجارة وفي الملك . وفي التصرفات وفي حقوق النساء ،
 وفي حقوق الرعية . حرية وتسامح في كل شيء يسمحون باسمه في معارج الخلود .
 يقاوم صاحبها طغيان الشرطي وطغيان الأمير وطغيان الخليفة وطغيان التتالييد
 وطغيان التعصب . ولا تنال منه المزهز ولا الفتن وينشئ مدرسة الرأي في الإسلام
 لتكون أم الفقه الإسلامي ومنبعه على مر الدهور .

كان نفي طويلا فيه سمرة منحدره إليه من وسط آسيا من أصلاب أجداده
 في الأفغان - فلقد ولد في سنة ٨٠ للهجرة وكان أبوه وجده من موالي بني تيم . فهو
 باسمه سمي ملك من الملوك في العراق «النعمان بن المنذر» وهو بمولده مولى من الموالى ،
 لم يتلق العلم في مدرسة ولا جامعة . وإنما دخل المسجد الجامع ، وتخرج في مدرسة الدنيا .
 وكانت الدنيا في ذلك الزمان والمكان أحفل ما تكون بالرجال والأعمال . كان
 بنو أمية في قمة الجهد في حكم عبد الملك بن مروان وكانت الكوفة كأتون مستعر ،
 وكان أمير العراق في طفولة النعمان الحجاج بن يوسف الثقفي ، رجلا ما يزال اسمه

يجرى في التاريخ العربي بما يجري به اسم نيرون في التاريخ الغربي . فالنعمان لم يسلم في بواكير حياته ليلة واحدة ولانهاراً دون أن تصطك مسامعه بأحاديث هذا الطاغوت الناشئة برائته في أعناق جبرته وعشيرته . يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم في العراق عامة والكوفة خاصة - وحمل الطاغية في عنقه دم العلماء فيما حمل من دم الشهداء فلم يتردد أن يقتل شهيداً في سنة ٩٥ « مات . . ما على ظهر الأرض رجل إلا ويحتاج إلى علمه » موسعيد بن جبير . ومن بعد ذلك بعام في سنة ٩٦ مات أستاذ العراق إبراهيم النخعي مختلفياً عن عيونه . . . !

ولما يقع الفتى الموهوب كان الحجاج جبار الأرض قد قبضه إليه جبار السماء . فرحل إلى الدار الآخرة مختلفاً في الدار الفانية أحاديث مآسيه .

لاحت على الحدث الناشئ مخائل النجابة وتعارفها الناس حتى باغ حديثها قاضي الكوفة وزعيم محدثيها في عصره الإمام الشعبي . فلما مر به يوماً دعاه قائلاً : إلى من تختلف ! ؟ قال : « أختلف إلى السوق » وسمى له أستاذه في السوق . قال الشعبي « لم أعن الاختلاف إلى السوق بل عنيت الاختلاف إلى العلماء » قال : « إني قليل . الاختلاف إليهم » قال الشعبي : « عليك بالنظر في العلم ، ومجالسة العلماء . فإنني أرى فيك ينظة وحركة » .

ووقع في قلبه من قوله وترك الاختلاف إلى السوق وأخذ في العلم منذ حدثته بالباكرة . بدأ النعمان يدرس علم الكلام وهو علم التوحيد والجدال في العقائد والأمور الدينية كافة . كالأنبيا وما يجب أن يكونوا عليه ، والجبر والاختيار ، وإن شئت فقل إنه علم التشريح الفكري للمسائل المسلمة لإنكارها أو إقرارها بالدليل العقلي .

وكان العراق إقليمياً مستفزاً يدفع كل شيء فيه إلى شبوب الخواطر . وفي الطبيعة البشرية اتجاه غريزي للدفاع عن النفس يدفعها إلى الثورة على العسف . مواجهة إن استطاعت . ومن حواليه إذا هي لم تستطع ، فتفرغ شحنتها من الحماسة في اتجاهات يظهر بادي الرأي أنها لا تمت بسبب إلى الحرب المشبوبة على الطغيان ، لكنها في الواقع كفروع النهر ، تتلاقى حيث المجرى العريض تحمل الفكرة الثائرة كما يحمل الزورق التيار .

ولقد يظهر من ذلك أن الإقبال على الجدال إنما هو في الواقع إقبال على النضال .
إقبال المفكر بطبيعته ، المتزن بفطرته . لم تمسه همزات الفتن ولم يفض في الخلافات
العصبية أو المذهبية ولم يقارف الزلغى بأن يقارب السلطان ، وإنما نزل إلى معارك العلم واستقام
على طريقته طيلة حياته في بلد كانت السياسة فيه هي الخبز اليومي يطعمه كل كوفي .
وسرى من بعد أثر هذا التعليم الأول حين راح في كهولته يصدع برأيه في
شجاعة دونها شجاعة السيوف .

قالوا رأى النعمان في حديثه من الصحابة ثمانية رجال وامرأة . وقيل خمسة
وامرأة وقيل خمسة وامرأتين - منهم أنس بن مالك - وإنه سمع منه حديث :
« طالب العلم فريضة على كل مسلم » وحديث : « الدال على الخير كفاعله »
وحديث « إن الله تعالى يحب إغاثة اللهيمان » . وقالوا إنه لم يسمع من الصحابة أحداً .
وإنما تمحضت حديثه لدراسة « الكلام » .

لم يدع فيض الفتوة النعمان على حاله بل دفعه إلى الأسفار في سبيل العلم .
فكان يرحل بين البصرة والكوفة حتى بلغ في « الكلام » مبلغاً يشار إليه فيه بالبنان أو كما
قال : « كنت أعطيت جدلاً في الكلام . وأصحاب الأهواء في البصرة كثير .
فدخلتها نيفاً وعشرين مرة وربما أقمت بها سنة أو أكثر أو أقل ظناً أن علم الكلام
أجل العلوم » . لكن ما ركب فيه من عقل عملي كان حقيقياً أن يغير مجراه وأن
يهديه إلى طريقته المثلى . وللمتجادلين أغلوطات تتجافى مع التقصد والصفة ،
وخلق بمثله أن ينصرف إلى ما ينفع الناس فيهمجرك المتكلمين إلى الفقهاء أو كما قال :
« فلما مضى مدة من عمرى تفكرت وقلت السلف كانوا أعلم بالحقائق ولم ينتصبوا
مجادلين . وخاضوا في علم الشريعة ورغبوا فيه وعلّموا وتعلموا وتناظروا عليه فتمركت
الكلام واشتغلت بالفقه ورأيت المشتغلين بالكلام ليس سيماهم سياء الصالحين قاسية
قلوبهم غليظة أفئدتهم . . . » .

كان فتي ذواقة يختار من كل شيء أحسنه . وما دام قد تخير المدرس فقد كان
عليه أن يختار المدرس . وليس إذن إلا الحلقة الخجورة لأنها أكبر الحلق . وأستاذهم
أكبر الأساتذة : أبو إسماعيل حماد بن سليمان العكلى الكوفي الأشعري الذي يعقد
جلساته في المسجد الجامع .

قال له حماد أن رآه : « ما جاء بك ؟ » قال : « تعلم العلم » قال : « تعلم كل يوم ثلاث مسائل » .

وانخرط في سلك التلاميذ ، يحفظ مسائله ، ويعيدها في الغداة فيخطئ الحفاظ ويصيب هو ، ويسكت التلاميذ ويسأل هو . ويلح في الجدل حتى ليحمر وجه حماد . لكن حماداً يدرك مواهب تلميذه من عمق أسئلته ومن صلته بالله . قام يوماً من مجلسه فقال حماد لجماره : « هذا على ما ترى منه ، يقوم الليل كله ويحييه . . . » .

وقال أبو حنيفة عن نفسه فيما بعد : « كنت أكثر السؤال فر بما تبرم مني . ويقول يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبي وضاق صدري » .

لم يلبث إلا قليلاً حتى أحس حماد أنه يزحم الحلقة كلها بوجوده . فأمر بأن يجلس بإزائه . وطفقا يجلسان لنفسيهما هذه الجلسة عشر سنوات متتابعات والتلاميذ عاكفون بالمسجد وأبو حنيفة أمثلهم طريقة ، يحظى من الشيخ بكفيل زاخر من الرعاية ، فنضجت مداركه وعلا اسمه وتوثقت بينهما العرى حتى إن ابن حماد ليسأل أباه بعد غيبة طويلة عن الكوفة إلى أي الأشياء كان أشوق ؟ وكان للسائل طفل وليد فتوقع أن يكون أقرب الناس إلى قلب الجده هو الحفيد . لكنه أجابه : إلى أبي حنيفة ولو أمكنني ألا أرفع الطرف عنه لفعلت .

وحدثت التلميذ نفسه في نحو الثلاثين من عمره أنه أوتي حظاً من المعرفة وأنه يستطيع أن يؤتى الناس مما فتح الله عليه . فخرج يوماً بالعشي تنازعه نفسه طاب الرياسة ، ويم شطر المسجد وأوى إلى ركن بعيد عن حلقة الشيخ يؤلف لنفسه حلقة أخرى . فلم يكده يدخل حتى رأى أستاذه كواسطة العقد في حلقة ، فهاجته الذكرى . ولم تطب نفسه أن يترك ذلك الأستاذ العظيم الذي قال عنه إبراهيم النخعي إذ سئل عن خلف بعده للناس . إنه خلف حماداً للناس . فكيف يترك النعمان حماداً ؟

كان حماد آية في الزهد والورع يفطر كل ليلة في شهر رمضان خمسين إنساناً فإذا كانت ليلة الفطر كساهم ثوباً ثوباً . . .

وانصرف الفتى كاسف البال منكسراً ولكنه كان منتصراً . إذ انتشل نفسه من غمرات الطموح ليعاود دراساته في دأب وتعمق وحماسة زادته بسطة في العلم وسعة في الفهم . حتى إذا نعى إلى حماد بعض أهله بالبصرة عن مال لا وارث له دونه ، رحل إلى البصرة وأتاب أبا حنيفة في أن يجلس مكانه .

وأقبل الناس على الشيخ - الصغير - يستفتونه في أشياء لم يحفظها عن الشيخ الكبير ، وحانت الفرصة وأخذ يجيب ويجيب ، واستن سنة جديدة أرادها لنفسه وأراد الله أن تكون للدنيا ، وللإسلام : تلك أنه دون إجاباته ليعرضها على أستاذه إثر عودته . فلما راجعها حماد أقر منها أربعين وأنكر عشرين ، وبدأ الفتى يستحب التدوين . وبدأ فقه الجمهور الإسلامي يعرفه معه ، وآنس التلميذ من نفسه ضعفاً إذ منعه الحياء العلمي أن يعتد بأنه أصاب ضعفى ما أخطأ ، وتعاقب عليه الحديدان في حلقة حماد . وهو يأخذ نفسه بالاستبحار في العلم وفي الدين ، واشتملت عليه عناية الله تتعهدة تعهد من قدرت عليهم أن يحملوا أمانة الفكر . ودار تلك دورات وانسلخت سنوات ثمان لم يكد يترك فيهن أستاذه يوماً ولا بعض يوم ، بل إن كثيراً من الدروس كان يشغله بياض النهار وزلفاً من الليل .

كان يهرمع جماعة من أصحابه في دار حماد يتدارسون . وكان للشيخ ديك يصيح من أول الليل فكانت العلامة بين حماد وبين أصحابه أن يصيح الديك فإذا صاح قام حماد فينفرط عقد الجماعة . ويقول أبو حنيفة : « يالك من ديك قبحك الله قطعت حديثنا ، إن شر الديكة ما صاح أول الليل » .

كان يجلس مع حماد ولكنه كان يفكر مع نفسه ، وبلغ به استقلاله ، ما بلغ بأستاذه جلاله ، أنه لم يكن يجد في مخالفته له حرجاً . خرج معه مرة يشيع جنازة فسأل رجل حماداً : إني على دابة سيور وقد غابت الشمس ولست على الوضوء . قال له : تيمم لكن الرجل سأل أبا حنيفة فقال : سر وانتظر غيبوبة الشفق ، فإذا خشيت ذلك فتيمم وصل ، وسار الرجل فصادفه الماء فتوضأ .

وهكذا لم يجز للرجل أن يتيمم ما دام يغلب على الظن وجود الماء ، وفي الوقت سعة ، طلباً للكمال بالطهارة الأصلية .

وهي أول فتوى خالف فيها أستاذه .

اكتملت دراسات الفتى المكتمل ، وبلغ نضجه العلمي ، واستوى في سن الأربعين - سن الرسل - فأضحى يستطيع أن يؤدي رسالته وهيأت له السماء كل الظروف .
ففي سنة ١٢٠ للهجرة صعدت روح حماد إلى بارئها واجتمع الناس إلى ابنه إسماعيل ، وكان أغلب علم إسماعيل في التاريخ والأدب ، فلم ياق الناس عنده كبير غناء: فأخذ المجلس موسى بن كثير وكانوا يحتملونه وإن لم يكن فارهاً في الفقه ، لأنه لقي المشايخ الكبار ، ثم خرج حاجاً فجلس الناس إلى أبي بكر النهشلي فأبى فسألوا أبا بردة فأبى ، وخلى بين المجلس وبين أبي حنيفة . فوجدوا عنده ما لم يجدوا عند أحد منهم في كل الأبواب نفاذاً وعلماً بارعاً فلزموه وتركوا سواه .

وجاء إسماعيل بن حماد نفسه وإخوانه وجلسوا من النعمان مجلس النعمان معهم من قبل من حماد . ولم يزل الناس يختارون إليه حتى تخرج على يده من تخرج من التلاميذ واستحكمت أمره واحتاج الولاة إليه وذكره الخلفاء وجعل الأمر يزداد علواً ، وغدت حلقة أعظم حلقة بالمسجد وأوسعها في الجواب وانصرفت وجوه الناس إليه وأكر الحكام والأشراف . فقوى ذلك بالعلم الواسع والحدة ، وأسعدته المتبادير ، وكثر حساده .

وظلت في نفسه ذكريات حماد يرددتها مشيداً بنداها على الناس وجدواه عنده وتقواه لله حتى ليقول : « إني لأدعو لحماد مع أبوي » . بل إنه ليخلد ذكره في نفسه وفي داره فيسمى ابنه باسم حماد ثم تخلده الدار بدورها فيسمى ابنه حماد ولده باسم إسماعيل كما كان لحماد ولد اسمه إسماعيل .

ذلك حماد أستاذه في الفقه ، وأبوه في الفكر ، وأولئك آباء حماد الفكريون :

كان حماد تلميذاً لعلية الأستاذين . جرى اسمه في التاريخ على أنه راوية لإبراهيم النخعي : وناهيك بإبراهيم من رجل عظيم قال عنه الشعبي عندما نعى إليه : « هلك الرجل .. إنه نشأ في أهل بيت فقه فأخذ فقههم ، ثم جالسنا فأخذ صفو حديثنا إلى فقه أهل بيته فمن كان مثله . . » وقال : دفنتم أفقه الناس . قيل ومن الحسن (الحسن البصري) ؟ قال : « أفقه من الحسن ومن أهل البصرة ومن أهل

الكوفة وأهل الحجاز» . فلتقد كان في الواقع حلقة الاتصال بين فقه الأقدمين وفقه المحدثين - أخذ عن خاله علقمة بن قيس الذي كان الصحابة يستفتونه والذي قال عنه ابن عباس إذ مات: « مات رباني العلم » كما أخذ عن ابن أخي علقمة الأسود بن يزيد النخعي . وهذان النخعيان أخذوا عن أستاذ الكوفة الأكبر عبد الله بن مسعود ، سادس ستة أسلموا وأحد المهاجرين إلى الحبشة والمدينة ، وقرين أبي بكر وعثمان وعمر وعلي ، وصاحب النبي الذي قال فيه : « من سره أن يقرأ القرآن غضباً كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد » والذي كان أخا في الفكر والرأي لعمر بن الخطاب . قال عنه أبو موسى الأشعري : « لا تسألوني ما دام هذا الخبر فيكم » . ولما أرسله عمر إلى أهل الكوفة بعث إليهم يقول : « إني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وعبد الله ابن مسعود معلماً ووزيراً . وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا برأيهما . وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي » وقدر لعمار ومساعديه ٦٠٠ درهم في الشهر ! ولعبد الله بن مسعود ١٠٠ درهم لتعليمه الناس وقيامه على بيت المال .

وبنى الوزير المعلم بيته بجوار بيت الله . حيث قضى أبو حنيفة فيما بعد أحفل أيام حياته وجرى في خلده وفي منهاجه منهج هذا المسلم السادس أو المعلم الأول للكوفة . إذا أبيع لنا أن نستعير هذا التعبير العربي عن أرسطو . وبهذا تستبين صلة أبي حنيفة بالصحابة المقربين وبالإسلام عندما نشأ الإسلام .

سأل الرشيد عن أبي حنيفة تلميذه أبا يوسف فصوره له في إحدى جوامع الكلم قال : « . . . قال تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ، كان علمي به أنه شديد الذب عن المحارم شديد الورع أن ينطق في دين الله تعالى بلا علم يحب أن يطاع الله تعالى ، ولا ينافس أهل الدنيا فيما بين أيديهم ، طويل الصمت دائم الفكر مع علم واسع . لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً . إن سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب ، وإلا قاس مستغنياً عن الناس ، لا يميل إلى طمع . ولا يذكر الناس إلا بخير . . » قال الرشيد : هذه أخلاق الصالحين ، وأمر الكاتب فكتبها ثم أعطاها لابنه وقال : احفظها .

كانت قرّة عينه في الصلاة طول الليل يتعبد ويتهجد ويصلي ويبكي ويدعو ربه قائلاً : « رب ارحمني يوم يبعث عبادك ، وفقني عبادك ، واغفر ذنوبي يوم

يقوم الأشهاد» . ختم القرآن سبعة آلاف مرة ، وكان ربما ختم القرآن في رمضان ستين ختمة ، ختمة في بياض النهار وختمة في سواد الليل ، ولطالما ذاعت في الناس أحاديث تهواه ، فتميل كان يقرأ القرآن في ركعة واحدة أو ركعتين في الليل ، وقيل إنه كان يصلي العشاء والفجر بوضوء واحد أربعين عاماً .

سئل عنه جاره له شيعي فقال : « لا يمنعني خلافي إياه أن أقول فيه الحق ، إنه لحارى منذ أربعين سنة ما بيني وبينه إلا حائط ، ما كان يصيح كل ليلة إلا بسبع من القرآن بدعاء كثير وبكاء كثير » .

ولكثرة قيامه بالليل وتهجده سمي الوتد . : روى مسعر بن كدام أنه أتاه في مسجده ستة أشهر . فما رآه صلى الغداة إلا بوضوء العشاء الآخرة .

كان إذا أراد أن يصلي من الليل تزين حتى يسرح لحيته ، مؤثراً أن يسجد لله وهو في زينته . ولو كان مستخفياً في الظلام .

وكان لديه ثوب قيمته ألف وخمسمائة درهم يلبسه في بعض الأحيان إذ ينزع لباسه الذي يكون عليه والناس نيام ، ثم يتعطر ويقوم إلى الصلاة ، فقيل له إنما يلبس الناس هذا اللباس إذا لقوا سلطاناً أو اجتمعوا في مجمع عظيم فقال : التزين لله عز وجل أولى من التزين للناس .

ولما ختم ولده حماد سورة الفاتحة احتفل به أعظم احتفال ، فأعطى المعلم خمسمائة درهم . أو ألف درهم . واستكثر المعلم هذا السخاء إذ هو لم يعلمه من الكتاب إلا فاتحة الكتاب فقال له : « لا تستحقر ما علمت ولدى . لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه إليك تعظيماً للقرآن » .

* * *

كان جم الوفاء لجيرته وعشيرته يسهر الليل نشوان بذكر الله وفي جوار داره إسكاف يحيي الليل منتشياً بلذات الشراب . يعمل طول النهار حتى إذا جن الليل حمل لحمًا فطبخه أو سمكة فشواها ، فإذا دارت رأسه علا حسه ورن جرسه . بشعر الشاعر :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر
كأنى لم أكن فيهم وسيطا ولم تك نسبتى في آل عمرو
أجر رنى المجمع كل يوم فيا لله مثللمتى وصبرى

وذاًت مساء فتد الجار المتعبد جاره المعربد وقيل له إن العسس اقتادوه إلى السجن منذ ليال ، فصلى الفجر من الغد ودعا بسواده وقلنسوته الطويلة فلبسهما وركب بغلته وقصد إلى دار الأمير - عيسى بن موسى - يسأله المغفرة للجار اللصق . فأكرم الأمير مثواه وأطلق سراح كل من أخذه الشرط من تلك الليلة إلى ذلك اليوم . وقفل الرجلان راجعين ، هو إلى داره والإسكاف إلى جواره . قال لصاحبه وهو يماوره : يا فتى : هل أضعنك ؟ فأجاب قائلاً : بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً . كان ذلك الصنيع لفئة بارعة تاب بعدها الفتى عن شرابه ولزم الحلاقة حتى صار فقيهاً من فقهاء الكوفة .

فلا تتساءل كيف جشم رجل الفقه نفسه تلك الرحلة في طاب العفو عن سكير . فالجواب في السؤال : أنه رجل الفقه الذي لا يتحرك في قوالب من الجبس ، أو في منامع من حديد ، لأنه صاحب الفقه الحى والطبع الأريحي الذي لا يضيع جاره ، فهو لا يفسد نفسه كما كانت ترتع في الفساد . وحسبك هذه النهاية لتحتفل بها عن البداية . وقد يمما صنع مثله سعد بن أبي وقاص فاتح العراق في صقع قريب من أصقاع العراق يوم القنادسية ، يوم شرب أبو محجن الصحابي الخمر فحبسه سعد وجرى به ليقيم عليه الحد . فلما التقى الجمعان ناحت نفسه كنواح الحمام : كفى حزناً أن تطرد الخيل بالتمنا وأترك مشدوداً على وثاقيا

فقال لامرأة سعد أظلمتني ولك - والله - إن سلمني الله أن أرجع حتى أضع رجلى في القيد . فقبلت السيدة عهده وحلت قيده . فوثب على البلقاء . فرس الأمير ، وأطلق لما العنان بين الصفوف فبهر الجيش ، وخب لب القائد ، حتى خالوه ملكاً من الملائكة المسومين أنزله الله لنصرة دينه . فخلى سعد سبيله وآلى ألا يقيم عليه الحد من أجل بلاء بدت فيه التوبة الكاملة بإسلامه نفسه في سبيل الله .

وكانت لمسة مباركة تاب من بعدها أبو محجن عن الخمر فقال للأمير : « كنت أشربها إذ يقام على الحد وأطهر منها فأما إذ بهرجتني - أهدرتني بإسقاط الحد - فوالله لا أشربها أبداً » .

كان أبو حنيفة إذا جسع المال تسابقت كفاه في تفريقه . . ذلك تلميذ يسد خلته ، وتلك امرأة ذات خصاصة ، وهذا فقيه في أسوأ حال . إن مال أبي حنيفة

إن لم يكن لهؤلاء وأشباههم فلا كان المال ، وإذا أنفق أبو حنيفة على عياله نفقة فليتصدق بمثلها ، وإذا اكتسب ثوباً جديداً فليكس بمثل ثمنه الشيوخ والعلماء . أصابت رجلاً من الأغنياء فادحة أثقلته فجعل يتجلد حتى عضه الجوع ومسه الضر وشكت له امرأته جوعها وجوع صغيرتها ، أن أجذب الفناء وصفر الإناء فمس كبده من ذلك كبد . وخرج على عزم السؤال . وقصد إلى مجلس أبي حنيفة حيث جلس ملياً تقيمه الحاجة ويقعده الحياء . ثم انفض المجلس عن أهله وتفرقوا وخرج الرجل دون أن يبدي من أمره ما أخفى ، وعاد إلى داره . وكان أبو حنيفة قد قرأ في وجهه أشياء تجرى دلائلها بين قسماته ، فاتبعه حتى دخل الرجل داره ، ولما جن الليل جعل أبو حنيفة في كفه خمسة آلاف درهم ودق الباب وقال : « أيها الرجل وضعت عند بابك شيئاً هولك » . ورجع مسرعاً لئلا يرى ذل الأخذ في وجهه . وأخذ الرجل الصرة وهو يأبى أن يحل عقدها خشية أن تكون صدقة ذمى - فلقد كان الذميون يتألفون قلوب الناس في تلك الأيام بالأعطيات - ولكن زوجته أهابت به « حل عقدها لعل الله يحل عقدها » .. فلما حلها قرأ كلمة أبي حنيفة : « هذا المقدار جاء به أبو حنيفة إليك من وجه حلال فليفرغ بالك . . »

وحبس إبراهيم بن عيينة - أخو سفيان بن عيينة المحدث - على أكثر من أربعة آلاف درهم فهم أصحابه بأن يجمعوا له اكتباباً . فلما صاروا إلى أبي حنيفة أمر برد ما أخذوه من الناس وقضى عن المدين دينه .

جاء رجل فقال إن على لفلان مائة درهم وأنا مضيق فسله يصبر عني ، ويؤخرني بها فكلم أبو حنيفة صاحب المال فقال صاحب المال : هي له أبرأته منها ، قال الذي عليه الدين ، لا حاجة لي فيها : قال أبو حنيفة : « ليست الحاجة لك ، وإنما الحاجة لي قضيت » .

تلك صدقات ونفحات في المناسبات . لكن العطاء كان يجري أحياناً الزمان في كل الأيام ، إذ يأمر ولده حماداً بأن يشتري في كل يوم بعشرة دراهم خبزاً يتصدق به على جيرانه ، وعلى كل من يختلف إلى بابه ، وكان يجري على الكثير من أصحابه جارية في كل شهر عدا ما كان يواسيهم به في عامة الأيام .

وتناهى به التجرد عن المادة ، فكان يخرج عن كل ماله للمعوزين . لا يخاف

عيلة، ولا يستبقى لداره ولا لأهله إلا قدر نفقتهم، والباقي كراه طعام البائس والمعتر . .
 وفي ذلك يقول : « ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة
 إلا أخرجته وإنما أمسكها لقول على رضى الله عنه ، أربعة آلاف فادونها نفقة .
 ولولا أنى أخاف أن ألقا إلى هؤلاء ما تركت منها درهماً واحداً » .

وسترى كيف كان ثراؤه عريضاً ل ترى كيف كان سخاؤه عجيبياً . بل ل ترى
 كيف كان إدباره عن الدنيا مصدراً للقوة فى ذاته وأثراً لها فى نفس الوقت ، كالقوى
 تولد القوى فتولد منها . وسترى كيف أخضعت له هذه القوة العالم فى حياته وبعد
 مماته فبلغ فى الدنيا وفى الآخرة ما شاء بل ما شاءت له السماء .

ثم إنك ل ترى الأريحية كلها إذ يهدى إليه : أهدى إليه منديل قيمته ثلاثة
 دراهم فعوض المهدي قطعة خبز قيمتها خمسون درهماً . وجاءته هدية من الفاكهة
 فبعث إلى المهدي متاعاً مرتفعاً كثيراً القيمة .

وأهدى إليه يوماً ألف نعل ففرقها على إخوانه . ورؤى بعد ذلك بيومين يشترى
 لولده نعلاً . . . فلما سئل فى ذلك قال : « إن مذهبي فى الهدايا تقويمها بالغة
 ما بلغت . والمكافأة بمثلها أو مثل ضعفها ، وتفريق الهدية بين إخوانى . لما قد روى
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أهدى إلى الرجل فجلساؤه شركاؤه ،
 وإخوانى جلسائى فلا أحب أن أنفرد دونهم بل أرى أن أجعل نصيبى لهم » . . .
 وأرى قبول الهدية كما قال الله تعالى : (خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ) ، ولما روى
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقبل الهدية ويحبب الدعوة . وأرى المكافأة
 بأحسن منها لقوله تعالى : (وَإِذَا حِيَّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَتَحَيَّوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا) ، ولقوله
 تعالى : (وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) .

وأهدى إليه مرة فكافأ المهدي بأضعاف ما أهدى إليه . قال الرجل : لو علمت
 أنك تفعل ذلك ما أهديت إليك . قال : « لا تقل هذا فإن الفضل للسابق ، ألم
 تسمع إلى ما حدثنى به الهيثم عن أبى صالح يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فأنشئوا عليه . . » .

بلى . . فليسعد النطق إن لم تسعد الحال ! . . !

رأى على أحد جلسائه سنجاباً فلما هم بالخروج قال له : ناولنى هذا السنجاب فتناوله وقال : ما أطرفه . وطلب من صاحبه بيعه فسر صاحب السنجاب أن أعجب الأستاذ بالسنجاب . لكن الأستاذ سأله عن الثمن فأجاب : سبحان الله أبيعك لك ! هو لك هبة منى وتذكرة . قال الأستاذ إن بعته منى بقيمته وإلا فلا حاجة لى فى الهبة ، فإن بعته منى بقيمته كان أعجب إلى وأفعل : ذلك لأنى محتاج إليه . وأبى الرجل وأبى الأستاذ . فقومه بعض الحضور واشتراه أبو حنيفة .

وهو أرحب الناس صدرأ بالأذى والسفاهة . كان يدرك أن رسالته حرب على الجهالة والحسد والتعصب . وأن السبيل إلى الظفر بحملة هذه الأسلحة هى تجريدهم منها ، بالحلم وبالصبر . كان فى المسجد فقام رجل فى ناحية فجعل يسبه فما قطع حديثه ، وقام إلى داره ، فتبعه الرجل يشتم ويصيح حتى إذا بلغ داره قام عند الباب واستقبل الرجل بوجهه قائلاً : « هذه دارى أريد الدخول فإن كنت تستم باقى كلامك فأتمه حتى لا يبقى شىء مما عندك حتى لا تخاف الفتوت » فاستحى الرجل ، وقال : اجعلنى فى حل . قال : أنت فى حل .

وقديماً كان فتى مهين يسلق بركليس بالسنة حداد على ملأ من الناس فظل الرجل العظيم فى عمله لا يأتى إليه بالا حتى أوت الشمس إلى الغروب فسار إلى منزله ، والفتى على أثره يردد سبابه . فلما دخل بركليس بعث خادماً يحمل المصباح لينير للفتى طريق عودته إلى داره .

وهذه أمه يبجلها ويدللها . كانت كبعض الأمهات وبعض العشيرة تكاد تعشى عينها فى سنا الكوكب الذى يغمر الدنيا ضياؤه ! لا تثق بالفتيا إلا إذا جاءتها واردة من الخارج . . . !

حلفت يمينا واستفتته فأفتاها . فلم ترض عما أفتى فتاها . وأبت إلا أن يفتيها زرعة القماص « الواعظ » . فلم يضق ذرعاً ، وحملها إلى دار زرعة . وهناك قال لها صاحب الدار : أأنتيك ومعك فتية الكوفة . . ! ولو انكشفت أمامه لوح المستقبل لقال فقيه الدنيا .

وأسر أبو حنيفة لزرعة أفتها بكذا . فأفتاها .

بل كان يحملها إلى دار عمر بن ذر على ما كان بين الدارين من بعد الشقة
«ثلاثة أميال» ليصلها التراويح خلفه وليستمعوا إلى وعظ هذا الزاهد الجليل .
وليدعوا الله كما يدعو «أتعذبنا يارب وفي جوفنا التوحيد! لا أراك تفعل» وهر دعاء
يوائم قاعدة أبي حنيفة في الإيمان كما سترى بعد . فأى رقة تفيض من هذا القلب
الكبير! وأى دار كتلك الدار تشيع في أجوائها الزهادة والتبتل والإيمان . وأى ذوق
كذلك الذى يتلمس على هذا النحو رضا السيدة التى حملته وأرضعته وقدمته هدية
فاخرة للوجود .

ولما أوجعته الشياطين وهو فى قمة المجد ، معنى بالنكال الذى يصبه عليه ملوك
الأرض ، لم يكده يفتح فاه بالكلام إلى جاره إلا ليقول عن أمه : «والله ما أوجعنى
الشياطين قدر ما آلمنى دموعها» وقالت له أمه : ما خير علم يضيعك هذا الضياع .
قال : يا أماه إنهم يريدونى على الدنيا ، وإننى أريد الآخرة . وإننى أختار
عذابهم على عذاب الله .

قال نابغة الأدب الدينى فى فرنسا «بوسويه» فى رثاء عبقرى الفن الحربى
«كونديه» : «ألا بعداً لأولئك الأبطال الذين لا إنسانية فيهم ! إنهم قد يستحقون
احترامنا وإعجابنا ككل ما هو خارق للطبيعة لكن قلوبنا ليست معزوم . . . » .

فى أى سلك من الرجال يملك هذا السيد الرفيع الطراز ؟ لو كان فى الإسلام
أرستقراطيات وطبقات لكان مكانه فى الذروة العليا من الطبقة العليا خلقتاً وخلفاً .
سمتاً ونطقاً . صلة بالناس وصلة بالله .

كذل أولئك ثم هذا نسبة العلمى الذى يسمونه إلى السابقين من أصحاب النبى .
فقيم إذن أجهود الأشرياع والأتباع أنفسهم ليخلقوا له نسباً غير أنساب الموالى .
ويزيفوا له من مسميات الفرور أنه سليل الملوك . وأن اسمه أو معناه ورد فى
التوراة . وأن النبى عليه الصلاة والسلام قد بشر بقدومه ؟

إنما يتفاضل الناس بالأحلام لا بالأرحام . والمسلمون سواسية كأسنان المشط
وكالبنيان يشد بعضه بعضاً . وهم سواء فى الحج وفى الصلاة وفى الزكاة . وفى
الجنائيات ، عين بعين وسن بسن . وأجروح قصاص .
سوى النبى بين نفسه وبين مولاه زيد . وأمر أسامة بن زيد على الجيش وهو

132005

حدث، وفي الجيش أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص وغيرهم . فلما بويح لأبي بكر قبل مسير الجيش كلم أبو بكر خليفة اليوم أسامة في عمر خليفة الغد، ليأذن له في التخلف ففعل . وظل عمر يناديه كلما لقيه : السلام عليك أيها الأمير . ويقول : « إني لا أدعوك إلا به لأن النبي صلى الله عليه وسلم مات وأنت على أمير » .

ولما شرع عمر يستخلف قال : لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته .
في تلك الأمة التي لا تعرف شريفاً ومشروفاً نهض الموالى بأفدح الأعباء في الحرب والسياسة وفي العلم والفقهاء .

في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاة عكرمة ، وظل عكرمة رقيتاً حتى مات ابن عباس فباعه ولده عليّ بأربعة آلاف دينار . فقال لعليّ : « بعث علم أبيك بأربعة آلاف دينار » ! فاستقال عليّ من بيعه وأعتقه !

وكان عبد الله بن عمر كثيراً ما يذكر ومعه مولاة نافع ، وأنس بن مالك لا يكاد يذكر إلا ومعه مولاة ابن سيرين . وأبو هريرة لا يكاد يذكر إلا ومعه مولاة عبد الرحمن بن هرمز !

بل كانت دولة الفقه للموالى في بعض الأمصار ، كالبصرة حيث كان عليّ رأسهم الحسن البصرى . وفي مكة كان مجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبي رباح ، وطاووس بن كيسان وكثيرون من الموالى .

وفي سوق الفخار هذه علا صوت السودان ، فتولى الفتيا بمصر يزيد بن أبي حبيب بأمر عمر بن عبد العزيز ، وكان يزيد مولى للأزد أبوه من دنقلة ، وهو الذي تعلم عليه إمام مصر العظيم الليث بن سعد .

ثم من هم الموالى ؟ الموالى هم القوم المنتسبون إلى بيوت العرب بعقد ولاء ، ومنهم الأرقاء ومنهم غير الأرقاء ، وكانوا في الأغلب الأعم من أهل البلاد المفتوحة كمصر وفارس وبلاد الروم . وكان العرب يستطيعون أن يملكوهم بحق الفتح ، لكنهم تركوهم أحراراً ، وجرت كلمة الموالى في إطلاقها على أن تشمل من ليسوا عربياً من أهل هذه البلدان ، لأنهم كانوا يسلمون على أيدي المسلمين ، فن أسلم على يد

مسلم كان مولاه ، وكثيرون منهم أسروا أطفالا رباهم المسلمون وعلموهم وغدوا مواليتهم . ولم يك بدعاً أن يظهر الفقه والعلم على يد أهل هذه البلدان المفتوحة : فيقال إن الفقه بعد موت العبادلة الأربعة - أبناء عباس وعمر وعمر ووالزبير - قد انتقل إلى الموالى . إذ كان الموالى أهل حضارة رفيعة لم يمسحها الغزو ، لأنه لم يك غزواً بربرياً . وإنما كان غزواً فكرياً ، فتوح الله به على المسلمين . وعلى أهل البلدان المفتوحة ، فأنزل رحمته عليهم في شريعته إليهم . وانداحت مع الموجة الفاتحة موجة من الإيمان غدت من بعد تياراً من التفتح الذهني أخرج للأمة ما أخرجت من الآيات : وكان الفقه أول ما أخرجت لأنه في الواقع هو الدين نفسه . أو القدر الأوفى من الدين . وتلاقى العاملان ، وتبادل المتبادلان ، ففتح العرب الشعوب المنزوة دينهم قيماً ، ولغتهم فصحى . وقدم الموالى من جانبهم أسباب حضارات فاخرة . وأصول تفكير عميقة . واشتاع الشريكان أبد الدهر . فازدوجا ثم اندمجا . وتضافرت القوى الإسلامية على الإنتاج تضافر القوى عند التلقيح لتخرج أنواعاً قوية جديدة الطراز .

وإذا كان ثمة وقائع تشير إلى النفرة بين العرب والموالى فقد صارت حديثاً في التاريخ بعد أن توج الأزواج بالاندماج .

سأل هشام بن عبد الملك جليسه في فاتحة القرن الثاني : هل لك علم بعلماء الأمصار ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين .

قال : فمن فقيه أهل المدينة ؟ قال : « نافع مولى ابن عمر » .

قال : فمن فقيه أهل مكة ؟ قال : « عطاء بن أبي رباح » .

قال : مولى أم عربى : قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قال : « طاووس بن كيسان » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قال : « يحيى بن أبي كثير » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل الشام ؟ قال : « مكحول » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قال : « ميمون بن مهران » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل خراسان ؟ قال : « الضحاک بن مزاحم » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟ قال : « الحسن وابن سيرين » .

قال : موليان أم عربيان ؟ قال : موليان !

قال : فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قال : « إبراهيم النخعی » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : لا بل عربى !

قال : كادت نفسى تخرج ولا تقول واحد عربى !

قال ذلك هشام وقد طبع على قلبه التعصب لأعراقه ، لكن الخليفة الذى كان فى طليعة من حملوا ميزان المعدلة فى الإسلام قال غيره . . فلما سمع عمر بن عبد العزيز أن بعض الناس أنفوا أن تكون الفتيا للموالى صاح فيهم : (ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعباً وأنتم لا تسمون ؟) .

والذى قاله عمر قاله صاحب الشريعة من قبل لأهله : « لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالأنساب (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) » .

وقف رجلان مولى وعربى على مجلس لبنى العنبر . والعربى على حمار والمولى على ناقة . وكان المولى يقرأ ويكتب ، والعربى لا يقرأ ولا يكتب . فلما سلما على القوم قاموا فسلموا على المولى ثم عادوا إلى العربى ، فقبض يده عنهم وقال : لا ولا كرامة ! بدأتم بالصغير قبل الكبير ، وبالمولى قبل العربى فاسكتوا ، فانبرى واحد منهم فقال له : بدأنا بالكاتب قبل الأُمى وبالمهاجر قبل الأعرابى وبراكب الراحلة قبل راكب الحمار .

هذان روحا هشام وعمر ، وهذا الجواب الأخير هو النظر الذى ينظر به الإسلام إلى عنصرى كيانه قد أنطق الله به فتى بنى العنبر .

كان الموالى هم الذين حملت مناكبهم عمدة الدولة العباسية حتى استقرت بها الأسباب . والأولى ترجموا ، وألفوا ، ولقحوا الحضارة العربية بلفاح الفرس ، واليونان ، والنبطيين والكلدانين ، والآشوريين ، والبابليين ، والروم ، والهنود ، وغيرهم ، فصيروا الحضارة الجديدة حضارة إسلامية جامعة .

وفي العهد العباسي كان منمخرة للرجل أن يكون من الموالى . كان عمارة بن حمزة بعيد الصوت في بلاط المهدي ، فدخل عليه يوماً فأعظمه فقال رجال من القرشيين : من هذا الذي أعظمته الإعظام كله . قال عمارة بن حمزة مولاي . فسمعها عمارة فرجع يقول : يا أمير المؤمنين جعلتني كبعض خبازيك وفراشيك ، أفلا قلت عمارة بن حمزة بن ميمون مولى عبد الله بن عباس ليعرف الناس مكانى ؟ وهؤلاء طائفة من الغزاة والملوك : كافور - الأسود الزنجي كما يقول المتنبي - وأبو المسك - كما يناديه أيضاً - كان (الملك الأستاذ) كما سماه المتنبي كذلك ، وطارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، وموسى نفسه مولى عبد العزيز بن مروان : هذان الموليان اللذان يقصر دون مجدهما كل مجد السادة ، هما اللذان منحا الإنسانية حضارة الأندلس فوصلا الشرق بالغرب وجمعا طرفي التاريخ قديمه وحديثه . ولو طال بنا السرد لبرزت أسماء الموالى على أنها زين أعلام التاريخ الإسلامى وحروف هجاء في آيات فخاره .

بل هؤلاء بنو تيم الله بن ثعلبة موالى أبي حنيفة وأبيه ، لقد صار لهم شأن بأنهم موالى ذلك الذى سعدت به الدنيا فوضعهم في التاريخ حيث يوضع . فلا تسل إذن عن ثابت والد النعمان ولا عن جده زوطى فكلاهما فخار ولدهما إذ يقال إنهما موليان ، وفتاهما فخار هذه الأمة الإسلامية على الزمان . بل قل لثابت ولزوطى ولكل من حاول أن يغرض من نسبهما مقالة المتنبي بلجده :
ولو لم تكوئى بنت أكرم والد فإن أباك الضخم كونك لى أما

* * *

إن هذه الشريعة لتباهى بطائفة من أنبغ علمائها بزغت نجومهم أو وفدت أصولهم من خارج بلاد العرب . ولكن ساغ ذلك النبوغ في السياسة أو في القيادة أو في الفن ، فإنه في الفقه ، وللهولمة الأولى ، يستوقف النظر . وبخاصة في فجر الإسلام . ففي الفقه نصوص القرآن والأحاديث والسنن . فكيف تتمثل النفوس الوافدة من بعيد خصائص الأمة العربية في سهولة ويسر وسرعة فتحفظ كتابها وتدرك أسرار لغتها حتى تبرز الخالص من بينها !
هؤلاء الموالى الذين أسلفنا المقالة فيهم . وهذا الليث بن سعد كان أهل بيته

يقولون نحن من الفرس من أصبهان ، والطبري من آمل بطبرستان ، وابن جريح روى المنبت ، وربيعه الرأي فارسي الأصل ، والشعبي علامة التابعين كانت أمه من سبي جلولاء ، والحسن البصري كان أبوه من سبي ميسان ، ولو عمدنا إلى الحصر لشمّل الكثرة الغالبة من أئمة الفقه والعلم ، ولكننا نقتصر على بعض الأمثال . بل ان اللغة نفسها قد سعدت بالموالي مثلما سعدت بأربابها ، هذا عبد الحميد بن يحيى الذي قيل عنه : « ابتدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد » كان من الموالي ، وهذا سيبويه يضع قواعد النحو ! والكسائي وارث علماء البصرة ، وتلميذه الفراء كان ديلميًّا كهيار ، وابن مسكويه وابن سينا والشارابي كانوا موالي أجمعين . ومن قبلهم كان ابن المقفع سيد النقلة إلى العربية . . . وهو أول من أشار بتجميع الفقه وما يزال تجميع القوانين الشرعية إلى اليوم أمنية رجل القانون .

نزل الوحي في شبه الجزيرة كالغيث ، وسال من قممها إلى الوديان الإسلامية طرّاً حيث قرقراره ، واحتمل السيل في فيضانه تلك المدنية الرابية لا تقفها الحدود ولا السدود ، فشرقت فغمرت بطاح آسيا ، وغربت لتصب في المحيط الأطلسي . بدأ العراق نهضة اللغة بالبصرة واكتملت فيه نهضة الفقه بالكوفة ، ثم تاقى اللواء في مصر جامع عمرو ، والأزهر الأغر . فأبقى الجامع العظيم على حضارة الإسلام ألف عام ليؤديها إلينا في القرن الرابع عشر وإلى كل القرون .

إن هذا الدين متين كلما أوغل الداخل فيه اشتملته فيوض النور ، فخلبت له قواعد المجتمع ، ونظم الأسرة والأهلية والأخلاق العامة والزكاة ، والصلة اليومية المتعددة بالله باسم الصلاة ، والمؤتمر السنوي العام إلى جوار بيت الله الحرام ، والمؤتمر الأسبوعي الخاص في يوم الجمعة في كل مكان ، وحرمات البيوت وحقوق المعاملات ، والتعاون ، وأخلاق السلم والحرب ومساواة المرأة بالرجل ومساواة المسلم بالمسلم ، ذلك وما إليه من خصائص الإسلام يأسر من فؤاد الباحث بقدر إيمانه ، وكلما تغلغل فيه اختلطت كفاياته بأصول الدين فاستحالت عجباً .

بهذا تمثلت الشريعة الإسلامية المثل والنحل الشتى فصارت أمة واحدة هي الإسلام ، لا فضل فيها لعربي على أعجمي ، وإنما الفضل بالتقوى .

ولئن كانت النعرة العربية قد استبدت بهشام بن عبد الملك ، فإنما هي جاهلية ذمها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية ، وتعاضمها بآبائها ، فالناس رجالان يرتقى كريم على الله . وفاسق شقى هين على الله ، والناس بنو آدم .. » ولقد فات أمير المؤمنين أن المؤمنين موال وعرب ، وأن الإسلام للعالم كله لا لجزيرة العرب وحدها . وأن نبوغ النوابع من أفنان الدولة إنما هو أفخر التحايا للدين الجديد في مطلع سعده وفاتحة عهده . أن أدبهم فأحسن تأديبهم .

وفاته أن جزيرة العرب قد سبقت فاحتفظت بكل شيء ، ولم تكذب تبقئ للناس من دونها شيئاً .

فاته أنها أخرجت محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وحسبها هو . . . ولو أنه ليس لها وإنما هو للدنيا جسيماً . . .

لقد اعتمز الإسلام بأهل البلاد المفتوحة . وتألقت في سماواته حضارة دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة والقسطنطينية وأمثالها ، لكن مركز الثقل كان دائماً في وسط الجزيرة . وحيثما كان المسلمون ولوا وجوههم شطره ، مبتهلين إلى صاحب البيت العتيق بمكة . مصلين على صاحب القبر الشريف بالمدينة .

الباب الثاني

التاجر

« لا تشاور من ليس في بيته دقيق فإنه موله العقل »
الشافعي

كان أبو حنيفة خزازاً يبيع الحرير الخالص أو المخلوط بالصوف ، وقديماً كان نبي الله إدريس أول من خاط الثياب ، وكان الصديق أبو بكر بزازاً وكثيرون من جلة الصحابة كانوا تجاراً .

ومن ألف وأربعمائة عام قبل أبي حنيفة كان أفلاطون يعمل في التجارة ويقول : « أريد الثراء ولكني لا أريده من الظلم » ، ويبيع الزيت في مصر ليسد نفقات رحلاته ، ومن بعد أبي حنيفة بألف عام كان إسبنوزا يصنع العدسات .

كان أبو حنيفة تاجراً صناعته الفكر ، ومفكراً يعمل في التجارة ، ومن ثم كان توفيقه التجاري ، الذي انحدرت إلينا أنبأؤه مع التاريخ . ومرده قطعاً إلى دراية ذات شعب ، وأسلوب كأحدث ما تكون أساليب العصر الحديث يسمو عن الإعلان ، وهي ذرائع تكني إحداها للنجاح ، فكيف إذا اجتمعت لدى رجل كله لباقة ، وأناقة ، استطاع أن يجعل من المال أداة لنشر الفكر ، وما أقل من كان الفكر مشغلة حياتهم ، وقدر لهم مع ذلك أن يجدوا في الأرض مراغماً وسعة تجنبهم أن يسعوا لدى الأمراء أو الأغنياء ، مؤثرين أن يلقوا بأنفسهم في معترك الحياة بالخروج إلى السوق العام ، في صميم الميدان ، أو في عرض الخضم ، بالكدح والدأب واللغوب .

بهذا حل أبو حنيفة العقدة التي يقف بإزائها المفكرون حزني مبلسين ، عقدة الفقر الذي عود الناس أن يلازم الفكر ، والمفكر الذي يرتحل رحلة الحياة الدنيا جوعان تعساً نهدر المسغبة مزاياه : يقدح فكره ألمعية ولوذعية ، ولكنه لا يستطيع أن يحيل هذه القيم الهائلة إلى ثمن بخس ، دراهم معدودة ! ويتراءى له بريق النعماء ويعجز عن الدنو منه والدلف إليه فتتحالف عليه مركبات النقص ، وتضيق به المسالك المتنادحة ، فينوء بالحياة مثلما ناءت به الحياة .. ويخرج منها محروماً مقترا عليه في الرزق .

في حالتنا كان فقيه الكوفة من أكبر تجار الكوفة ، فلم يك ممن يجلسون إلى الأرض ويرفعون أكف الضراعة إلى السماء ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، أو يمدونها إلى الأمراء فإن مال الأمير ثمن لنفس العالم ، أو يرقبون أن تنهض

حظوظهم العواثر دون أن يركضوا تلك الحظوظ في حلبة من الحلبات ليروا مبلغ ما تكبر . أو تصلى ، أو تجلى .

ذلك أسد بن الفرات أعز نفسه وأذل واهبه حين قسم إبراهيم بن الأغلب بين الفقهاء أعطياته فقبل البعض وأبى البعض ، فمن ابن الأغلب عليهم بعبائه فقال أسد : « لا عليه إنما أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقي . . . » ولم يكن أسد ليقولها إلا وهو القاضى العامل فى القيروان ، والفتاح الغازى الذى مات على رأس الجيش فى حصاره لسراقوسة بصقلية سنة ٢١٣ .

عرف أبو حنيفة أنه كلما بعد الفقيه عن الحاجة قربت الفتوى من الله، وكلما أغناه الخلق عن الخلق أدناه إلى الحق . . وإذا لم يكن الفقه أداة للطعام تداول الدنيا كلها بين أنامله .

وأدرك الشافعى ذلك من بعده بنصف قرن فقال : « لا تشاور من ليس فى بيته دقيق فإنه موله العقل » .

ولقد عرفه أبو حنيفة فلم يربط نفسه إلى البأساء والضراء بأمراس كتان من الرهينة المضيفة . والتبتل المؤذى . فى حياة يجب أن يعمل فيها المرء لندياه كأنه يعيش أبداً . وفى أمة يقول رسولها إن أفضل الكسب « بيع مبرور وعمل الرجل بيده » . و « لأن يأخذ أحدكم حبله فىأتى بخزمة حطب على ظهره فيبيعهها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .

و « نعم المال الصالح للرجل الصالح » . كما قال عليه الصلاة والسلام .

كان الليث بن سعد - إمام مصر - ذا ثراء عريض يضع الدنانير فى الفم والزوج فمن أكل من صحبه أكثر نالته دنانير أكثر . . ! وكان صاحباً لمالك بن أنس إمام دار الهجرة . وكان مالك يقول عنه : « حدثنى من أرضى به من أهل العلم » . ومع ذلك كتب إليه فى تريب يقول : « بلغنى أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشى فى الأسواق » .

وأدركت ضفاف النيل لدع الضربة الموجهة إليها من شمس الصحراء . فاستعان الليث عليها بالله . يدفع عن نفسه مذمة لبس الرقاق أو أكل الرقاق . فكتب إليه

يقول : « قال تعالى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) » .

وعاش الليث في جاهه وماله كأصحاب التيجان فلم يمنع ذلك أن يقول عنه الشافعي إنه « أفقه من مالك لولا أن أصحابه لم يقوموا به » .

كانت الكوفة عاصمة العراق ، وكان العراق أثنى جوهرة في التاج ، فيه ست كور ، أولاها كورة الكوفة ، وكان له شأن أى شأن ، فيه النهران بجران ، بالرخاء وال عمران ، تتصل به من الشرق والشمال حضارتان عريقتان هما حضارة الفرس وحضارة الروم ، ثم تلاقت الحضارتان فيه مع حضارة الدين الجديد ، كما تلاقى رجال الدين من كل رأى مجاهدون في سبيل العلويين . وفي سبيل الأمويين ، وفي سبيل ابن الزبير ، وفي سبيل بنى العباس ، وفي سبيل الأمة ، أو في سبيل أنفسهم . فأى جيشان بعناصر الحياة ، ولو ازع النماء ، وأسباب القوة ، كانت تجميشه هذه الكورة ، وأى مضطرب للفتى المثقف والتاجر الحصيف ثمة ! وبخاصة إذا كان يتغنى النجاح بمعناه الإنسانى لا المالى . وبمعناه الذى أراده الله لا معناه الذى يحصى ويعد بمقدار ما ينتج من النقد . بل همه وكبر مناه أن يسلف لنفسه عند خالقه قدم صدق بما قدمت يداه .

بدأ أبو حنيفة حياته في التجارة يطبعه الطابع العلمى . فدخل السوق يدرس على أستاذ يعلمه التجارة سماه للإمام الشعبى يوم وجهه للدرس المقتضى كما مر بنا . وهى ظاهرة تراءى لك في حياة أبى حنيفة في غير موضع . مردها إلى ما فيه مزاج جامع بين العلم والعمل ، فيتذرع بالدرس والعلم حتى فيما هو عملى محض ، حتى إذ كان في ريعان حياته قدم إليه رجل تاجر فقال له : « أراك تتجر . التجارة إذا كانت بغير علم دخل فيها فساد كبير فلم لا تتعلم ولا تكتب » ولئن كان ما عناده هو العلم العام ، إن الطابع العلمى يثبت به مثلما يثبت لو كان ما عناده هو النقد . والعمل للفائدة التى يفيدها التاجر بالعلم العام خير وأبقى في العمل التجارى .

وهكذا دخل إلى السوق مدخلا كريماً فأضحى فيه من المجاديين والمجدودين . اختار الدكانه مكاناً من أبرز أهكنة الكوفة في دار ليست هيئة على التاريخ . هى أبو حنيفة

دار عمرو بن حريث - الصحابي - يلتقى بها المؤرخ حيث يجد الجحد في حياة العراق،
وحيث يكون للأماكن شأن .

ففي سنة ٨٢ سار ابن الأشعث من البصرة إلى الكوفة لقتال الحجاج . وثار
الكوفيون بوالبيهم . ومالوا إلى ابن الأشعث وسبقت إليه قبيلة همدان تحف به عند
دار عمرو بن حريث ، وفي سنة ١٢١ خرج زيد بن علي وخرج أهل الكوفة معه
فجرت المعارك دامية بين أبنية الكوفة عند دار عمرو بن حريث . فهى لا مرية كانت
من أظهر معاهد الكوفة حيث يستقبل الفاتحون وتدور أرحاء المعارك . . . وحيث
سوق الحرير .

وإنك لتتصور مظاهر الذوق في ترتيب دكانه ، مما كان عليه في خاصة شأنه حسن
هيئة . وبزة . وتفكير وتعبير . بل إنك لتكاد بعد هذه القرون والمسافات تنسم العطر
يتأرجح من أردانه وزوايا دكانه . وتتصور النساء إذ أقبان أو أدبرن . بائعات أو
مشتريات . يفضضن من أبصارهن ولا يبدين زينتهن . يدلفن إلى الدكان كأنما
يفدان إلى الدرس . ويفصلن عن دار ابن حريث كأنهن يفصلن عن المسجد الجامع ،
وكأنما كن في الدكان في المحراب .

كان صاحب هذا الدكان يقول : « من وصف خف امرأة صغيرة أو كبيرة
فقد وصف قدمها . ومن وصف قدمها لم يكن عدلاً » . ويقول : « إذا قامت
المرأة من موضعها فلا تجلس فيه حتى يبرد » . وكان رحمه الله إذا مشى في الطريق ،
لا يعرف الرجل من المرأة . قال في وصية لأحد مربيه : « .. وإذا مشيت في
الطريق فلا تلتفت يمنة ويسرة بل داوم النظر إلى الأرض .. ولا تماكس بالحبات
والدوانيق .. » فياله من رجل رفيع وتاجر رفيع .. يدرك قيمة لفظه وخطرات نفسه
فلا يبخسها بإنفاقتها في المساومة والمماكسة سواء أكان ذلك بالحبات والدوانيق أم
بغير الحبات والدوانيق .

جاءت عجوز إلى دكانه تطلب ثوباً وتوسلت إليه بسنها أن يرفق بها .

قال : دونك هذا الثوب يا أمه . . .

قالت : بكم ؟

قال : بأربعة دراهم .

قالت : لا تسخر مني وأنا عجوز لا حيلة لي .. !

قال : إنه لكذلك . لقد اشتريت ثوبين فبعت أحدهما بالثمن كله إلا أربعة دراهم . وهذه الدراهم الباقية ما أطلبه منك ثمنًا للثوب الباقي . .
أضف إلى هذه الصورة وإلى آداب التجارة، أن الحانوت ليس محلاً للمدرسة، وإن تولى التلاميذ البيع فيه بين الفينة والفينة، وهكذا بقيت دار ابن حريث خالصة للتجارة . أما العلم فبقي دائماً في مكانه . لا في السوق ، ولا في الطريق .

في ذلك الحانوت يجلس سيد مكيث غير عجل ، مخبور التجارب ، يتقبل الناس بقبول حسن ، وضياء الحيا ، منبسط الطبع ، ميمون النقيبة ، ينصف الناس من قبل أن ينصف نفسه من الناس ، لا يمايل ، ولا يتحيف . ولا يستكبر . ولا يستنكف . يقصده نظ القلب فيألفه ، ويمر به الرجل فيجلس إليه لغير قصد ولا مجالسة ، فإذا قام سأل عنه فإن كانت به فاقة وصله . وإن كان به مرض عاده . حتى يجره إلى مواصلته .

أما صدق المعاملة والنفرة من المماكسة . فكانتا كلمة السر في دكانه . الكأنا كانت كل ألواح «الثمن محدد» مرسومة في مخيلة حرفائه وعملائه قبل أن تشد إلى جدر الدار ، فلئن كان صاحب الدكان أستاذ الأساتيد في الجدل . إن لكل مقام مقالاً . . . وليس هنا مقام الجدل .

وهو لا يهتبل غفلة الزمان ، أو غفلة الإنسان . بل إنه ليقطع أبعد الأشواق في مضمار النصفة ، فلا إعلان . ولا شبهة إعلان . لما قد يكون في الإعلان من إيهام ، والحرير الحر يعلن عن نفسه أنه حرير حر بلا كلام .

كان الناس في ذلك العصر حديثي عهد برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم . تأسرهم الكلمة إذا سيقت ولو في السوق ، فكيف بها إذا خرجت من فم الأستاذ . أو من فم غيره على عينه أو على سمعه وفي دكانه .

طلب رجل ثوب خز ، فقال لابنه حماد : يا حماد أخرج ثوباً ، فأخرج حماد ثوباً ونشره قائلاً : صلى الله على محمد . . !

قال أبوه : مه قد مدحته . .

ورفض أن يبيعه .

واضطرب المشتري في السوق يبحث عن ثوب آخر ولم يوفق فعاد إلى دار ابن حريث أشد ما يكون حاجة إلى الثوب . وأظهر ما يكون استعداداً لدفع الثمن ، ولكن الشيخ في غير مخاشنة ولا مشاقة ، بل في سماح وإسجاح ، رفض أن يبيع . وعاد المشتري أدراجه .

وفي ذلك الحانوت بضاعة لا تعرضها الحوانيت الأخرى في سوق الخزازين ، يقصد الرجل من أقطار الجزيرة إلى الكوفة ليشتري لبنته جهازاً ، فينبهه الناس على الجهاز في دكان «الفقهاء الخزاز» . وإن الذين يعرفونه ليحذرون الذين لا يعرفونه من المماكسة . وللاحرفاء لقاء ذلك أن يشتروا بالثمن العدل .

وإذا خدع تلميذ من تلاميذ الشيخ مشربياً فقبض منه ألف درهم واف ، وباهى التلميذ بين يدي أستاذه بما صنع رد الأستاذ ما زاد على الثمن . بعد إذ حاول استرداد الثوب ورد الألف بتمامها .

وكما كان التفكير أدواته في الفقه . كان الفكر أدواته في التجارة . كان الثمن في دار ابن حريث يتحدد على أساس من الربح المعقول يضاف إليه نفقات الشراء والبيع متبينة بتمياس العدل والعقل . فكما كان التماس الأئطم في تاريخ الفقه على ما سترى بعد كان التماس المنصف في ثياب الخزي في دار ابن حريث .

حقاً ، إنك لا تستطيع أن تجزم هل كان التوفيق التجاري قد جاءه عن الفقه أو أن الفقه قد اتخذ من التجارة أسباب وجوده . لكن ثمة قدراً متيقناً تستطيع أن تقرره بين الجوابين . هو أن الصديق والحزامة في التجارة قد هيا له من النجاح أسباباً مواتية للتفرغ لدين الله . في روحانية المتعبد . يستقبل تلك الاممحات التي يبعثها الإلهام في الكون كومضات النور . والسعيد السعيد من رآها . وكانت ملكاته متحفزة تتلقاها . كما تستطيع أن تقر أن التجارة ربطت بين دنيا الفقه ودنيا الناس في أفكاره . فغدا فتته فته الحياة التي نحياها . ورحم قلبه ضعف الإنسان ، وكان التسامح كبرى قواعده ، وتحمل مسؤولية المخاطرة . فصعد بالرأى في مزاج موفق بين العمل والعلم ، والمعقول والمنقول . وامتد بصره فشمّل المستقبل ووضع

لاحتمالاته ما يحكمها من الأصول متحرزاً - كما قال - من البلاء قبل نزول البلاء .

وكما أثرت في الفقه التجارة ، أحدث الفقه في التجارة آثاره . فلئن كانت في الفقه العصري مقولات مسلمة (كالغش المباح) أو (الكذب المباح) يتبادل تطبيقها المتعاملون كل حين ويصح معها العقد وإن كانت تستزريها قواعد الآداب ، إن الأستاذ كان يدرك أن دكانه فتح ليتمم مكارم الأخلاق .

بعث بمتاع إلى حفص بن عبد الرحمن شريكه في التجارة وأعلمه أن في ثوب منه عيباً فبينه للناس ، فباع حفص المتاع ونسى أن يبين واستوفى ثمناً كاملاً لثوب غير كامل - وقيل إن الثمن كان ثلاثين ألفاً أو خمسة وثلاثين ألفاً - فأبى أبو حنيفة إلا أن يبعث لشريكه يكلفه أن يبحث عن المشتري . ولكنه لم يهتد إلى الرجل . فأبى أبو حنيفة إلا فصلاً من شريكه وتاركاً .

بل رفض أن يضيف الثمن إلى حر ماله وتصدق به كاملاً .

ذلك مثله لإنصاف المشتري من نفسه . وهذا مثله إذ ينصف من نفسه البائع . جاءه رجل بثوب يبيعه قال بكم ؟ قال بكذا . قال إنه يستحق أكثر من ذلك ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف !! بل جاءت امرأة بثوب خز تبيعه بمائة . فقال لها هو خير من مائة . بكم تقولين ؟ فزادت مائة . مائة ، حتى قالت أربع مائة . قال هو خير من ذلك . قالت تهزأ بي ؟ قال هاتي رجلاً . فجاءت برجل فاشتراه بخمس مائة درهم .

وصدقت المرأة أنه لم يتخذها سخرياً . وصدقت كذلك أنه لم ياك يريد الإحسان إليها . . وإنما نفع الله به البائع والمشتري .

فهو ينصف المشتري منه ، والبائع له . وينصف من لا يبيع له ولا يشتري منه . كل أولئك ونظائره في لين وخفض جناح ، وسلاسة طبع وسلامة أسلوب ، فإذا أح يتقضى دينه من مدينه لم يجلس في ظل جداره !! قالوا إنه لا يريد أن يتقاضى من مدينه أكثر من دينه بأن ينيء إلى ظلاله إذ يجيء إلى داره . وهو الورع الحق ، كنه قبل ذلك الورع ، دقة نفس ورقة حس ، لا تضيف إلى عسر المدين إلحاح

الدائن ، إذ يترصده . . . فلا يجزى المطال بالاحتلال وإن كان الاحتلال مجرد فيء إلى الظلال .

ترى هل كان هذا الخزاز بالكوفة أو ذلك البزاز بمكة الذي وصفوه بأنه كان رجلاً وسيمًا : « . . . وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه بالفونه لغير واحد من الأمر . لعلسه وتجارته . وحسن مجالسته . . . » !

ذلك أبو بكر الصديق . وهذا أبو حنيفة . وقد كان بينهما تواصل ذهني يترأى خلال ذلك التشابه : في العمل وفي الطباع . حتى إن أبا حنيفة كان يأخذ بأبي بكر وأفعاله وخصاله .

وذات يوم بعث إلى فتية يقول لهم : إن أباكم أودع عندي مائة وسبعين ألفاً فخذوها . . ! ولم يشهد عليهم فإنه لم يكن أشهد عليه ، وهو لا يريد أن يعلم أحد أن لهم هذا المال .

فلما جاءه الأجل ظهرت عنده ودائع بخمسين ألفاً ردت لذويها .

وازدهرت تجارة أبي حنيفة أيما ازدهار . إن هذا الإنفاق الضخم لخاربة الفقر ونشر العلم كما سترى بعد . وهذا التصديق بعشرات الآلاف ، أو التجاوز عنها . لا تسمح به إلا البيوت المالية النوطيدة الأركان والناجحة كل النجاح . حتى لقد بلغ من ازدهارها أن قيل إن بعض أعداء أبي حنيفة دس له عند المنصور أن أموال أبي حنيفة استعملت في تقوية إبراهيم بن عبد الله (ابن الحسن بن الحسن ابن علي) إذ خرج على أبي جعفر وإزه لهذا حبس أبا حنيفة .

إن هذا القدر بلغت هذه الأموال . . أن تساعد في إدالة دولة وإقامة دولة . . . !

بهذه القواعد التي بسطنا بعضها كانت دار ابن حريث تضرب الأمثال

كريمة للناس .

إنك لا تستطيع أن تقنع الناس بالرأى ولا بالعلم . فالدينا مدرسة مكبرة

والحقائق لا تفهم مصورة . ولا مجهرة ، قدر ما تفهم بالتطبيق . والناس في

الدنيا كالتلاميذ في المدارس لن يفهموا شيئاً إلا إذا صنعوه بأنفسهم . أو صيد

على أعينهم بالرفق وحسن الأداء . والكلام لا يهدى قدر ما يهدى العمل

وما تهدي القدوة : والقدوة في العلم هي أن تبدأ بنفسك فتسكب ذاتك فيما تصوغه للناس من قواعد أو تصبه من قوالب :

أذن النبي لصحبه وهم على سفر في الإفطار شهر رمضان وبقي هو صائماً . فلم يقطعوا صومهم حتى عمد إلى الفطر ، فحفوا إلى الاقتداء بفعله وأفطروا . . .

ونظر فتیان من أسباط الرسول عليه السلام - يجرى في عروقهما دم الهدى والرسالة - إلى أعرابي على شاطئ الفرات يخفف الوضوء فقلا لئنفسهما ، لو قلنا له غلظت ربما انتفخت أوداجه ، ولا ينقاد إلى الحق : فقاما إليه ، وقالا له : نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بالوضوء والصلاة منا ، فنتوضأ ونصلي عندك ، فإن كان عندنا قصور فعلمنا . فتوضأ وصليا كما عرفنا عن جدتهما عليه الصلاة والسلام . فتاب الشيخ ورجع عن صنيعته .

إن قاعدة الإصلاح في جيل هي أن يصلح المصلح نفسه قبل أن يتحدث في إصلاح سواه . فالنفس هي التي تسمح لا الأذن : وفي الناس الحاجة تنبعث من أعماق حب الذات أو الدفاع عن النفس تسوقهم إلى الاستمساك بما هم عليه والاستسلام إليه .

خطب عمر بن الخطاب يوماً وعليه ثوبان فقال : أيها الناس ألا تسمعون ؟ قال سلمان : لا نسمع .

قال عمر : ولم - يا أبا عبد الله ؟

قال : إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً ، وعليك ثوبان .

قال : لا تعجل . ونادى : يا عبد الله ! فلم يجبه أحد . قال : يا عبد الله

بن عمر - ابنه .

قال : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : نشدتك الله . الثوب الذي ائتذرت به أهو ثوبك ؟

قال : اللهم نعم .

قال : سلمان : أما الآن فقل نسمع .

ذلك سلمان الفارسي أو الناس جميعاً . . . ومع الخليفة الذي خطب ،

عندما تولى : ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والى اليتيم إن استغنيت عفت وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، نقرم البهمة الأعرابية القضم (الأكل بأطراف الأسنان) لا الخضم (الأكل بأقصى الأضراس) :

وقديماً قيل : خير من الخير فاعله . وشر من الشر فاعله .

ولقد علم أستاذ الكوفة عبد الله بن مسعود أجيالها اللاحقة هذه الآراء فقال : « إن الناس أحسنوا القول كلهم . فمن وافق فعله قوله فذلك الذي أصاب حظه ومن خالف فعله قوله فإنما يوبخ نفسه » ومن قبل قال عليه الصلاة والسلام : « إن في جهنم أرحاء تدور بعلماء السوء ، فيشرف عليهم من كان يعرفهم في الدنيا فيقول ما يصيركم في هذا وإنما كنا نتعلم منكم ؟ ! قالوا كنا نأمركم بالأمر ونخالفكم إلى غيره » .

وقال : « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعلموا » .

من أجل ذلك كان الزعماء العالميون قوماً زاهدين ، وخاض القادة المبرزون معاركهم في الصفوف الأولى وفي الطليعة : كخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز . وغاندي في الشرق ، وكروموويل . وسالازار وديفالبرا في الغرب .

ومن تمة تدرك أثر القدوة في عمل التاجر الكريم النفس والكريم الفعال .

شارك حفص بن عبد الرحمن أبا حنيفة ثلاثين عاماً وكان رجلاً صالحاً روى عن شريكه الحديث والفقهاء . ولا ينبغي عن الشريك مثل الشريك . فهدى العليم بكل خليعة من خليعات الضمير التجاري للزميل التاجر . وما أدراك ما في الضمير التجاري : المخالب المخضبة تقطر من دم الضحايا . والخارج . والحيل . والنسار المعذب المندفع نحو كل ما هو مادي ومالي . . . ! إلى جوار التواء الرشيدة والسجايا الحسان والآداب العالية للتجارة .

فلنستمع إذن لحاصل التقرير الختامى عن الشركة حيث يقول حفص « جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنسك وأهل الورع منهم فلم أر أحداً أجمع لهذه الحصال من أبي حنيفة » .

الرخيص ولا المباح . وإنما يؤثر في حق نفسه أن يكون عند عهده وأن يكون حرقى الوفاء :

على هذه القواعد وأشباهاها قام ذلك البيت التجارى فى دار ابن حريث بضع عشرات من السنين . تكفى للتمكين لتاجر صيت زاكى الأحدثه نقب فى البلاد ذكره وذكر عروضه من نفائس وأعلاق ، ومكرمات وأخلاق ، يحف به الحسن من كل جانب . حسن الهيئة وحسن البزة وحسن الطلعة ، والوجه الصبوح خطاب توصية فيه القبول .

جاءت تكاليف الإسلام للناس كافة وكان صاحب الرسالة أول المسئولين عما يسأل الناس عنه .

كانت تأتى عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بر . ويأتى على أهله الليالى ما يجدون فيها عشاء . ولما مرض مرض الموت قال لعائشة وهى مسندته إلى صدرها يا عائشة ما فعلت تلك الذهب ؟ قالت هى عندى . قال فأنفقيها . ثم غشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صدرها . فلما أفاق قال هل أنفقت تلك الذهب يا عائشة ؟ قالت لا والله يا رسول الله . فدعا بها . فوضعها فى كفة . فعددها فإذا هى ستة دنانير فقال : ما ظن محمد بربه لو لى الله وهذه عنده . فأنفقتها كلها ومات من ذلك اليوم .

وكان عمر يأخذ لنفسه من بيت المال يومياً درهين هما كل المخصصات العمرية ! بهذا استطاع أن يضرب ولاته بالدره ! ويضرب عامله على البحرين (أبا هريرة) حتى يدميه ويأخذ منه ١٦٠٠ دينار وهو يقول « والله ما بعثناكم لتتجروا فى أموال المسلمين » ويسأل عمرو بن العاص ، من أين آل إليه المال ويشاطره أمواله :

مر يوماً ببناء يبنى بأجر وجص فقال لمن هذا ؟ قالوا لعامل من عمالك قال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها .. وشاطره ماله ! ولما أخذ يستخلف قالوا له لو أنك عهدت إلى عبد الله - ابنه - فقال : « بحسب أهل الخطاب

أن يحاسب منهم رجل واحد . . ولوددت أئى نجوت من هذا الأمر كفافاً
لا لى ولا على . .

لكن صاحب هذه النفس القوية يرى فى فحمة الحلك أطفالاً جياًعاً
فيحمل إليهم الدقيق من دار الدقيق وينفخ النار تحت القدر حتى يطبخ لهم
والدخان يخرج من خلال لحيته !!

هذه العمرىات التى تذر المفكر فى ذهلة المتحير . وهذا التوفيق الذى
سدت به العناية الإلهية خطى أبى بكر وعلى وأبى عبيدة وسعد بن أبى وقاص
وابن مسعود وزيد بن ثابت وأمثالهم فى كل فن وضرب . وما تبع هؤلاء
جميعاً من وثبات فكرية وسياسية وبطولات تزدهى بها معالم التاريخ الإسلامى ،
ليست إلا أصداء متفرقة لصوت واحد . هو صوت المثل الأعلى من الرسول
عليه الصلاة والسلام . ما يزال يدوى خلال القرون حتى يقف هذا الكوكب
السيار عن أن يدور . . وإنما يتردد الصدى ذلك التردد البعيد المدى ، فتتهز
له النفوس اهتزازات تخلق الفحولة والبطولة . لأن الصوت الأصيل الذى يدوى
فى الأرض هابط إليها من السماء . تصيب تفحاته من أحاطوا به ومن لم يحيطوا .
فانتقلوا من الجاهلية إلى هدى الإسلام وغدوا حكماً وحكاماً وعلماء ومشرعين
وشعراء ومخترعين وفنانين وأبطالاً فى الوغى يجدلون الأبطال . ليس ما أحدثوه
إلا آثاراً مما أحدثه الصوت الأول فيهم . فلما صعدت روحه إلى بارئها كانت
كوعاء العطر إذا فض فدامه فاض العطر فى كل مكان وانتشر !

ما عمر بن عبد العزيز . ولا المأمون . ولا أبو حنيفة . ولا الشافعى .
ولا ابن سينا . ولا ابن رشد . ولا طارق بن زياد وأترابهم فى كل فن من فنون
العلم أو السياسة أو الحرب . إلا رجال تضرم جذوة الإيمان فيهم حرارة الرسالة
التي كانت تغمر قلوبهم بالنور .

إنما هى الزعامة الصحيحة الملائى باليقين تخلق الناس خلقاً جديداً وتنعكس
على أنفسهم شتى الانعكاسات . فتحدث الأحداث متقاربة أو متباعدة ،
فى العصر نفسه أو بعده بأعصر ، فلا تهم المسافة الزمنية والمكانية ، وإنما

يهم الإيمان الصحيح الذي يخلق القوى العارمة فتتخطى حدود الزمان والمكان .
وسترى بعد كيف كانت حياة أبي حنيفة قدوة للفحول والأبطال .

• • •

كان أبو حنيفة خزازاً . كما كان كثير من رجالات الفقه بعده تجاراً
وصناعاً .

هذا الإمام الحصاف أحمد بن عمر بن مهير . أبوه تلميذ محمد والحسن
صاحب أبي حنيفة . كان الحصاف يؤلف للمهتدي بالله كتاب الخراج .
ويصنف كتبه العظيمة في الفقه في حين يعيش من خصف النعال . وهذا
الكرابيسي يبيع الكرايس . أو الثياب الخام . وهذا القفال يخرج يده فإذا
على ظهر كفه آثار فيقول هذا من أثر عملي في « صناعة الأقدال » . وهذا
ابن قطربغا يعمل خياطاً . والحصاص شيخ زمانه . يتسبب إن العمل في الخوص .
ثم هؤلاء الصغار من بيع الأواني الصفرية (النحاسية) والصابون (من بين
العطور) والخلواني الذي كان أبوه يبيع الحاروي . والذائق . والصابوني
والنعال . والبقال . والقصورى وغيرهم كثيرون يشهدون من خلال كتب التاريخ
وبمجرد أن انفجر فجر الحضارة الإسلامية . أن هذه الأمة حققت العصور
الأولى ما جاهد العالم الغربي عشرات الثرون لتحقيقه . وما يكذب يفتقه .
أن ليس ثمة مهنة رفيعة وأخرى وضيعة . وإنما ثمة رجال ربيعون وآخرون لا رفعة
فيهم . ويشهدون . بمبلغ ما أعزت هذه الأمة العلم وأعزها العلم فأوردت كل الناس
سننه . وبمبلغ ما أعزت الصناعة فجمعت لها شهدها السلام في أسس الذي
فقرى فيها ما لا تكاد تراء في أى أمة أخرى الفقهاء الصناع . والصناع
الفقهاء يصنعون للناس الفقه والصناعة معاً ويتصون حياتهم فيها بينهما جيئة وذهوباً

بل هؤلاء فحول ينهون بين العلم والعرش مثل عمر بن عبد العزيز
كان العلماء عنده تلامذة . كما قال ميسون بن مهران . وعبد الملك بن مروان
الذي قال عنه ابن عمر : إن مروان ابناً فقيهاً فاسألوه . والأمون عبقرى التاريخ
الإسلامي . وعيسى شرف الدين الأيوبي الذي يضع كتاب الرد على الخليلي

البغدادى سنة ٥٦٢١ هـ ينصح به عن إمامه أبى حنيفة .
 تلك شريعة أمية تتسع لجمهور الخلق فى كل الأمم وكل الأعصر فهدياً
 وتطبيقاً . يفهمها الأميون ، كما يفهمها الأعوان من الخاصة لأنها (فِطْرَةُ اللَّهِ
 الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) قوامها الصفاء والسهولة والصرامة ، فى حلقات
 البحث مضمار للأفذاذ وللأفراد وللملوك أيضاً . كل ميسر لما خلق له .
 فلا غرو أن يرقى إلى الأوج العلى فيها أصحاب الحرف . وأن يسود فيها
 الرجل بهيمته لا بمهنته ، فى حضارة لحمتها وسداها الإخاء . يحب المؤمن بنها
 لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه ، والمؤمنون فيها كالجسد الواحد . « إذا اشتكى
 عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

تلك المظاهر الفقهية والاجتماعية التى نشهدها فى الحضارة الإسلامية
 تصدر عن أصل عميق يتبدى لك كلما وازنت تاريخ الفقه الإسلامى وتاريخ
 الفقه فى سائر الأمم فهناك يصدر فقه العبادات من الصواعق والبيع . وهذا
 يصدره رجل الدنيا . . وهذا فقه العبادات وفقه المعاملات مجتمعان . وهذا
 بين المعاملات والعبادات خلافاً أى خلافاً . فلا يتحدث عن العبادات
 فقهاء كفقهاء الإسلام يضطربون فى أسواق الحياة ولكن قسيسون ورهبان
 يستمرثون فى عزلتهم الفاخرة نعمة القداسة ويستترأون فىروض الإدام . أما
 الحنيفية السمحة فالدنيا عندها سبيل الآخرة حقاً ولكنها لا تعرف الرهبنة ولا
 الطقوس ولا المراسيم ، وهى إذا كانت جهاداً ضد النفس وضد الكفر فهى
 أولاً وبالذات دين اجتهاد .

البَابُ الثَّالِثُ

فِي الْمَسْجِدِ

« الشَّعْلَةُ مِنَ الشَّرَارَةِ »

بِوَشِينِ

نحن الآن في المسجد الجامع ، وإن شئت فقل جامعة الكوفة ، مسجد
بنى في أعلى مكان من المدينة لیسع أربعين ألفاً وبنيت له ظلة تبلغ مائتي ذراع
من أساطين رخام اتخذت من قصور الأكاسرة . مال ميزان النهار ، وأخذت
الكرة الصفراء المعلقة بين الكواكب كالساعة ، يدب عقرباها إلى يوم الساعة ،
تحدد مواقيت الناس ، فيفقدون للصلاة ويتطهرون بالضوء يرحضون أطرافهم
ويغسلون وجوههم ، وينتعثون بعد ما عانوا في سبيل المعاش إذ يتقلون من
الدنيا إلى حضرة الخالق في ركعات معدودات ، هنالك تسمع زجلا للناس
قد ألفوه بعد كل صلاة . إذ يأوون إلى ركن أو يلتفون حول واحدة من أساطين
الجامع باحثين عن العلم وعن الفصل في خصوصياتهم واستفتاء قضائهم .

هنالك حلقات عدة على القرب وعلى البعد . : هذه حلقة مسعر بن كدام
للقرآن والحديث ، وتلك لا بن شبرمة يقضى ويفتى ، وتلك لمحمد بن عبد الرحمن
ابن أبي ليلى قاضي الكوفة ، وتلك حلقات أخرى للشعر أو للرواية أو للأدب
واللغة ولحفظ القرآن أو لذلك كله مجتمعاً . . يكاد المسجد لا يخلو من
درس ، فأكثر الفقهاء يصلون أكثر الصلوات في المسجد الجامع .

وحتى فاتحة القرن الميلادي الحالي كانت لجامعات في العالم الإسلامي
هي المساجد الجامعة ، ففي الحرم النبوي كان النبي ، صلى الله عليه وسلم ،
يجلس ويتحلق الناس حوله يعلمهم ويهديهم ، وفي الحرم المكي كان مجلس
ابن عباس إلى جوار الكعبة أكرم المجالس . أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب
القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرهم كلهم في واد واحد . وفي البصرة
وفي الكوفة والفسطاط ودمشق وبيروت والقيروان وقرطبة وسوى هذه المدائن التي خاع
عليها الإسلام غلالات الحضارة ، كانت الفصول الدراسية هي حلقات
الدرس في صحون الجوامع ، بل كان الناس يجلسون فيها للعزاء فتشتغل مجالس
العزاء بقراءة الشعر ومناظرة الفقهاء في المسائل الفقهية والأدبية والقصصية
وما إليها .

ولم يعرف نظام إنشاء المدارس لتدريس العلم خاصة إلا في سنة ٢٨٣ هـ في بغداد عندما أنشأ نظام الملك مدرسته ، وفي سنة ٤٠٠ أنشئت مدرسة نيسابور ، وتلتها مدارس قليلة لم تتسع لطلاب العلم جميعاً ، وعلى هذا ظلت المساجد بيوتاً للعلم كما هي بيوت الله :

كانت إلى جوار تلك الحلق في جامع الكوفة حلقة أخرى تحف بأبي حنيفة النعمان . لا يقبل إليها من صومعة أو خلوة ولكن من سوق الكوفة أو دار ابن حريث . أو من داره . أو من أسفاره ، أي من صميم الدنيا .

في هذا الجامع جلس من قبل رهط من الفقهاء منهم حماد بن أبي سليمان إلى أن وافته المنية في سنة ١٢٠ للهجرة ، وعامر بن شراحيل الشعبي حتى اختاره الله إلى جواره سنة ١٠٤ . ومن قبل ذلك جلس إبراهيم النخعي إلى سنة ٩٥ ، وجلس الأسود بن يزيد النخعي إلى نفس العام ، وجلس عبيد ابن عمر حتى سنة ٩٢ ، ومن قباهم جلس علقمة النخعي عم الأسود وخال إبراهيم يرتل القرآن أعذب ترتيل ويفتي الصحابة أنفسهم حتى سنة ٦٢ . كما جلس شريح بن الحارث الكندي نحو ثلثي قرن يقضى ويفقه الناس إلى أن مات سنة ٨٢ ، وجلس مسروق بن الأجدع يفتي الناس ويفتي شريحاً حتى سنة ٦٣ ، ومن قبل هؤلاء جميعاً جلس زعيم مدرسة الكوفة عبد الله بن مسعود إلى أخريات أيامه ، ثم ودع مجلسه إلى المدينة حيث صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى في سنة ٣٢ .

لم تكن حلقة أبي حنيفة كسائر الحلق بل هي كانت تثير المشكلات في الداخل والخارج . وتأتي كل يوم بجديد . يتجلى فيها طابع التطهر في الجسم وفي العقل معاً ، فلا يستعملون الماء إذا استعمله سواهم ، ومن أجل ذلك اتخذ أتباع أبي حنيفة للأوضوء حياضاً ذات صنابير ، فنسبت هذه الصنابير إليه (الحنفيات) لأن استعمالها للأوضوء يمنع من استعمال الغير للماء . والماء المستعمل غير طهور عند أبي حنيفة .

كان سفيان الثوري يفتي بجواز الوضوء بماء قد توضع به الغير ، فلما سمع أن أبا حنيفة لا يجيز ذلك قال لم ؟ قالوا له : يقول إنه ماء مستعمل ، فجاءه بعد ذلك بأيام رجل فسأله عن الوضوء بماء قد استعمله غيره فقال لا يتوضأ به لأنه ماء مستعمل . فرجع فيه إلى قول أبي حنيفة .

(فالحنفية) التي تفتحها وتقفلها صباح مساء هي الذكرى المتجددة لهذه الحلقة المتأنقة في طهارتها لا ترد الماء إلا صفوياً من الشوائب مثلما تراها من بعد صانعة بالآراء والأشياء .

وإذا كان من المسلمات في العصور الحديثة أن حضارة المدن تقاس بما تنطق به عدادات المياه ، وأن أعظم المدن حضارة أكثرها استعمالاً للماء ، وكانت الرابطة بين الماء والحضارة هي كالمصلة بين النظافة والماء ، فأى ذوق كان لأبي حنيفة من ألف ومائتي عام ! بل أى طهارة ، وأى حضارة :

وإذ كانت النظافة من الإيمان فمن كأبي حنيفة في نظافته وفي إيمانه ! .

من أجل النظافة يقول أبو حنيفة إن السواك من سنن الدين . وينصح الحنفية بالاستياك عند كل صلاة . ووضوء ، وكل ما يغير الفم وعند اليقظة من النوم ثلاث مرات بثلاث مياه ويستحسنون أن يكون العود ليناً لا يابساً ، وأن يغسله المستاك قبل استعماله ، وألا يستاك وهو مضطجع .

ومن قبل قال عليه الصلاة والسلام : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » .

رأى أبو حنيفة ذات يوم على بعض جلسائه ثياباً رثة فأهاب بصاحب الثوب ليبقى بعد أن ينفطر عقد الحضار ، حتى إذا صار الرجل وحده قال له : ارفع المصلى وخذ ما تحته فرفع الرجل المصلى فكان تحته ألف درهم قال : « خذ هذه الدراهم فغير بها من حالك » قال الرجل إني لست أحتاج إليها . وأنا موسر . قال أبو حنيفة : « أما بلغك الحديث (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) فينبغي لك أن تغير حالك حتى لا يغتم بك صديقك ! » .

ولئن دلت هذه العبارة على ذوق القائل إنها لتصور لنا الصورة الحقيقية لهذا السيد السمح وتلك الحلقة الحديدية بأن تسمى حلقة النظافة ، كما هي ولا مرء حلقة الثقافة :

بلى : إن الله سبحانه وتعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . والناس كخالق الناس - سبحانه - يحبون أن يروا أثر النعمة على من حباهم نعماءه . والثياب الرثة لا تطمئن ولا تسر . وما لا يقبل شكاه لا ينظر في موضوعه . فالنفس تخضع لأحاسيسها الأولى أول ما تخضع . وأول ما يدهك به الرجل منظره ومنظره . فقيم يفرغ الشهاونون في مظهرهم على الناس أن يفتحوا أعينهم على التقى !

قال جعفر بن يحيى وزير الرشيد نخادمه : أحمل معنا ألف دينار فإني أريد أن أمر بالأصمعي فإذا حدثني وأضحكني فضع الكيس في حبرة . ثم صار إليه فحدثه الأصمعي بكل شيء فلم يضحك . فقال له صاحب كان معه : إنه قد أضحكك بمجهده فلم تضحك . وليس من عادتك رد شيء قد أخرجك من بيت مالك . قال جعفر : قد وصلنا هذا بخمسة مائة ألف درهم . ولم أدخل له بيتاً قبل هذه الدفعة ورأيت حبه (البحرة الضخمة) مكثراً وعاليه برنكان (كساء أسود) منجرد وتنته مصلى وسخ . وتل ما عنده رث . وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه . وأن ظهور الصينية أمدح وأهجر من دليخه وهدياته . فعلام أعطيه الأموال إذا لم تظهر الصينية عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه !

• • •

فرغ الشيخ من صلواته وتسيحاته . واحتجى بطيلسانه واستند إلى الخراب . مشرق الديباجة طلق الحيا في بزته التي عهدناها وأقبل إلى الناس فحيادهم . وإذا كان راجعاً من السفر سأل كلاً منهم عن خبره وحاله . وإذا لم يك قافلاً من سفره فهو بين ظهرانيتهم يسهم في أهورهم ويتعهدهم ويواسيهم . فإذا شرع في الكلام انجفل الناس إليه مختلفين حلقاتهم . يتقصفون حوله صفوفاً صفوفاً . في زحمة لا تسبح للفتى الذي سيصير في الغداة إماماً وبطلاً (عبد الله بن المبارك) بأن يجد لنفسه مجلساً إلا في الصف الرابع أو الخامس .

أما في الصف الأول فتجد الفوج الأول ، أو الرعيل الأول ، الزملاء القدماء :
إسماعيل بن حماد ، وأبا بكر النهشلي ، وأبا بردة الضبي ، ومحمد بن جابر الحنفي
يجلس معهم بين الفنية والفنية أساتذة الحلق المجاورة . مسعر بن كدام - آية
آية الكوفة في ورعه وحفظه وزهده - والحسن بن عمارة - أستاذ الحلقة القريبة -
يجلسان مع أترابهما إلى ذلك الذي لا ترب له . . .

وهؤلاء في الصفوف الأخرى : أسماء لها جرس بديع في الأذن : زفر
ابن الهذيل ، كان أبوه والي البصرة وكانت أمه فارسية فورث من أمه
وجهها وعن أبيه لسانه . . . ويعتوب - فقي من العامة سيعرف فيما بعد
(بأبي يوسف) - والقاسم بن معن حفيد الزعيم الفكري للكوفة عبد الله بن
مسعود ، عالم في اللغة والأدب وأشعر رايلديث . وهذا أسد بن عمرو البجلي ،
والوليد بن أبيان : ثم هذا صف آخر . فثمة وجود جديدة : داود الطائي
الذي سيرقى إلى الدرورة في العلم ثم يشرق كتبه في الفرات ويصوم عن الدنيا
أربعين عاماً . يقرأ القرآن كأنما يسبح الجواب من ربه ، وفضيل بن عياض ،
والحسن بن زياد الأثرؤي . ويوسف بن خالد السدي ، ووكيع بن الجراح ،
ومالك بن مغول . وحفص بن غياث . وعافية الأودي . وعلى بن مسهر ،
والأخوان مندل وحبان ، ويحيى بن زكريا . وعبد الله بن المبارك ، والمغيرة
ابن حمزة . وستأتيك أنباؤهم بعد حين . . .

وأخيراً وفي نهاية العمر . جاء فقي سدين وضاء انخيا كان جبينه من
العاج . تقدر ثروته بثلاثين ألفاً . سينفق نصفها على الفقه ونصفها على النحو ،
أبوا أن يقبلوه إلا أن يعنظ القرآن ، فتاب وعاد يقول إنى حظته في سبعة أيام !
لم يكده يجلس إلى الحلقة سنة أو سنتين حتى فارقتها الشيخ إلى جوار ربه .
ذلك محمد بن الحسن الشيباني . . .

وهؤلاء وهؤلاء . . . يناهزون الأربعين عدداً : حلقة إسلامية باقى . فيها
الموالي والعرب . وفيها أبناء الرلاة وأبناء الشعب . وفيها الخاطلون لأب وأم
مختلفين عروبة وولاء .

بدأ الدرس وتطرح المتدارسون المسائل ، فإذا كان في الحلقة غريب حياه وبدأ به فقال له : هات ما عندك . ويتناظرون فلا يستبد بآرائه ، بل يطرح مسألة مسألة يسمعون فيها ويسمعونه ولا يرضيه منهم أن يأخذوا كلامه قضايا مسلمة حتى يفهموه فيقول : « لا يحل لمن يفتى من كتبي أن يفتى حتى يعلم من أين قلت » ، ويقول : « رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه فن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا » . يريد تلاميذه على أن يتعلموا الحرية معه ليكونوا أحراراً مع غيره ، فان يتعلموا الحرية في التفكير إلا إذا مارسوها في التعبير . ولن يتعملوها مع الناس إلا إذا تعلموها مع الأستاذ ، وهو عندهم خير الناس .

ومن ألف عام قبل أبي حنيفة قال أرسطو عن أستاذه أفلاطون : أستاذي صديقي والحق صديقي فإذا تنازعا فالحق أولى بالصداقة .
 روى شاهد عيان : كنت عند أبي حنيفة وهو في مجلسه وعنده أصحابه فجاء غلام أو شاب فألقى عليه مسألة فأجاب فيها فقال له : أخطأت يا أبا حنيفة . فسكت ثم ألقى عليه أيضاً فأجاب فقال : أخطأت يا أبا حنيفة . فقلت لمن حوله من أصحابه : سبحان الله لا تعظمون هذا الشيخ ولا تبجلونه ! يجيء شاب أو غلام فيخطئه وأنتم سكوت ! فالتفت إلى أبو حنيفة وقال « دعهم فإني قد عودتهم هذا من نفسي » .

بلى ، وآية غضاضة على العالم أن يخطيء أو بخطأ ؟ أليس على رضى الله عنه يقول : « كنت لا أرى بيع أم الولد في زمن عمر . : واليوم فقد رأيت ذلك » ! وأبدي ابن عباس رأيه في مسألة من مسائل المواريث بعدم جوازها (العول) وقيل له : إنك كنت تراها في زمن عمر قال : « هبته وكان رجلاً مهيباً . . . » .

ذلك صنيع العالم يتراجع أمام حجة العالم ، حتى إذا بدت له معاييبها عاد يصدع برأيه من جديد ، والذي يرجع عن خطأ أمس إلى صواب اليوم لا يصنعه إلا لأنه اليوم خير منه أمس ! ورجوع عمر نفسه عن

خطئه كان مضرب الأمثال : فقيم يشفق الشاهد على أبي حنيفة إذ يقول له
الغلام مرة بعد مرة أخطأت !

ولئن كان يريد أن يعبر المعترض تعبيراً أخف فقيم ذلك أيضاً ؟ والأشياء
لا تسمى بغير أسمائها إلا في معارض النفاق : والنفاق ليس من دروس
أبي حنيفة . وإذا لم تسم الأشياء بأسمائها في حلقات الفقه وحلقات الجدال
فأين تسمى بأسمائها الأشياء ؟ إن الخطأ ليس إلا الخطأ : يسميه كذلك القائل
الحر للسامح الحر ، وما عدا ذلك دهان لا طائل تحته وافتعال يضيع
الزمان سدى .

قال رجل لعمر بن الخطاب : « اتق الله » . فأنكر ذلك بعض الحاضرين
فقال عمر : « دعه فيلقها لي ، نعم ما قال ، لا خير فيكم إذا لم تقولوها ،
ولا خير فينا إذا لم نقبلها » .

إن العظيم الحق لا تضيره كلمة الحق . وإنه ليدرك أن عظمته إلى جوار
عظمة الخالق كجناح بعوضة إلى الخلق العظيم الكواكب . فلعل الحق أن
يجيئه من أي ذرة من ذرات هذا الوجود أو أي رجل مهما يكن من المحمول
والقدامة . وهو لن يستطيع أداء رسالته إلا إذا وثق من قدرة الله على أن
يصلح الدنيا على يد سواه .

قيل لأبي حنيفة : لا يزال هذا المصر بخير ما أبقاك الله فيه فأجاب :

نخلت الديار فسدت غير مسود . ومن البلاء تنردى بالسؤدد

وفي أواخر القرن الرابع دعا أهل القيروان علي بن خلف المعافري

المعروف بابن القابسي ، ليجلس فيهم معلماً فأبى ، فهدموا عليه بابه إذ أغلقه

دونهم فلما رأى ذلك خرج ينشد :

لعمر أيلك ما نسب المعلى إلى كرم وفي الدنيا كريم

ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوح نبتها رعى المشيم

ثم قال : وأنا والله ذلك المهشم . . وبكى وأبكى .

فإذا نبت من المناظر كلمة ، فما أحلم أبي حنيفة ! وإذا تدهور صاحب السخيمة إلى الكلم الجارح فهو يقذف الهرم ، وينطح الطود الأشم : قال له الرجل يا مبتدع يا زنديق : فقال : غفر الله لك ، الله يعلم مني خلاف ما قلت ، وأنى ما عدلت به أحداً مذ عرفته . . قال الرجل : اجعلني في حل . قال الإمام : « كل من قال في شيئاً من أهل الجهل فهو في حل . . وكل من قال في شيئاً من أهل العلم فهو في حرج ، فإن غيبة العلماء تبقى شيئاً بعدهم » .

ولقد يطول البحث في المسألة الواحدة أياماً وليالي أو شهراً أو أكثر من شهر . فيدأبون على الدرس ويكون على التخريج . حتى إذا قتلوها بحثاً أثبتتها أبو يوسف بعد أن يتولاها الفحول بالقبول . أو التفت الشيخ إلى من يكتب منهم فقال له : « ضعها في الباب الفلاني » . ثم يشتغل التلاميذ بحفظ ما تعلموه فإذا أحكموه أخذوا في غيره ، وإذا استعصت مسألة أو غلوا فيها وتوفروا عليها حتى إذا قطعوا فيها برأى تهللوا بشراً وصاحوا صياح الفرج قائلين
الله أكبر ! الله أكبر !

ابتدءوا في مسألة الحيض فحاضوا فيها ثلاثة أيام متتابعة بالغداة والعشي ، فلما كان اليوم الثالث كبروا جميعاً لله ، وكان ذلك إيدانا بأن مسألتهم قد خرجت .

وإذا وقف أمام مشكلة تنفس الصعداء ثم قال : « اللهم لا تؤاخذني » ، ثم يفتي .

وفي ذات ليلة خرج من صلاة العشاء ونعله في يده ، فكلمه زفر في مسألة ، فتجارياً يتقايسان ، حتى نودي لصلاة الفجر وهما قائمان ، فرجعا إلى داخل المسجد . ورجعا إلى المسألة ولم يزالا على ذلك حتى استقرت المسألة على قول أبي حنيفة :

تسرى لو لم يكن هؤلاء القوم يعبدون الله بدراساتهم أكانوا ينقطعون هذا الانقطاع ذاكرين أن كل كلمة في شرع الله إنما هي سجدة من السجديات لذاته وتسيحة بالآله !

لقد كان وجه العلم لديهم هو وجه الله - جل شأن الله - يولون وجوههم شطره في المحراب أو في حلقة أبي حنيفة .

أليس الأستاذ قد أدبهم فأحسن تأديبهم حيث قال : من تعلم العلم للدنيا حرم بركته ، ولم يرسخ في قلبه ، ومن تعلمه للدين بورك له في علمه ورسخ في قلبه وانتفع المقتبسون منه بعلمه .

أليس هو القائل لنا بفتحهم أبي يوسف : « . . . وإن بقيت عشر سنين من غير قوت ولا كسب فلا تعرض عن العلم ، فإنك إذا أعرضت كانت معيشتك ضنكاً . » على ما قال الله تعالى : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِن لَّهٗ مَعِيشَةٌ ضَنكًا :) بلى لقد علمهم أن العلم توفيق وإلهام وعبادة إذ كانت تشكل عليه المشكلة فيقول : ما هذا إلا للذنوب جنيته ، فيستغفر الله ، وربما قام وتوضأ وصلى ركعتين واستغفر فتخرج له المسألة

أجل وهو الذي طالما قال لهم : « إن لم تريدوا بهذا العلم الخير لم توفقوا » . وهذا الذي يقوله الشيخ لتلاميذه هو الذي قاله رسول الله من قبل : « أفضل العبادة الفقه » : خرج صلى الله عليه وسلم فإذا في المسجد مجلسان مجلس يتفقهون ومجلس يدعون الله : فقال : « كلا المجلسين إلى خير ، أما هؤلاء فيدعون الله تعالى ، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل : هؤلاء أفضل ، بالتعليم أرسلت » ثم قعد معهم :

كان الطلاب في الحلقة خشعاً قلوبهم ، عالقة أبصارهم بالشيخ ، يديرون المسائل في عقولهم وألستهم ، في حين تكاد آذانهم تشرب من عباراته ، وهو يتكلم كأن ليس في المجلس أحد وكله فقهاء ورؤساء ولكنهم سكوت خاضعو الرقاب .

قال زفر : « إذا تكلم خيل إليك أن ملكاً يلقنه ما يقول » ، فمن فاته من

الدرس فكرة ، أو ضاع من وقته فترة ، فقد نصف عمره ، إن لم يكن كل عمره . مات ابن لأبي يوسف فلم يحضر جهازه ولا دفنه وتركه على جيرانه وأقربائه مخافة أن يفوته من أبي حنيفة شيء لا تذهب حسرته عنه .

ضن أبو يوسف على ولده بالوداع الأخير ليستبق لنفسه ساعة من أبي حنيفة . ! فأية حكمة تلك التي كان ينهل منها القوم ، وأية نعمى هذه التي كانوا يؤثرونها . ! إن المرء ليعجز عن فهم ذلك من أبي يوسف إلا إذا ذكر موقفاً آخر له عندما اجتمعت له أسباب المجد فكان أصح تنديراً إذ كان أبعد زماناً ومكاناً . أيام كان مفخرة بلاط الرشيد وأستاذه ، حتى إذا مات صلى عليه الرشيد وقدرت ثروته بمليونين .

في تلك الأيام سئل عما يوده فقال « وددت أن لي مجلساً من أبي حنيفة بنصف ما أملك » قيل ، ولم تتمنى هذا ! قال : « في النفس حزازات كنت أسأله عنها » .

حقاً . كانوا يعلمون أنه يعلم ما لا يعلمون . روى أبو يوسف أنه جاءهم رجل يسألهم عن القرآن والشيخ غائب بمكة فأمسكوا عن الجواب قائلين : شيخنا ليس حاضراً ونكره أن نتقدم بالكلام حتى يكون هو المبتدئ بالكلام . وقيل لأبي يوسف وهو قاضي القضاة : هل وددت إلى أكثر مما أنت فيه ؟ فقال « وددت إلى زهد مسعر بن كدام وفقه أبي حنيفة » . قال الرشيد : ما تمناه أكثر من الخلافة . ولقد صدق الرشيد لأن ما تمناه بعض خصائص الأنبياء . وأين الخلفاء من الأنبياء .

تلك الرهينة العلمية ورثها تلاميذ أبي حنيفة وتلاميذ تلاميذه فوهبوا أنفسهم للعلم وللادين معاً كمثل أبي جعفر النسفي . بيت ليلته مهموماً من ضيق البال ، وكثرة العيال . فيقع في خاطره فرع من فروع المذهب فيعجب به ويقوم ويرقص في داره ويقول أين الملوك ! وأبناء الملوك ! فتسأله زوجته عما حدث فيخبرها فتعجب . . !

جاءت القزويني زوجته وهو يلقي درسه فأسرت إليه خبر وفاة ولد له

شاب كان يحضر معه في كل يوم ولم يحضر معه في ذلك اليوم ، فأمرها بتجهيزه ولم يذكر للحاضرين شيئاً ، حتى فرغ من الدرس على عادته فقال : إن محمداً دعى فأجاب فمن أراد الصلاة فليحضر !

ومن قبل أبي حنيفة بقرون جلس بلوتارك يلقى دروسه وبين سامعيه أورلينوس أحد عظماء روما ، فدخل جندي برسالة من الإمبراطور إلى أورلينوس وجزع الحاضرون وتوقف بلوتارك عن الدرس ، لكن العظيم الروماني لم يفض الكتاب إلى أن انتهت المحاضرة .

أولئك رجال العلم خُشِعَ في محرابه ، يأخذ عليهم ألبابهم جلال الدرس ، فليس كل أستاذ أبا حنيفة أو بلوتارك ، والساعات التي تتيحها العناية الإلهية للناس إذ يجلسون إليهما ليست مما يسرف الفتي اللقن في إنفاقه .

وفي بعض الأحيان يطول الجدال في الحلقة ، ويحتمد وتتعالى الأصوات بلا ضابط ، حتى قال فيهم الشاعر :

قوم إذا اجتمعوا صاحوا كأنهمو
ثعالب صيحت بين النواويس
فإذا تكلم خفضت الأصوات وتفتحت
الآذان والأذهان . فللحلقة قانون
غير مدون ولكنه في القلوب . إنه « إذا تكلم الشيخ فسمعاً وطاعة » . لقد جاءوا إليه وهم أحرص الناس على لقياء وسماعه . عالمين أن الفقه أرفع العلوم وأولاها بالتهيب والاستعداد ، عارفين أنه قيل له إن في هذا المسجد حلقة ينظرون في الفقه . فسأل : « هل لهم رأس ؟ قالوا : لا . قال : لا يفقه هؤلاء أبداً »
بلى : كيف يفهم الناس بلا رؤوس ؟ . . . وكيف تنتظم الحلقات بلا رئيس ؟

سمعهم مسعر بن كدام في صخبهم ثم بصر بهم سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير إذ أخذ الأستاذ يتكلم فقال : « إن رجلاً تسكن عنده الأصوات لعظيم الشأن في الإسلام . » لكن الأستاذ ينشرح صدره لجهارة تلاميذه وجلبتهم .

فإذا نبههم الناس أن ارتفاع الأصوات بالكلام لا ينبغي في المسجد قال :
« دعهم فإنهم لا يفقهون إلا بهذا » !!

إنهم لم يكونوا تلاميذ إلا لأن هذا الشيخ هو الأستاذ ، فلسوف تراهم
الدنيا غداً فحولاً دونهم كل النحول والأفذاذ . لو شهدتهم حرك أساطين ،
المسجد الجامع لحسبتهم في مؤتمر دائم لا يكاد ينفض .

مر أحد رؤساء الحلقة المجاورة فوجدهم قد ارتفعت أصواتهم فأقام ملياً
ثم قال : هؤلاء أفضل من الشهداء والعباد والمتهجدين . . ثم قرب إلى المسجد
فقال لأصحابه : يا هؤلاء ارفقوا بالشيخ فإنه مع ما هو فيه قد أقام عشر
ليال متواليات شهدت الليلة التي مضت منها . .

كان محمد بن أبي ليلى قاضي الكوفة على حلقة أخرى بالمسجد . وكان
كثير المشكاة من تلك الحلقة التي تشرح أقضيته ، لكنه كان يتلمس في الخفاء
رضاء الشيخ عن تلك الأقضية ، وإذا قدم ابن إسحق صاحب الغازي إلى
الكوفة جاره في المسائل . أما مسعر بن كدام فترك تلاميذه ويجلس في
حلقة أبي حنيفة ، فيقول له تلاميذه : نحن نسألك عن الأحاديث وأنت تجلس
إلى أهل البدع ؟ فيجيب : « لو قام أصغر من فيهم لأهل الموسم لوسعهم
علماً » .

وإذا سأل سائل عن العلم فإن للعلم مكانة ، وللمفتي وقاراً لازماً لاستجماع
الفكر يمتنع معه أن يفتي في عرض الطريق . قال لسائله مرة : لا تسألني
عن أمر الدين وأنا ماش أو أحدث الناس ، أو نائم أو متكئ فإن هذه
الأماكن لا يجتمع فيها عقل الرجال » .

وللمرأة احترامها وحياطتها إذا جاءت إلى الحلقة تستفتيه . فإنه ينهض
إليها من وراء السارية فيفتيها ، ثم يعود إلى الدرس فيخبر تلاميذه بالموضوع
وبالفتوى ويقول عن الحجاب الذي ضربه بينها وبينهم : « إنما غرضي أن
أحصنها من أحداق الرجال » .

وإذا قام من الحلقة عاد مريضاً أو شيع جنازة . بل إنه ليحمل سرير الميت

من تلاميذه أو أصدقائه - آية وفاء وتحمية وداع - أما دار ابن حريث فالريح تجرى فيها رخاء وعلى يد الله .

لم يكن يحسن الهزل أو يهوى المزاح ، فالرجل الذي يقسم حياته بين يدي الله في داره طول الليل لا ينقص منه لنومه إلا قليلاً ، وبين يديه أكثر النهار في بيته يؤدي فريضة العلم لعباده ، والذي يخرج عن ماله الضخم في سبيل العلم وفي سبيل الله ، إنما هو رجل قد طبعه الجهد والزهد والعبادة واشتمله جلال رسالته التي يحملها للناس . ولهذا لم ير مستجمعاً ضحكاً قط ، وإن كان يبتسم لما يقهقه له الناس ولما ترن الضحكات من جرائه . . . والقهقهة ليست على كل حال من خلائق السادة .

لقد ضحك مرة فكفر عنها بأن لم يضحك بعدها يوماً ! . . . كان ذلك يوم ناظر زعيم المعتزلة العظيم : عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤ هـ ، والذي كان يطبع الجهد قسماته وحركاته حتى ليظنه الرائي قد أقبل من دفن والديه ، وإذا تكلم حسبت الجنة والنار لم تخلقا إلا له ، ناظره أبو حنيفة في فتوته ، فظفر به فازدهاه الظفر بأنه أفحم الزعيم العظيم فضحك ، فرشقه عمرو بقاصمة الظهر قال : يافى تتكلم في مسألة من الشرع وتضحك ! والله لا أكلمك بعد هذا أبداً . قال أبو حنيفة فانقطع الكلام بيني وبينه رحمه الله وقال إنه نادى على ما فرط منه أبداً . . . وهكذا عاقبه الله على ما ازدهاه وما انماق إليه من المغالاة .

وإنه ليأتى درسه في المسجد ذات يوم فإذا بجمية تسقط في حجره وهرب الناس ، فما زاد على أن نفض الحية وجلس مكانه . واضطرب الدرس وانخلعت أفئدة الفتيان وولوا فراراً وملئوا منها رعباً . أما هو ، والحية قد سقطت في حجره هو ، فقد استقر مكانه ، مستبقياً عنانه : كأن لم يهبط عليه الموت الأرقط أو كما قال ولده حماد : « فلا والله ما تخلخل ولا تحول من مكانه ولا تغير » . ثم قال : (لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) وأخذها بيده اليسرى فرماها بعيداً عنه .

ذلك مظهر لقوة النفس ووقار الدرس . لكأنه إذ يجلس التلاميذ بين يديه يسجد في المحراب بين يدي الله .

ولو كانت المفاجأة قد راعته لما شأنه الارتياح للبغئات والفعجاءات . لكن

سمره على طيش الفجاءة قد زاده كرامة ، وأضفى على ذلك الفضل أنه لم يتخذ في وقاره وضعاً مسرحياً ولا مدرسياً بل استمر في درسه كأن لم يقع ما يريب . اقتحم الخوارج مسجد الكوفة في إحدى غاراتهم عليها وأبو حنيفة وأصحابه جلوس فقال لأصحابه : لا تبرحوا . فجاءوا حتى وقفوا عليهم وقالوا لهم : ما أتم ؟ قال الأستاذ من فوره : « نحن مستجيرون » ؟ قال أمير المغيرين دعوهم وأبلغوهم مأمئهم واقراءوا عليهم القرآن . فقرأوا عليهم القرآن وأبلغوهم مأمئهم .

وبهذه البديهة المسعفة ، سلمت المدرسة الحنفية من خبطة معسفة ، ولو أمكن الله الخوارج منهم لأعملوا فيهم السيوف . ولكنه يريد نصرة دينه فلو هلكت هذه العصابة لهلك معها علم كثير ولتأثرت مصابير الفقه .

وهكذا جرت على لسان أبي حنيفة تلك الوثبة الفكرية الباهرة من وثبات الارتجال . وجرت في خلد أمير الخوارج نسمة من نسمات التفتح الروحي . وتذاكر المتحاوران في صمت قوله تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) وسما الخوارج عن سفك الدماء . وسما أبو حنيفة في التعبير عن أن يقول : إنهم : « مشركون مستجيرون » كما قالها زعيم المعتزلة واصل بن عطاء إذ هم الخوارج بأسه فعصم منهم رأسه ونفسه . لكن أبا حنيفة يتقف وما في الموت شك لواقف . فيصيب في العبارة والإشارة ، ويستخرج من تلك الذاكرة الواعية أروع الآيات . كان يرتفع بنفسه عن فضول الكلام ، وامتد الوتر من ذاته إلى عباراته . فإذا حلف صادقاً في عرض كلامه تصدق بدرهم ! ثم زاد الضريبة على نفسه فصارت ضريبة اليمين ديناراً .

قال جعفر بن ربيع : « أقمت عند أبي حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول منه صمتاً . فإذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادي وسمعت له دويبا وجهارة في الكلام » . وليس يرجى غير ذلك من رجل وهب نفسه للعلم خمسين حجة كاملة أو يزيد . يقرأ القرآن في كل وقت ، ويبرز في حلقات المتكلمين في صدر حياته حتى إذ بلغ عنفوانها قضى عليه القدر أن ينهض

برسالة من الرسائل التي تدين لها الحضارة الإسلامية بأسباب البقاء .

* * *

والجهاز والدرى ، والسلاسة والتدفق ، وحسن الإلقاء - كانت وما زالت وسيلة المحدث النابغة إلى القلوب ، مثلما هي جواز المرور للكاتب والعالم والخطيب . وكان ذلك شأن الناس من قبل الميلاد ومن بعد الميلاد . من « ديموستين » إلى « شيشرون » إلى « ابن أبي طالب » إلى « ميرابو » ، وفي « أثينا » و « روما » و « بيزنطة » ، وفي أسواق « عكاظ » و « مجنة » و « ذى الحجاز » و « مكة » و « المدينة » و « العراق » و « مصر » ، وفي قصور الأمراء ، وفي رمال الصحراء ، وفي محافل باريس ولندن وفي كل مكان . وسبق ذلك شأن البيان في كل زمان ، والناس دائماً هم الناس وكلما غير الزمان وجهه أظهر للذم وجهه نفسه باعتباره وجهاً جديداً .

أما طول الصمت فظاهرة طالما لقيناها لدى العلماء والبلغاء . فالعلم لا ينبع من القاب إلا عند استجمام فضله واستجماع عفوه .

سئل الشافعي عن مسألة فسكت ف قيل له : ألا تجيب رحمتك الله ؟ قال : « لا . حتى أدري أين الفضل . في سكرتي أم في الجواب » . من أجل ذلك . كان مجلس الشيخ مهيب الجانب « ورأيه لا يدفع بالهويين » كما يقول الشافعي : « ولو حدثك عن السارية أنها من ذهب لقام بحجته » كما يقول مالك . كانت كلماته قطرات من البلور المذاب تهب عليها نفحة من منطلق الرسول الذي قالت عنه أم معبد : « كأن منطقه خرزات . نظم يتحدثون » .

والحضارة الفكرية لا يتيسر لها الجوالصالح إلا بالخلو إلى النفس بالسكوت . أو كما قال ابن المقفع : « ربما كانت البلاغة بالاستماع » . والذي يتحدث حديثاً صالحاً لا يتحدث إلا لداع ، فالحديث كالماء يتخذ لون الوعاء فإذا ألقيت به في غير مكانه أو في غير أوانه أو أدليت به إلى ضمير جامد أو شعور بارد . كان لا لون له ولا طعم فيه وهو السلسل العذب ، بل إنه ليغص به الشارب وتقتحمه عين الرأي .

فإذا أدلى أبو حنيفة بذات نفسه فهو يدلى بها حيث يجمل الإدلاء ، ويجدر الإفتاء ، ويصدع برأيه حيث تعترك الآراء ، وعندئذ يسير كالسيل إذا اجتاح جنبات الوادى .

قال : « لا تحدث بفمك من لا يشتهيته فتؤذى جليساك . ومن قطع عليك حديثاً فلا تعده فإنه قليل المحبة للعلم » . وقال فى إحدى خطابه : « إن الكلام كثير ومحكمه يسير ، وإن الكلام لا ينتهى حتى ينتهى عنه ، وإن خير الكلام ما أريد به وجه الله » وقال لأبى يوسف وهو يمرضه النصيحة « من جاءك يستفتيك فى المسائل فلا تجب إلا عن سؤاله ولا تضم إليه غيره فإنه يتشوش عليه جواب سؤاله . . . ومن فاقشك من العامة والسوقة فلا تناقشه فإنه يذهب ماء وجهك » . . .

على هذا النحو ظلت حاقمة أبى حنيفة ثلاثين عاماً تعمل فى مؤتمرها الدائم لتخريج المسائل الفقهية واستنباط أحكامها ، يتناقرون المسألة فيقسمونها أقساماً ويتولون كل قسم أياماً وليالي بالتحليل والتعليل . حتى إذا قعدوا قواعد راحوا يفترضون الفروض التى قد تقع فى المستقبل وتتداولها أدمغتهم كأنها تناولها أناملهم بالرفق والحكمة والحماسة ، فتخرج أحكامها على أيديهم كالخنين الحى . وانتشرت موجة الافتراض والتفريع فإك مالا تكفى فيه النصوص تنفع فيه الأصول . ولئن صح قول ابن عجلان : « إذا أغفل العالم لا أدرى أصيبت مفاصله » فإن حلقة الكوفة كانت تعرف هذه القاعدة ولا تحتاج إليها ومع ذلك سلمت مفاصلها . ذلك بأن الأسئلة لم تكن تخرج على رجل واحد ولكن على مدرسة كاملاً أعضاؤها كثر . ولم يكن الجواب يصدر فور البديهة وإنما يصدر بعد البحث فى المؤتمر ، ولم يك وليد الفكرة وحدها وإنما كانت تطبق عليه قوانين وضعوها . فكيف لا توجد القوانين الموضوعية ، والعقول الدائبة على البحث . حلولا للأشياء . . إن الضعف الإنسانى يجبره طول المران والإيمان والتعاون والإخلاص . ولقد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبين العلم . وإنهم لفاعلون .

ذكر ذاكر أمام أبى حنيفة قول الشعبي : « لا أدرى نصف العلم » فرشق

بكلمة لاذعة قال : « فليقلها مرتين ليكون له كل العلم » .

وجرى حديث هذه الدروس في شبه الجزيرة وفي العالم الإسلامي كافة ،
 وشاركت الخمس والخمسون حجة التي يتم فيها شطر المسجد الحرام بمكة ومسجد
 الرسول بالمدينة في إذاعة أنبائها ، فالشيخ في مكة والمدينة في كل عام تقريباً يناظر
 ابن جريح فقيه مكة ، والأوزاعي فقيه الشام ، والليث بن سعد فقيه الفسطاط ، بل
 الليث يعمل على الخروج للحج إذا خرج أبو حنيفة ليناظره . . . والشيخ يجاس في
 المسجد الحرام يفتي أهل المشرق والمغرب ، وكبار الناس حضوراً ، لا يرى أصبر
 منه على الطواف والصلاة والفتيا بمكة ، وهو كل الليل والنهار في طاب الآخرة حتى
 لقد شوهد عشر ليال لا يهدأ الليل ولا ساعة من نهار من طواف أو صلاة أو تعام
 والناس يزدحمون حوله في المسجد الحرام من كل الآفاق ، فيجيبهم ويفتيهم كأن
 المسائل في كفه يخرجها فيناولها إياهم في أدب يأسر القلوب ! .

كان يفتي يوماً فوقف عليه جعفر بن محمد الصادق إمام الشيعة - الذي قيل
 إنهم رووا له ٤٠٠ كتاب - ففطن أبو حنيفة له فقام وقال : « يا ابن رسول الله
 لو شعرت بك أول ما وقفت مارآني الله أقعد وأنت قائم » قال له : « اجلس يا أبا حنيفة
 فعلى هذا أدركت آبائي » .

وفي مكة احتاج الوالي إلى شرط يكتب له فقال لابن شبرمة وابن أبي ليلى :
 اكتب . فكان إذا كتب هذا شيئاً أفسده هذا حتى إذا قدم أبو حنيفة على الأمير
 قال الأمير : احتجنا إلى شرط كذا وكذا قال أبو حنيفة : قل لكاتبك يكتب
 فأملى أبو حنيفة عليه الكتاب فدخل ابن شبرمة وابن أبي ليلى فقرأ الكتاب
 عليهما فلم يقدر أن يقول شيئاً ، وقال أحدهما للآخر بعد أن خرجا : أما ترى
 هذا الحائك جاء في ساعة فكتبه . قال له صاحبه : « لا تقبل الحائك فإن الحائك
 عندي من لا يتدر أن يكتب هذا القدر ويستروح إلى سب العلماء » .

فإذا ذهب إلى المدينة لقي زعيمها الجليل مالك بن أنس . وكان أبو حنيفة
 لا يكلم أحداً إلا قطعه ولكنه يرفق إذ يكلم مالكا : كانا يتدارسان بعد العشاء
 في مسجد الرسول حتى إذا وقف أحدهما على القول الذي قال به أمسك أحدهما
 عن صاحبه من غير تعسف ولا تخطئة . ولا يزالان كذلك حتى يصليا الغداة
 في مجلسهما !

قصدا يوماً إلى الحرم النبوي معاً ومالك قابض على يده يمشيان ، فلما بلغا المسجد قدم مالك أبا حنيفة فدخل قبله ، وكان مالك يجلس سفيان الثوري دون المجلس الذي يجلس فيه أبا حنيفة . ولا عجب فإن سفيان كان يقدم أبا حنيفة ويمشي خلفه . وإذا سئل وهو حاضر لم يجب حتى يكون أبو حنيفة هو الذي يجيب . ومع ذلك كان أبو حنيفة يرهق مالكاً بحجابه . قال الإمام الليث : « لقيت مالكاً في المدينة فقلت له : إني أراك تمسح العرق عن جبينك . قال : عرقت مع أبي حنيفة . إنه لفقير يامصرى . ثم لقيت أبا حنيفة فقلت ما أحسن قبول هذا الرجل منك . فقال أبو حنيفة : « ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ونقد تام » . ومع ذلك كان مالك يقول : « ما أحلمه » . ولولا حلم أبي حنيفة عليه لما تركه يتفصد عرقاً !

ترى أية لحظات في تاريخ الإنسانية كانت هذه اللحظات ! وأية أشعة من سنا الفكر كانت تتبادلها هذه الكواكب في جوار النجم الأكبر الذي ما يزال يبعث شعاعه إلى الوجود الإنساني ! إمام مصر ، وإمام دار الهجرة ، والإمام الأعظم . في جوار الرسول صلى الله عليه وسلم !
فأى رجال . . . وأى خيال . . .

هكذا ساعد طول العمر وارتفاع المكانة وأسفار الشيخ في اتساع الدائرة واشتتار المدرسة .

هذا ربيعة بن عبد الرحمن الذي تفقه به مالك ، والليث بن سعد إمام مصر . ومالك . والأوزاعي . وابن جريح ، وجعفر الصادق ، وابن إسحاق صاحب المغازي . وسفيان الثوري . وسفيان بن عيينة . وابن أبي ليلى ، وابن شبرمة . والحسن بن عمار . وحمزة المقرئ . والخرجاني عبد الكريم ابن محمد . وقتادة المحدث . وحماد بن زيد إمام البصرة . وأبو مقاتل السمرقندي . وخارجة بن مصعب إمام سرخس . والنضر بن محمد ، ومسعر ابن كدام . وعمر بن ذر ، وعمرو بن عبيد . هؤلاء الزعماء الفكريون وكثيرون سواهم كانوا يملأون الأقطار الإسلامية بالنور . وكانت لهم مع

أبي حنيفة مقابلات تتلاقى فيها أضواؤهم وآراؤهم بأضواء الكوفة وعلومها بين الحين والحين ، فكانوا يرون في بريق الشيخ وصفائه بشائر الفجر الطالع أو الفجر الطالع نفسه ، أما هو فكان يضيف من مقابلاته معهم في الكوفة أو في البصرة أو في مكة أو في المدينة خلاصات التفكير الإسلامي في كل أرجاء الإمبراطورية الإسلامية إلى دراساته ، فيلقحها بلباق جديد ليطلعها بالطابع العالمي الشامل . حتى إذا جادله سعيد بن أبي حجر ذات يوم قال : « يا أبا حنيفة كل ما أخذناه تفاريق من قوم شتى وجدناه عندك جملة » ! .

حقاً لقد انتهى إليه العلم ليبدأ منه العلم من جديد ، وبجسبك أن تقرأ ما فات من أسماء ، وأن تتصفح ما في الحلقة من أسماء وتستعرض من تلقوا عنهم من الفحول ، لتجتمع لديك القائمة الذهبية بمنابع الفقه الإسلامي وروافده لا تكاد تنقص شيئاً . تلتقى تياراتها في مدرسة الكوفة منبعاً أو مصباً . .

لقد كان زمن الفتوح الفكرية وكان العراق بقعة الكنوز المباركة ، فيها أسلمت دولة بني أمية روحها ، ومنها استمدت دولة العباسيين ودولة المفكرين روحاً جديداً أمدتها بأسباب الحياة ؟

البَابُ الرَّابِعُ

المفكر

(يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)

قرآن كريم

ارتفع الفكر الإسلامي في هذه الحلقة إلى أسى ذرى الإدراك ، في حين كان العالم المعروف يسدر في جهالات القرون الوسطى ، فجاء هذا الأستاذ الفرد ، بما لم يجيء به العلماء الكثر من قبل ومن بعد ، سواء في الشرق أو في الغرب ، يشيع في الناس مقولاته كما تشاع الأنوار معلناً آيات التسامح والتيسير والحرية . تسامح بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وتسامح بين المخلوق والخالق ، ثم حرية في الآراء والأشياء لا يجدها إلا العقل والعدل وعمارة الدنيا .

حرية في الدنيا ومغفرة في الآخرة إذا تحققت أولاهما وقام الأمل في أخراهما كانت الحياة جديرة بأن نحياها والآخرة حقيقة بأن نرجوها ولا نخشاها - فليست الحياة نكالا للأحياء ، ولا الآخرة جحيمًا مروعًا ، وإنما الدين يسر ، وعلى الناس ألا يقنطوا من روح الله ، وألا يياسوا من مغفرته للخطيئة .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال : « رحمة مهداة » ما خير بين أمرين أحدهما أيسر إلا اختار ما هو أيسر . وإن لنا في رسولنا الأسوة الحسنة .

وهذا الأستاذ الشديد في حق نفسه ، الرفيق في حق الناس ، إذا خير بين تيسير عليهم والإعنات لهم فإن خياره في اليسر بلا مرأ .

فعقيدته في الإيمان أنه يتم « بالتصديق بالقلب والإقرار باللسان بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر » .

فإذا صدق قلبك بالله وأقررت بإيمانك بلسانك فليهنك أنك مؤمن . ولا بأس على إيمانك إذا لم تقم بالأعمال التي أوجبها الدين أو التي دعا إليها ، أو إذا ارتكبت وزراً غير الشرك بالله سواء أهملت الفروض كالصلاة والزكاة أو عمل الخير عامة أو ارتكبت المعاصي .

وإذا ارتكب الإنسان كبيرة من الكبائر - كالقتل أو الزنا أو السرقة - فلا يفقد الأمل في عفو الله . فهو إذا استغفره قد يغفر له ، ولا أحد يستطيع أن يتيقن أن الله معذبه عليها . بل هو ما زال من المؤمنين : (إنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) .

بل إن الأجل بالناس أن يستغفروا الله لمرتكب الخطيئة مادام قد أدى الشهادة فذلك كما يقول الأستاذ : « أفضل لخصلتين : أما واحدة لأنه مؤمن والأخرى لا تستيقن أن الله معذبه عليها البتة . . والدعاء لأهل هذه الشهادة بالمغفر أفضل لحرمة هذه الشهادة . . وجميع ما أمر الله به من فرائضه في جنب الإقرار بهذه الشهادة والتصديق بها أصغر من البيضة في جنب السموات السبع والأرضين السبع . . » .

أما الشرك فظلم عظيم لا يغفره الله . وفيما عداه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان . . ومن قال لا إله إلا الله فقد عصم ماله ونفسه وحسابه على الله .

وعسى الله أن يتوب على الناس .

ولئن (خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) إن عليه أن يعمل صالحاً في الدنيا ويتوب عن الخطايا مستقبلياً على نفسه نعمة الإيمان ، آملاً في الغفران يوم الحساب .

تلك مقولات أبي حنيفة وهذا تسامحه . في حين كان الخوارج يقولون حرم الكوفة والبصرة وفي كل مكان إنه لا إيمان لمن لم يعمل ما أمر الله به . فترك الصيام . وعاد الصيام كفر . ولا إيمان لمن صنع ما نهى الله عنه . فالقتل كفر والزنا كفر . وأما المعتزلة فكانوا يقولون إن من لم يعمل بما أنزل الله فاسق : لا مؤمن ولا هو كافر ! في حين كان هؤلاء عند المعتزلة والخوارج فسقة أو كفاراً . كما قال أبو حنيفة مؤمنين بحمل الدعاء لهم . والرجاء فيهم والأمل في أن يتوب عليهم ويهديهم سواء السبيل — وهم جماهير المسلمين غير المعصومين — وعلى ذلك قال مقبولته الجامعة : « أهل القبلة كلهم مؤمنون ولا يخرجهم من الإيمان ترك شيء من الفرائض » فلا كبيرة مع الاستغفار . والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

ولم يذهب مذهب جهنم بن صفوان في القول بعدم وجوب الإقرار بالإيمان باللسان لما فيه من انعدام البيان وانتفاء الثقة . ولم يذهب مذهبه في الخبر وهو قول إن الإنسان مسير لا مخير محكوم عليه بأعمال الطاعة أو المعصية بل كان يقول : « لا جبر ولا تفويض ولا تسليط . والله لا يكلف عباده ما لا يطيقون ، ولا

منهم ما لا يعلمون . والله أعلم بما نحن فيه . والصواب الذي عنده . . ونحن مجتهدون ولكل مجتهد نصيب .

ذهب مالك والشافعي وابن حنبل مذهب أبي حنيفة في أن ترك العمل بالأوامر الدينية لا يكفر المؤمن ، فالناس يعاملون تارك الفرائض ويزوجونه ، ويرث فيهم ويرثونه ، لكن الأئمة المذكورين مع ذلك قالوا إن الإيمان يقوم على التصديق والإقرار والعمل أيضاً ! فإنه داخل في الإيمان ! ثم قيل إن الإيمان باق مع فوات العمل ! مع أن العمل لو كان ركناً وانتقض ، انتقض الإيمان وزال !

ومن أجل ذلك راح البعض يفسر العمل فقال : إن من أجزاء الشيء ما لا ينعدم الشيء بانعدامه كالشعر واليد والرجل للإنسان ، والأغصان للشجر ؛ فإذا انعدمت بقى الجسم حياً ! وقيل إن العمل ثمرة الإيمان تتبعه وتوابع الشيء قد يطاق عليها اسمه على سبيل المجاز ! وراح بعض آخر يقول إن العمل المطلوب . . هو عدم لعمل . . أى عدم ارتكاب المكفرات مثل السجود للأصنام . . ! أما ابن حنبل فقال بتكفير تارك الصلاة دون غيرها من الفرائض !

ويرى أبو حنيفة أنه لا تفاوت بين الناس في الإيمان لأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ! لا يزيد بعد إذ كمل ، والزيادة ليست إتماماً للإيمان لأنه من دونها بلغ لكمال وهو يتم بمجرد أن صدق المؤمن بالله وأقر بإيمانه . ولا يزيد إذا تكرر لإقرار .

فلا تخف إذن منافسة الناس في ميدان الإيمان ، ولا تخف تريبهم . فكل مؤمن ككل مؤمن .

وما دام الدين لله . والغفران مأمولاً منه ، فقيم يقول الناس بتفكير الناس ؟ إن لك كله متروك له سبحانه ، وإذا كان اللازم في الإيمان الإقرار والتصديق دون عمل . فحساب الناس عن الأعمال مرجأ إلى يوم الحساب .

وعلى المسلمين أن ينظروا في أمورهم وأن يذكروا الله في حياتهم ولا يتعرضوا

ولذلك فليس من رأى الأستاذ الخوض في أمر قتلة عليّ وعثمان فتلك دماء

طهر الله منها يده - على حد تعبير الحسن البصرى وعمر بن عبد العزيز لما سئلا عن قتلى صفين - فليتطهر من الخوض فيها لسانه ، والله وحده يعلم أى الفريقين كان على صواب . أو كما قال أبو حنيفة عمن يخطئون من المسلمين عموماً : « . . لكننا نرجو لهم ونخاف عليهم ونقول كما قال الله تعالى (خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخِرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) حتى يكون الله سبحانه وتعالى يقضى بينهم، وإنما نرجو الله لهم لأن الله عز وجل يقول «إنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ونخاف عليهم بذنوبهم وخطاياهم» .

ومن أجل ذلك نسبوا إليه «الإرجاء» وهو ما يترجمه المستشرقون بالفرنسية «بالتأجيل» وفي الإنجليزية «ترك الأمر لله وحده» .

كان بالمسجد يوماً فدخل عليه طائفة من الخوارج شاهرين السيوف فمألوا : يا أبا حنيفة نسألك عن مسألتين فإن أجبت نجوت وإلا قتاناك . قال : اغمدوا سيوفكم فإن برؤيتها ينشغل قلبى . قالوا وكيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل بإغمادها فى رقبتك ! قال سلوا إذن . قالوا جنازتان بالباب إحداهما رجل شرير الخمر فمات سكران ، والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت فى ولادتها فإى التوبة : أهما مؤمنان أم كافران ؟ فسألهم : من أى فرقة كانا ؟ أمن اليهود قالوا : لا . قال : من النصارى ؟ قالوا : لا . قال : من المجوس ؟ قالوا : لا - قال ممن كانا ؟ قالوا من المسلمين . قال : قد أجبتكم .

قالوا هما فى الجنة أم فى النار ؟ قال : أقول فىهما ما قال الخليل عليه السلام فىمن هو شر منهما : (فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ) وأقول كما قال عيسى عليه السلام : (إِنْ تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

فنكسوا الرعوس . . وانصرفوا .

انصرف الخوارج بعد أن راعهم برباطة جأشه وانتزع منهم بجدانه القبول الاعتراف بأن مرتكبى هاتين المعصيتين مسلمان . وأضاف إن الله يغفر لمن يعصيه

سله ، فالعصاة عباد الله والله يغفر لمن يشاء .

وجرى جمهور المسلمين على هذه القواعد في جملتها وتفصيلها وما يزالون ه
فأى ضمان للرقاب كان ذلك الضمان ، في وقت كان الشك فيه في الإيمان
الهدراً للدماء .

أياً ما كان الرأي فإن لأبي حنيفة - وقد تبعه جمهور الأمة وأهل السنة -
اليد العليا على المسلمين إذ آمنهم من خوف ، ولم يقض مضاجع المتقين
بهم ، ولم يقض على أمل غير المتقين في يوم الحساب ، وبهذا حبت الحياة
أحياء ، ولم تحتوشهم زبانية العذاب في الحياة الدنيا ، قبل أن تستقبلهم بالمغفرة ،
لائكة الرحمة في الحياة الآخرة .

* * *

وبعد فما هو طابع فلسفة أبي حنيفة ؟ ما عنوان تلك الحياة الذي يتحصل فيه
تابها ؟ وما مفتاح هذه الشخصية الذي تديره في بساطة فتمكن من كل
وراءه ؟ . . .

طابع تلك الفلسفة ، وعنوان تلك الحياة ومفتاح هذه الشخصية هو التيسير ،
سامح والحرية .

حرية وتسامح وتيسير بين نفسه وبين تلاميذه ، وبين نفسه وبين الناس ،
الأقوال والأفعال والأموال ، والعبادات والآراء ، وفي البيع والشراء ، وفي كل
شياء .

كان تلاميذه يخالفونه لمجرد أن يخرجوا ما عنده من كنوز ، سئل أبو يوسف
لماذا قضى برأى أبي حنيفة وقد كان يخالفه فيه فقال : كنا نخالفه لنستخرج
عنده .

وكما كانوا يحاولون أن يستخرجوا ما عنده من الكنوز ، كان يريدونهم على أن
خرجوا ما عندهم لتقربى شخصياتهم وتنمو ملكاتهم وتفيد الحلقة من نبوغهم .
في ذات يوم انتهى معهم إلى رأى في مسألة - وكان تلميذه عافية الأودي
بياً - فقال لا ترفعوها حتى يحضر عافية لنسمع رأيه فيها .

ولئن كان أفلاطون قد علق على باب مدرسته : « لا يدخل علينا من ليس له عقل هندسى » فإن أبا حنيفة طالما قال : « اللهم من ضاق بنا صدره فإن قاوبنا قد اتسعت له » .

ولقد طالما قال : « علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه » .

افتتح أبو يوسف وزفر عنده مسألة من حين طاعت الشمس إلى أن نودى بالظهور ، فكان إذا قضى لأحدهما على الآخر قال له الآخر أخطأت ما حجبتك فيخبره حتى كان آخر ذلك أن قضى لأبي يوسف على زفر عند ما نودى بالظهور . فضرب أبو حنيفة على فخذ زفر وقال : لا تطمعن بالرياسة في بلد يكون هذا بها .

وبهذه الحرية التي كانت لهم من أنفسهم ومع الأستاذ اختلطت ذواتهم بذاته ، فمكنت للمدرسة أسباب النجاح . قال رجل : أخطأ أبو حنيفة . فقال آخر : كيف يخطىء ومعه أبو يوسف وزفر ؟ ثم عدد بقية من التلاميذ . وقال : من كان هؤلاء جلساؤه لم يكذب يخطىء لأنه إن أخطأ ردوه .

وكثيراً ما تجد في المسألة الواحدة أربعة أقوال لكل من أبى حنيفة وأصحابه أقوال فيها وقد ترجح آراؤهم رأيه .

في هذه الحلقة كان الأستاذ يقول منذ أكثر من ألف ومائتى عام ما لم يتأخر الناس إلى اليوم في إنجلترا وفرنسا ! وما يزال فقه المذاهب الباقية يعارضه : إن مر حق المرأة أن تجلس على كرسي القضاء . . قاضية فيما تقبل فيها شهادتها ! . .

كان يقول إن من حق المرأة الحرة البالغة أن تزوج نفسها ممن ترغب . وكان كانت أم ثيباً . دون تدخل وليها . لأن ذلك تصرف منها في خالص حتمها ، وإن كان لوليها حق الاعتراض في حالة عدم كفاءة الزوج . إن أبا حنيفة بقيد الحق بعد جواز استعماله إذا حملت الزوجة حملاً ظاهراً أو ولدت .

وكان يقول إن البكر البالغة لا يجوز لأحد أن يجبرها على الزواج في حين تجر المذاهب الأخرى .

في هذه الحلقة كان الشيخ الجليل يقول ما ينفرد به الإنجليز اليوم في شرائعهم من أن الحجر على السفينة أو ذى الغنلة غير جائز لأن في الحجر عليهما إهداء

لأدميتهما . بينما يرى غيره الحجر صيانة لأموالهما ثمكيمياً لقواه تعالى :
 (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) -
 أما أبو حنيفة فيشرح رأيه بأن مالك المال إنسان حر بالغ عاقل مكلف بكل
 التكاليف الشرعية ، ولم يسقط عنه شيء من الواجبات فكيف يمنع عنه ماله !
 وإذن فالنص يريد أن يكون منع المال عنه تأديبياً له ، والإنسان في أول أحوال
 البلوغ قد يفارقه السفه لقربه من زمن الصبا . ولكن بعد تطاول الزمن به لا بد من
 أن يستفيد رشداً . فحسبه حبس ماله عنه حتى تصل سنه إلى خمس وعشرين .

أما عن الحجر على السفه بعد البلوغ رشيداً فيقول : لا أحجر عليه لأن النص
 إنما ورد بمنع ماله عنه لا بالحجر عليه في التصرفات . وأما قياس الحجر على منع
 المال فهو قياس الأعلى على الأدنى . إذ غاية منع المال عنه إبطال نعمة زائدة
 وإلحاقه بالفقراء ، والفقر لا ينافي الأهلية ولا الإنسانية ، أما الحجر عليه فهو إلغاء
 عبارته بعدم ترتيب آثارها عليها ، وفي هذا إبطال ولايته وأهليته وإلحاقه بالبهائم .
 وتجريده من نعمة أصلية من أكبر النعم وأجلها وهي البيان الذي يمتاز به الإنسان
 عن الحيوان .

وامتدت ظلال الحرية عنده فتعدت منازمة النقه إلى عالم الاقتصاد . فائن
 كان العلماء المحدثون قد دقوا الطبول لحرية التجارة في العصر الحديث ، إن مبادئهم
 لم تكن خافية على أستاذ الكوفة ، الذي يأبى التدخل في قانون العرض والطالب ،
 ولا يجيز التسعير الجبري على الناس . ووجه قوله كما روى الشافعي هو : « سد باب
 التحكم على الناس في أموالهم التي لهم حق التصرف فيها كيف شاءوا » . قال عليه
 الصلاة والسلام : « لا تسعروا فإن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق » ، والتمن
 حق العاقد إليه تقديره . ولا ينبغي للإمام (الحاكم) أن يتعرض له إلا إذا تعاق
 به ضرر للعامة ، لكن الأستاذ إذ يعترض على أن يتحكم الحاكم في أثمان العروض
 يعترض على أن يتحكم أصحاب العروض في العروض ، فلا يبيح احتكار الأتوات .
 إذا أضر هذا الاحتكار بالناس أو ضيق عليهم .

ولا ينفرد الناس بعطفه على أقواتهم بل يشمل عطفه قوت الحيوان ، فتملك

حالة دفاع عن المصلحة العامة يفضل فيها النظام على الحرية . كما يفضل في حالة الفتنة فلا يسمح ببيع السلاح خشية الأذى .

وتناهت به الحرية إلى أن أصبح عدو القيد حينما وجد القيد . وآية ذلك ما ذهب إليه في نظام الوقف باعتباره قيلاً لحرية الناس في تداول المال .

فلقد ذهب إلى حد القول ببطلانه . ومن نسبوا إليه أنه يجيزه قرروا أنه يجيزه في ثمرة العين الموقوفة لا في العين نفسها ، فإنها لا تخرج من ملك صاحبها وتؤول إلى ورثته بعد مماته . وأن الواقف لا يلزمه الوقف فيجوز له أن يرجع فيه حال حياته . وأن لزومه في شأن الثمرة كازوم النذر ، يبتغى به من نذره ثواب الآخرة ، ولا يمكن إجباره عليه بحكم القضاء .

لكأنما كانت بصيرته تخترق العصور من خلال الحجب ، وترى الرأي الحى الذى تهوى إليه أفئدة الناس بعد قرون وقرون .

• • •

ويطول بنا السرد لو رحنا نتقصى وقائع التيسير في تفكير أبى حنيفة فالتقتصر على بعض الأمثال .

بين الكتاب العزيز فرائض الوضوء حيث قال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ) .

فإذا طبق أبو حنيفة هذه الآية لم يحملها غير ما حملت من الفروض الأربعة وهى غسل الوجه وغسل الأيدي ومسح الرأس وغسل الأرجل .

أما غيره فقالوا إن على المتوضىء أن ينوى أنه سيتوضأ قبل أن يتوضأ . وإنه إذا غسل عضواً قبل أن ينوى ، وجب عليه أن يعود فيغسله بعد أن ينوى . أما هو فلا يجعل النية فرضاً . وعنده أن الرجل إذا دخل الماء قصد النظافة فعم الماء أعضاء الوضوء صحت صلاته ، لأن الصلاة تتوقف على الطهارة وقد تمت له الطهارة .

وقالوا إن على المتوضىء أن يتبع ترتيب الآية : الوجه فاليدين فالرأس فالرجلين ، أما هو فلا يرى ذلك فرضاً .

وقال قائلون إن على المتوضىء أن يتابع غسل العضو بغسل العضو الذي يليه قبل أن يجف العضو الذي تم غسله ، لكنه لا يرى ذلك فرضاً ، ولا كراهة عنده إذا لم يتتابع الغسل فلربما ينسى المتوضىء . ولربما يفرغ الماء فيعمد إلى إحضار غيره ويجف في إبان ذلك العضو المغسول .

وبينا ينتقض الوضوء في المذاهب الأخرى بمجرد لمس النساء والأجنبيات ، بشهوة عند البعض ، وبغير شهوة أى لمجرد اللمس عند البعض الآخر ، يرى الحنفية أن الوضوء لا ينقضه اللمس وإنما تنقضه المباشرة الفاحشة . . .

تلك نظرات الأستاذ المسموح ، يخفف على الناس أعباءهم . ويكفيهم خطر إعادة الوضوء في كل وقت ، وخطر فراغ الماء ، في أزمة وأمكنة لم يكن فيها ميسوراً كما نجده الآن .

وكما يسر الأستاذ على المتوضىئين يسر على المصليين .

فهو لا يكلف من يصلي بأن يرفع يديه إذ يفتح الصلاة ، وهو يجيز أن تفتح الصلاة عنده بعبارة « الله أكبر » بلغة أجنبية وإن كان المصلي قادراً على النطق بها باللغة العربية . لأن المطلوب هو تعظيم الله . وهو سبحانه وتعالى يعظم بكل لسان . بل هو لا يشترط في الافتتاح لفظ التكبير نفسه ، بل يصح بالتسبيح كقول المصلي « سبحان الله » أو بالتهليل كقوله : « لا إله إلا الله » .

وهو وحده من الأئمة الذي أباح قراءة القرآن في الصلاة باللغة الأجنبية مع قدرة المصلي على قراءتها بالعربية - ولو أنه قيل إنه رجع عن ذلك الرأي .

وكما يسر على المصليين المقيمين ، يسر على المسافرين . فأوجب عليهم أن يقصروا الصلاة الرباعية (ذات الأربع ركعات) وأن يجعلوها ركعتين . ولم يكلف بتجويز ذلك لهم كغيره بل أوجب عليهم التيسير إيجاباً . . . وحقيقة مذهبه في ذلك أن الله لم يشرع في السفر إلا ركعتين فلا يلزم المسلم أن يصلي أربعاً . ولو نوى أن يصلي أربعاً لا يقع فرضاً إلا ركعتان والباقي نافلة .

وتجاوز التيسير عنده العبادات ليتجلى في أبهى مجاله في المعاملات . لقد

انعكست أشعة الفكر العملي على كل فرع من فروع مذهبه وغدا « المعروف عرفاً كالمشروط شرعاً » وصارت « العادة محكمة » حتى إذا عمد تلميذه محمد إلى وضع أحكام الصباغة لم يقتصر على تطبيق قواعد الفقه ، بل قصد إلى الصباغين يدرس معاملاتهم بين ظهرانيهم .

وتوج الأستاذ سماحة الرأي وسماحة النفس بسماحة اليد البيضاء ، فجعل من ذاته ومن حياته ملقى يتجمع عنده وتصدر منه المعاني الرفيعة في النظم السياسية والاجتماعية المسيطرة في القرن العشرين للميلاد . إذ كان - وهو التاجر العريض الثراء - يخرج عن أكثر ماله للفقراء . ولا يستبق لنفسه منه إلا قدرأً محمداً « أربعة آلاف درهم » هو مقدار نفقته . وما عداه لا يراه حقاً لنفسه بل يراه من حق الناس . وبهذا سبق الفيلسوف الروسي تولوستوى بأحد عشر قرناً . وأضاف إلى سماحة الفكر والنفس اشتراكية الأستاذ الذي لا يختص بماله تلاميذه ، بل يشرك في أمواله الناس جميعاً ، معلناً لهم أن ما يصيبونه منه ليس إلا حقاً لهم وإن كان الله يجريه على يديه .

* * *

كان أسلوب الأستاذ الفكري هو الأسلوب العلمي الحديث وإليك بعض الأمثال :

فالزوايا في فقهه كالبواعث في الفقه ليست هي الأسباب ، والأحكام تبنى على الأسباب لا على الزوايا لأنها ليست ظاهرة ، فإذا ساءت النية وظلت خافية ، وحسن السبب وبرز للأعين ، فإن التصرف يصح شرعاً في أمور مدنية ، وبهذا تجرى الأحكام على المعلوم لا على المجهول وعلى اليقين لا على الريب ، وعلى الحرية لا على التحكم .

وإن من قواعده أن اليقين لا تزيله الشكوك :

فإذا كان زواج المتعة محرماً شرعاً لأن المقصود به استمتاع الرجل بالمرأة من الزمن على غير ما يرى إليه الزواج الصحيح من ارتباط الزوجين رباطاً أبدياً ، فقد ذهب البعض إلى إبطال الزواج إذا كان قصد المتعة فيه مضمراً عند العقد لكن الأستاذ يرى البحث في الزوايا مخطرة يكتنفها من الأخطاء قدر ما يحدق بها من الأخطار ، فإذا كان قصد المتعة خافياً عند العقد فكيف يتأكد منه الناس ولهذا أباحه وإن زوى الرجل أن يبقى زواجه مدة نواها ما دام لم يذكرها في العقد .

ومن الأحكام الشرعية أن المرأة إذا طلقت طلاقاً نهائياً (بائناً) لم تحل لزوجها حتى تتزوج من سواه ثم تطلق منه . يريد الله بذلك أن يهذب أنفس الناس ويبين لهم أن الطلاق أبغض الحلال إليه فلا يستعمل إلا عند انقطاع الأسباب ، وأن على من جازف بالطلاق أن يدفع مثلما اندفع فيرقب خيبة الزواج الثاني . والتسريح من الزوج ، وقبول الزوجة أن تعود إليه . وهى احتمالات آخرها أعسر من أولها ، ينتقل فيها المطلق من مجهول إلى مجاهيل ، تعذبه فكرة انتقال الزوجة على هذا النحو الذى تفرع منه الطبيعة البشرية .

ولكن ما القول إذا اتفق (الطرفان) والزوج الجديد على أن يكون الزواج الجديد طريقاً للوصول إلى الزواج القديم . وأن الزوج الجديد ليس إلا « المحلل » الذى يعقد على المرأة فيتزوجها على أن يطلقها لتعود إلى الزوج القديم .

هل يتحقق فى هذا الزواج قصد الشارع ، أو هو غير مقصود لذاته ، وإنما مقصود به ذات السيد القديم ؟

فى هذه المسألة ذهب أئمة الفقه مذاهب شتى ، وبحسبنا أن نعرض بعضها منها :

قال أبو يوسف : إن زواج المحلل فاسد ولا يحل للزوجة أن تعود للزوج القديم . وقال محمد : إن زواج المحلل صحيح لكن الزوجة لا تعرد للزوج الأول لأنه يستعجل ما أخره الشرع فيعامل بنقيض قصده .

وقال مالك : إن زواج المحلل فاسد ويعاقب الزوجان عليه ويعاقب الشهود إن علموا .

وقال ابن حنبل : إن الزواج باطل .

أما الشافعى فله رأى وسط بين الآراء انتهى إليه بعد أن قدم إلى مصر قال : إذا ورد عقد زواج المحلل مطلقاً بلا شرط فيه وكانت نية الزوج ألا يمسكها إلا قدر ما يصيبها ليحللها لزوجها الأول فإن الزواج صحيح ولا تفسد النية شيئاً منه لأن النية حديث نفس . وقد ينوى الشخص الشيء ولا يفعله . أما إن تزوج الرجل بشرط أن ينتهى الزواج بالدخول والامس ليحللها من زوجها الأول فهذا العقد باطل .

تلك آراء الأئمة في التحليل مختلفة كما ترى ، وهي من قديم ليست محلا للاتفاق .

أرسلت امرأة إلى رجل فزوجته من نفسها ليحلها إلى زوجها فأمره عمر بن الخطاب أن يقيم معها ولا يطلقها وأوعده إن هو طلقها أن يعاقبه .
أما الإمام الشعبي فقال : لا بأس بالتحليل إن لم يأمر به الزوج .

وأما الليث بن سعد - إمام مصر - فرأى رأياً رشيقياً قال : إن تزوجها ثم فارقتها لترجع إلى الأول فإن بين الثاني ذلك للأول بعد دخوله بها لم يضره .

وهذا الإحسان الكريم الذي يشير به الليث قد روى مثله عن أبي الشهداء وشهيد كربلاء حتى ليخيل للباحث أن صنيعه قد ألهم الليث فكرته جملة وتفصيلاً .
قالوا : إن الحسين بن علي لم يتزوج أرنب بنت إسحق رغبة في مالها أو جمالها .
فلما كانت زوجة عبد الله بن سلام إذ خدعه معاوية فأنفذ إليه الرسل أن سيروجه من بنته ، وأنهم عبد الله أن بنت أمير المؤمنين لا ترضى أن تكون لها ضرة ، فطاق أرنب في انتظار بنت الخليفة ! ثم مضى رسول آخر إلى أرنب في العراق يخطبها لولي العهد يزيد بن معاوية - وكانت قد شغفته حباً ، فاجأ إلى أبيه يستفتيه فدبر له الأمر على ما نرى - حتى إذا باع الرسول العراق لقي الحسين ، فقال له الحسين إذ عرف رسالته : إني كنت عزمتم على الزواج منها وأردت الإرسال إليها ولم يمنعني من ذلك إلا سؤال مثلك . فاخطب رحمتك الله على وعلى يزيد ولتختر من اختاره الله لها ، فلما عرض الرسول الأمر عليها قالت : « اختر لي أرضاهما لديك » ، قال : إنما عليك الاختيار لنفسك . قالت : عفا الله عنك وإنما أنا ابنة أخيك . فلما لم يجد بداً من القول قال : (ابن بنت رسول الله أحب إلي) . فاخترته وساق الحسين إليها مهراً عظيماً . وبلغ معاوية ما كان من فعل رسوله قبل : من يرسل ذا بلاهة وعمى يركب من أمره خلاف ما يهوى ولقد كنا بالإنلامه منه أولى حين بعثناه .

وكان عبد الله قد استودعها قبل الطلاق بدرات مملوءة دراً ، فاحتاج إليها بعد أن أهدره معاوية ، وقصد إلى الحسين يعلمه خبر ودائعه . فلما أخبرها الحسين

قالت : هي عندي بطابعه الذي طبعه عليها ، قال الحسن لعبد الله : ادخل عليها
متوف مالك : قال : أو تأمر بدفعه إلى جعلت فداك : قال : لا حتى تقبضه منها
كما دفعته إليها ، فلما دخلا عليها أخرجت البدرات وقالت له : هذا مالك فشكر
ها ، وخرج الحسين ففض عبد الله خاتم بكرة ، فحشا من الدر حثوات ، وقال
خذي فهذا قليل مني إليك ، واستعبرا جميعاً أسفاً على ما ابتليا به ، فدخل الحسين
عليهما وقد رق لهما للذي سمع منهما فقال : : أشهد الله أنها طالق ثلاثاً :
اللهم إنك تعلم أني لم أستنكحها رغبة مني في مالها ولا جمالها ولكني أردت
إحلالها لبعولها . ولم يأخذ مما ساق إليها في مهرها قليلاً أو كثيراً . وحاولا أن يرداه
إليه فلم يقبله وقال : الذي أرجو عليه من الثواب خير لي منه : فتزوجها عبد الله
وعاشا متحابين حتى قبضهما الله إليه :

تلك آراء الأئمة ، لكن رأى أبي حنيفة أن العقد صحيح على الإطلاق
ولو شرط فيه أنه « عقد للتحويل » أي صرح فيه بأن الزوج يتزوج المرأة
ليحلها لزوجها الأول :

تنحصر مطاعن خصوم أبي حنيفة في هذه المسألة في أنه يستمسك بظاهر
النص حيث تقول الآية : (فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ) ،
ويقولون إن الآية يراد بها مؤدى العقد وهو الاستمرار لا حرفية العقد وهي
مجرد عمله :

لكن ثمة أموراً متفقاً عليها تضيق بها شقة الخلاف ويبين منها ما يعتمد
إليه أبو حنيفة من التيسير والتعمير والإصلاح ما استطاع :

فالقبح الذي يستقبحه خصوم أبي حنيفة في المحلل يستقبحه أبو حنيفة
قدر سواء . والعقد عنده مكروه كراهة التحريم . ثم إن دخول الزوج الثاني
الزوجة واجب عنده لأن الرسول عليه السلام قد أفهم بذلك امرأة ترافعت
ليه في الموضوع . وذلك رأى الصحابة والتابعين ولم يذهب أبو حنيفة في مسألة
لباشرة - المس - مذهب شاذة قليلين على رأسهم سعيد بن المسيب لم
رجبوها ، فذلك مذهب لا يخفى أنه في غاية المجانة والفضاحة ولو قضى به

قاض لا ينفذ لوقوعه باطلا ولا ينفذ بالتنفيذ .

فلم يبق إلا الشرط المقرون بالعقد وهو شرط فاسد عند أبي حنيفة .
والشروط الفاسدة عنده تفسد عقود المعاملات المالية ولا تفسد غيرها من
العقود كعقد الزواج . وإنما لكل امرئ ما نوى وقد سلك الطريق المفضية
إلى الزواج في ظاهر الشرع :

ثم إن المحلل غاية أنه نوى الطلاق إذا وطئ المرأة وهو مما ملكه الشرع
إياه . كما لو نوى المشتري إخراج المبيع من ملكه إذا اشتراه . أو نوى
في عقد الشراء إتلاف المبيع وإحراقه . أو إغراقه ، فلا يقدح ذلك في صحة
البيع . ولو اشترى عصيراً في نيته أن يتخذة خمرراً . أو جارية وفي نيته أن
يكرهها على البغاء . أو سلاحاً وفي نيته أن يقتل به معصوماً . فكل ذلك لا أثر
له في صحة البيع .

فالتمسك بصريح النص ليس احتيالا ، والكراهة الدينية شيء وانعتاد
العقد القانوني شيء آخر . والدين لله . والدنيا لنا .

وإذا طبق الفقيه النص تطبيقاً يتحملة ظاهر النص وصريح اللفظ ، فليس
ذلك احتيالا كما يحتمل أرباب الحيل الممقوتة . مثل التحايل للربا . أو لمنع
الصدقات ، كمن يفتي الرجل بأن يهب ماله لآخر إذا أوشك العام على
الانتهاء ثم يستوهمه إياه فلا يتم عام على المال في يديه ولا تستحق عليه
الزكاة . وكالارتداد لفسخ الزواج . أو ذلك الساخر الذي حلف ألا يأكل
رغيفاً أو قطفاً من العنب أو قمحاً . فأحل نفسه من اليمين بأن أكل الرغيف
إلا لقمة ! والقطف إلا حبة . . ! وطحن القمح وأكله خبزاً . فذلك هزل
بارد لا يستساغ .

وبحسب أبي حنيفة فخراً أن التاريخ لم يرو عنه أنه سخر براعته في
التخريب والتكليف لخدمة سلطان أو نصره ذي جاه .

قال الشعبي : « لا بأس في الحيل فيما يحل ويجوز . وإنما الحيل شيء
يتخلص به الرجل من الحرام ويخرج به إلى الحلال . فما كان من هذا ونحو

فلا بأس به : : « وحضر سفيان الثوري مجلساً فلما أراد الخروج منعه فحلف أن يعود ، ثم خرج وترك نعله كالناسي لها فلما خرج عاد فأخذها وانصرف :
ورأت امرأة عبد الله بن رواحة زوجها على جارية له فذهبت وجاءت بسكين فصادفته وقد قضى حاجته فقالت : لو وجدتك على الحال التي كنت عليها لو جأتك ! فأنكر ، قالت : فاقراً إن كنت صادقاً : قال :
شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرين !
قالت الساذجة : آمنت بكتاب الله وكذبت بصرى !!

وبلغ ذلك النبي فضحك ولم ينكر عليه هذا التحيل بإظهار القراءة لما أوهم به زوجته أنه قرآن تخلصاً من غضبها ، لتفهم أنه ليس جنياً حيث لا يقرأ القرآن إلا المطهرون .

ولئن ثار البعض على الاحتيال ، فكم في فقه أبي حنيفة من الأصول التي تثور في وجه الاحتيال : وكم باهى الفقهاء بالحيل في حل مشكلات الإيمان :

بحسبنا أن نستعرض أحد المخارج التي أدهش بها الليث بن سعد بلاط الرشيد : قالوا إن هارون الرشيد جرى بينه وبين زوجته كلام فقال لها : « أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة » ، ثم ندم واستحضر العلماء من شتى الأقطار فلما اجتمعوا سألمهم فاختلفوا : وكان في آخر المجلس شيخ هو الليث بن سعد سأله فقال : إذا خلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته ، فصرفهم ، وأمر بإحضار مصحف . فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فلما انتهى إلى قوله تعالى : « ولئن خاف مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتَانِ » قال : أمسك يا أمير المؤمنين : ثم استحلفه يا الله قائلاً : إني أخاف مقام ربي فقال : يا أمير المؤمنين فهما جنتان لا جنة واحدة ! قالوا فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر - ولا جرم كان الستر يحجب كواكب القصر - ! - فقال له الرشيد : أحسنت ، وأمر له بالحوائر والسلع وأمر له بإقطاع الحيزة . بل لا يتصرف أحد في مصر إلا بأمره :

وروا من حيل أبي حنيفة أن رجلاً أتاه بالليل فقال : أدركني قبل الفجر وإلا طلقت امرأتى : قال : وما ذاك ؟ قال : تركت الليلة كلامي فقلت لها إن طلع الفجر ولم تكلميني فأنت طالق ثلاثاً : وقد توسلت إليها بكل أمر أن تكلمني فلم تفعل - قال الشيخ : اذهب فمر مؤذن المسجد أن ينزل فيؤذن قبل الفجر فلعلها إذا سمعته أن تكلمك واذهب إليها وناشدها أن تكلمك قبل أن يؤذن المؤذن : ففعل الرجل وجلس يناشدها وأذن المؤذن فقالت : طلع الفجر وقد تخلصت منك ! قال : قد كلمتني قبل الفجر وتخلصت من اليمين أما مخارج أبي يوسف فكانت غداء شهياً للرواة . وسرى فيما بعد بعض ما قدموا إلينا منها :

في فترة معاصرة وضع كتاب أسماه صاحبه (كتاب الحيل) نسبة خصوم أبي حنيفة إلى أبي حنيفة وقابله الرأي الفقهي في كل مكان بالاستنكار لما فيه من مخارج تؤدي إلى الكفر الصراح :

ومن المقطوع به أن أبا حنيفة أو أحداً من صحبه لم يضعه فإن مذهبه ومذهب صحبه أن من يأمر بالكفر كافر .

ولم يذكر أحد من تلامذته أو رواة مؤلفاته كتاباً له من هذا القبيل ولا روى ذلك أحد من الثقات .

قالوا : « ما وضعه إلا إبليس » ، فقال عبد الله بن المبارك : « الذي وضعه أبلس من إبليس » . وابن المبارك - كما قد علمت - تلميذ أبي حنيفة :

* * *

كان الأسلوب التعليمي لأبي حنيفة يضاهي الأسلوب التعليمي في أحدث الجامعات من حيث التحليل والتعليل ، وتأصيل الأصول ، وترتيب النتائج مع التجرد العلمي ، تجري فيه التطبيقات على وقائع حية تنطبع في الذهن وتنضبط في الوصف ، لأن العمل وحده هو الذي يثبت العلم ويثبته ، ولهذا

أنشئت نظم « الأقسام » في الجامعات لتدريس التطبيقات ، وهذه الدراسات العملية في القانون تقابلها دراسة التشريح في الطب : ودراسة المعامل في العلوم وما إليها :

ولعلك لا تجد قضية كقضية « أم عمران » بين القضايا التي يتدارسها الطلاب في معاهد القانون ، استعرضتها مدرسة أبي حنيفة أيما استعراض ! شهدت الواقعة ، وشهدت المحاكمة ، ثم تولتها بالبحث ، والنقد ، وتناولت الحكم الصادر فيها بالتعليق الدقيق :

كانت بأم عمران جنة وكانت بإزاء جامع الكوفة فمر بها رجل فتناوشا فقالت له : يا ابن الزانيين .

وكان القاضي في المسجد قد سمع السباب : فأمر الرجل أن يدخل أم عمران عليه في المسجد فأدخلها ، وأقام عليها حدين ، حدًّا لأبي الرجل وحدًّا لأمه : وعرفت حلقة أبي حنيفة هذه الواقعة وهي على قيد أذرع من المحكمة في المسجد الجامع فلم تنهن في انتقاد القاضي ، وقلب أستاذها له الأمور إذ رد قضاءه إلى الأصول ، أو إن شئت تعبيراً عصرياً فقل أخذ « وكيف الواقعة » و « يناقش التطبيق » وقال :

أخطأ ابن أبي ليلي في ستة مواضع : !

الأول : أقام الحد في المسجد ولا تقام الحدود في المساجد .

الثاني : وضربها قائمة والنساء يضربن قعوداً .

الثالث : وضرب لأبيه حدًّا ولأمه حدًّا ولو أن رجلاً قذف جماعة كان

عليه حد واحد :

الرابع : وجمع بين حدين ، ولا يجمع بين حدين حتى يخف أحدهما .

الخامس : والمجنونة ليس عليها حد :

السادس : وحد لأبويه وهما غائبان لم يحضرا فيدعيان :

فالجنون كمانع من موانع العقاب ، وتعدد العقوبات ، وتعدد الجرائم ،

وطريقة المحاكمة ، واختصاص المحكمة ، وقضاء القاضي بعلمه ، ومكان التنفيذ . كل أولئك أمور تكاد تكون أم الكتاب في الفقه الجنائي ، وثبت إلى خيال الشيخ فور البديهة في مكان الحادث ، وفي وقت وقوعه ، فعلمها تلاميذه :

كان ذلك شأن أبي حنيفة فإذا كان شأن القاضي ؟

وهو من هو في تاريخ الكوفة : محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، صاحب الرأي والأستاذ الأول لأبي يوسف ، وثالث ثلاثة من جلة الفقهاء كانت تلمع أسمائهم في سماء العراق عامة وفي الكوفة خاصة . شريك النخعي وسفيان الثوري وهو :

إنه لم يقرع الحجة بالحجة ولكنه راح يقرع باب الأمير :

وشكا للأمير فأمر الأمير أبا حنيفة ألا يتعرض لقضائه :

لكن أعداء العالم كأوليائه في الحاجة إليه سواء ، فقد امتنع عن الفتيا أياماً حتى قدم عليه رسول من ولي العهد يستنبهه في مسائل فقال : أنا محجور على . وعاد الرسول إلى الأمير وقال الأمير : قد أذنت له فقعد فأفتى :

سأل رجل أبا حنيفة عن فتح خوخة في حائطه فقال : افتح ما شئت : ولا تطلع على جارك وشكاه إلى ابن أبي ليلى فمنعه فعاد إلى أبي حنيفة فقال : افتح فيه باباً . فمنعه ابن أبي ليلى ، فعاد إلى أبي حنيفة فقال : كم قيمة حائطك ؟ قال : ثلاثة دنانير قال : اهدمه ولك على الثلاثة . فجاء ليهدمه فرفعه الجار إلى ابن أبي ليلى فقال ابن أبي ليلى : يريد هدم حائطه وتسألني أن أمنعه ؟ اذهب فاهدمه واصنع ما شئت في جدارك . قال الجار : كان فتح الخوخة أهون على !!

وهكذا حاور القاضي والخصوم بين يديه حواراً عملياً أخضع الأشخاص

كالأشياء والآراء لسلطانه :

وفي ذات يوم اجتمع الفقهاء لدى الأمير يستفتيهم ، فأدلى كل برأيه ،

وأدلى أبو حنيفة برأيه ، وأدلى الحسن بن عمارة برأيه ، فقال أبو حنيفة :
أخطأنا وأصاب الحسن :

وقال الحسن : لو شاء أن يقيم قوله ويردني من قولي لأمكنه ، فعلمت أنه
ليس أروع منه .

بهذا وأمثاله كان الحسن يأخذ بركابه وهو يقول : « والله ما أدركنا أحداً
تكلم في الفقه أبغ ولا أصبر ولا أحضر جواباً منك وإنك لسيد من تكلم
في الفقه في وقتك غير مدافع ، وما يتكلمون فيك إلا حسداً » :

الباب الخامس

التلاميذ

« العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى
تعطيه كلك ، وأنت إذ تعطيه كلك
من إعطائه البعض على غرر » .
(أبو يوسف)

آلت إلى أبي حنيفة رياسة الحلقة وهو في الأربعين بعد أن ظل عاكفاً على أستاذه قرابة عشرين عاماً سبقتها دراساته ورحلاته ، فإذا علم تلاميذه علمهم بالحكمة والموعظة الحسنة : وإن أول ما يعظهم به هو ذاته ، ولقد أخذ نفسه بالدرس العميق قبل أن يتعرض للإفتاء . فليأخذهم بما أخذ به نفسه من التحصيل الذهني والاستعداد الروحي .

مرض أبو يوسف مرضاً أشفق عليه منه فكان يتعهده حيناً بعد حين . وسار إليه آخر مرة فرآه مقبلاً بعد أن أبل فرجع ثم قال : « كنت أوملك للمسلمين واثن أصيب الناس بك ليموتن معك علم كثير » . فلما بلغ الكلام أبا يوسف ارتفعت نفسه وعقد لنفسه حلقة خاصة وقعد عن مجلس أبي حنيفة ، وقصد إليه الناس يتحلقون حوله . وافثقده الشيخ فعلم جملة الخبر : فطوى السنين القهقري واسترجع الذكرى . نشر صفحات حياته الأولى فبدت له نفسه في نحو الثلاثين في ضحوة العمر ، والدهر صفو والزمان غلام . يوم غره الغرور فتخيل ثم خال ، فعزم الفصال من أستاذه . وذكر أنه نكر نفسه وأوجس خيفة يوم ذلك فقعد من حماد مقعده السابق سنوات جديدة . لم يكن بعدها أغنى عن التعلم منه قبل .

هنالك علم أن التاريخ يعيد نفسه . فلم يتخل عن تلميذه . ودعا إليه صديقاً سيره إليه يحمل الرسالة الآتية :

اذهب فقل ليعقوب ما تقول في رجل دفع إلى قصار (وهو الخياط الذي يقصر الثياب) ثوباً ليقصره بدرهم ، فصار إليه بعد أيام يطلب الثوب فأنكره . ثم إن صاحب الثوب عاد بعد أيام يطلب الثوب ثانية فرده إليه مقصوراً فهل له أجر ؟ فإن قال له أجر قل أخطأت . وإن قال لا أجر له قل أخطأت .

وكان يعقوب في صباه يعمل عند قصار صبياً (وكان أبوه على ما قيل خياطاً) ولعل هذا سر اختيار السؤال . فإذا عجز الأستاذ الحدث عن

الحواب في مسألة له بها من كل إناحية عهد ، فتعساً للعلم الذي يدعيه :

ومشى الرسول يحث الخطى إلى الأستاذ النجيب ، وأخذ الأستاذ يجيب ، قال له أجره : قال أخطأت . فأطرق ملياً ثم قال لا أجره له : قال أخطأت . وعميت الأنباء على الفتى فأبلس ، وأسر الندامة لما رأى الخطأ : وانطلق من مجلسه انطلاق السهم إلى الرمية إلى حيث ملاذه وأستاذه .

قال أبو حنيفة : أظن ما جاء بك إلا مسألة القصار :

قال أبو يوسف : بلى :

أبو حنيفة : سبحان الله ! من قعد يفتى ، وقعد مجلساً يتكلم في دين الله وهذا قدره ، لا يحسن أن يجيب في مسألة من مسائل الإجازات !!

أبو يوسف : يا أبا حنيفة علمني :

أبو حنيفة : إن كان قصره بعد ما غصبه فلا أجره له لأنه قصره لنفسه . وإن كان قصره قبل أن يغصبه فله الأجره لأنه قصره لصاحبه .
أبو يوسف : !!

أبو حنيفة : من ظن أنه يستغنى عن العلم فليبك على نفسه : ؟ !

وبكى أبو يوسف على نفسه مدراراً وعاد إلى الحلقة بعد أن ذاق وبال أمره . ولو لم ينسه الشيطان لتذكر ما ذكره أبو حنيفة : « اعلم أن العمل تبع للعلم ، كما أن الأعضاء تبع للبصر ، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير ، ومثل ذلك الزاد القليل الذي لا بد منه في المفازة مع الهداية ، أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير » أو قوله : « من تكلم في شيء من العلم ونقده وهو يظن أن الله تعالى لا يسأله عنه كيف أفتيت في دين فقد سهلت عليه نفسه ودينه » ، وقوله : « من طلب الرياسة في غير حينه لم يزل ذل ما بقي » ولذكر : قول النبي عليه الصلاة والسلام : « لا تعلموا العلم لتباه به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتحتازوا به المجالس فن فعل ذلك فالد النار » .

ولما تقدم حماد بن أبي حنيفة يوماً ليصلي بالناس أخذ أبوه بمجامع ثوبه فأخره ، وقدم غيره ، فقال حماد : يا أبت تفضحني ! قال : « بل أردت أن تفضح نفسك فمنعتك إذ لو صليت فقال قائل أعيديوا صلاتكم خلف هذا فسطر في الكتب ويبقى عاره إلى يوم القيامة ! » :

ولما أخذ يعلمه وجهه إلى دراسة علم الكلام حيناً ثم صرفه عنه فجادله حماد بقوله : « ألسنت كنت تأمرني به » ، قال : « بلى وأنا اليوم أمهاك عنه » ، قال « ولم » ؟ قال « يا بني إن هؤلاء المختلفين في أبواب الكلام ممن ترى كانوا على قول واحد ودين واحد حتى نزع الشيطان بينهم فألقى بينهم العداوة والاختلاف » ، ثم قال : « كنا نجتمع وكان الطير تحفق على رؤوسنا . وقد بلغني أن قوماً يتكلمون اليوم فيضحكون من الكلام . وإنما هممة أحدهم أن يظفر من صاحبه بشنعة يشنع بها عليه فإذا بلغ الكلام هذا الحد ، فمركه خير » . وفي عبارة أخرى من عباراته : « كنا نناظر وكان على رؤوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم » :

وإذا كانت هذه نظرة أبي حنيفة إلى العلم وأهل العلم وهذا إنصافه للعلم من نفسه ومن ولده ، فهل يترك تلميذه ليتصدر مجلس العلم من غير علم . كلا : بل إنه ليضيف يداً إلى أياديه عليه فيهديه ، ويجادله بالتي هي أحسن ، لا بقوارص الكلم ، ولا بمواجهة ثقته في نفسه مواجهة المستزري لذاته ، أو دراساته ، ولكن بأن يبسط قدر علمه بين يديه ، ليكون في حكمه على نفسه الحكمة وفصل الخطاب :

ولقد كان هذا الصنيع الذي صنعه أبو حنيفة على يد الرسول لفته الأستاذ الموفق يهدي فتاه ، فلو أفلت منه زمام التدبير أو التعبير يومئذ ، لكان محتملاً أن يركب التلميذ رأسه فلا يهتدى ، وما كان أقرب هذه من تلك لو كان الشيخ فظاً غليظ القلب ، ولم يمكر بتلميذه ذلك المكر الجميل :

وما أعظم ما يرقى حسن التعبير من ثمرات : رأى بعض الملوك كأن أسنانه سقطت فعبها له معبر بموت أهله وأقاربه فأقصاه وطرده ، واستدعى آخر فقال له

تكون أطول أهلك عمراً فأعطاه وكرمه وقر به . . .

عاد أبو يوسف إلى الحلقة بعد أن تعلم في هذا الدرس جماع عاومه فأضحى يقول : « العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك . وأنت إذ تعطيه كلك . من إعطائه البعض على غرر » .

ذلك مثل من بر الشيخ بتلاميذه وبالعلم . ولو حاولنا أن نستقصى مظاهر هذا البر لكنا كمن يحاول أن يحصى نجوم السماء .

كان قد أدبهم بالعلم وبالقدوة . وبفن آخر هو الطريقة المثلى للإقناع هو الذى يحدث الجرس الأخاذ . والرنين النفاذ . ويحيل الصعاب بسائط . . هو تقديم العلم في وعاء من الحب . وخروج الكلام من القاب إلى القلب . واستيلاء المتحدث من فوره على الروح :

وليس يستطيع ذلك إلا من كانت لديه روح من الطراز الرفيع في طاقها أن تبعث إلى أنفس الناس شعاعاً دافئاً دافئاً كأنه الكهرباء :

قال الحسن البصرى للواعظ الذى نفرت نفسه من كلامه : « يا هذا . إن بقلبك لشرّاً أو بقلبي » .

وغمرت أسلوب الأستاذ سماحة النفس : كما تجلت في مناهج الدرس فسيطر على تلاميذه بالقصد والترفق . والصبر والترفع . فلم يكن يؤكل في حلقة لحم الصديق ولا لحم الخصم . وسما عن مناوأة خصومه إلى الاستغفار لهم . فملك الباب تلاميذه وبهر أبصارهم . وأفهمهم أن العلم والمحبة صنوان يسقيان من ماء التسامح . وأن المؤاخاة فيهما أدنى إلى الهدى من الملاحاة . وأن الغيبة قذف في السامع قبل أن تكون قذفاً في الغائب . وأنها على كل حال لعنة على المعتاب .

وتواضع الأستاذ لله فرفعه في أعين الناس وتلاميذه . وبصروا منه بما يبص به المقربون . وظفروا عنده بما لا يظفر به البعداء . وأعزهم الله به وأعزه بقرباء . و « لا وحدة أوحش من العجب » كما قال عليه الصلاة والسلام .

قال عبد الله بن المبارك : قلت لسفيان الثوري يا أبا عبد الله ما أبعد أبا حنيفة

عن الغيبة - ما سمعته يغتاب عدوًّا له ! قال : هو أعقل من أن يسלט على حسناته ما يذهبها !

قال له قائل : يتكلمون فيك ولا تتكلم في أحد ! قال : « هو فضل الله يؤتيه من يشاء » .

ومن بعد ذلك ببضع قرون قال الحكيم الفرنسي لا برويير : « إن التواضع بالنسبة للشخصية كالظلال بالنسبة للصورة توضحها وتظهرها وتجايبها » .

ولما سئل الفارابي : « أنت أعلم أم أرسطو » ؟ قال : « لو أدركته لكنت أحسن تلاميذه » وقال : « قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة وأرى أني أحتاج لمعاودته » .

قيل لأبي حنيفة اتق الله . فانتفض وطأطأ رأسه ثم قال : « يا أخى جزاك الله خيراً . ما أحوج الناس في كل وقت إلى من يذكرهم الله تعالى وقت إعجابهم بما يظهر على ألسنتهم من العلم حتى يريدوا الله تعالى بأعمالهم » .

ولم يدخل عليه داخل ونخاض في حديث الناس إلا قطع عليه خوضه . . . وكان يقول : « إياكم ونقل ما لا يحبه الناس من حديث الناس ، عفا الله عن قال فينا مكروهاً ورحم الله من قال فينا جميلاً . تفقهوا في دين الله . وذروا الناس من حديث الناس وما قد اختاروا لأنفسهم » .

قيل له هذا الذي تفتينا به هو الصواب بعينه . قال : « ما أذى عسى أن يكون الخطأ بعينه » .

وقال يهذب تلميذه يوسف السمتي قبل خروج يوسف إلى البصرة : « . . . ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسلك . . . ومن تكلم فيك بالقبيح فتكلم فيه بالحسن الجميل . . . وأفش السلام ولو على قوم لئام » ثم كشف له عن السحر الذي يسحر به الفقيه مناظريه قال : « ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس ، أو ضمك وإياهم مسجد . وجرت المسائل أو خاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تبدلهم منك خلافاً ، فإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول : فيها قول آخر هو كذا وكذا والحجة له كذا . فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك ، فإن قالوا هذا قول من ؟ قل بعض الفقهاء ، فإذا استمروا على ذلك أبو حنيفة

وَأَلْفَوْهُ ، عَرَفُوا مَقْدَارَكَ وَعَظَمُوا مَحَلَّكَ . وَإِيَّاكَ وَالْحَقْدَ وَإِنْ غَدَرُوا بِكَ ، وَأَدِّ الْأَمَانَةَ وَإِنْ خَانُوكَ » .

قال أبو يوسف : كان رحمه الله يغم لمن يشكره على شيء أعطاه إياه : ويقول اشكر الله تعالى فإنما هو رزق ساقه الله إليك : كان هذا الحميص الصائم الذي لا تجرد في داره إلا البواري يفرق أمواله بين التلاميذ وأشياخ المحدثين ، ويبعث البضائع إلى بغداد فيشتري الأمتعة ويجمع الأرباح ليشتري بها حوائج المتعلمين ، يقوتهم ويمونهم ، ثم يدفع إليهم الدنانير قائلاً : « أنفقوا في حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله سبحانه وتعالى فإنها أرباح بضائعكم ، مما يجريه الله لكم على يدي : »

• • •

فلنختصر في السرد ولنضع عنان الحديث لأبي يوسف حيث يقول : « كنت أطلب الحديث والفقهاء وأنا رث الحال ، فجاءني أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة فأنصرفت معه فقال لي : يا بني لا تمدد رجلك مع أبي حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مستو وأنت تحتاج إلى المعاش : فقصرت عنه كثيراً في الطلب وآثرت طاعة أبي . فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني فجعلت أتعاهد مجلسه . فلما كان أول يوم أتته بعد تأخري قال : ما شغلك عنا ؟ قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدي : فجلست . ولما انصرف الناس دفع إلي صرة وقال : استمتع بها فإذا فيها مائة درهم : وقال لي : الزم الحلقة فإذا فرغت هذه فأعلمني : فإزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلي مائة أخرى ، ثم كان يتعهدني وما أعلمته بخلة قط ، ولا أخبرته بنفاد شيء ، وكأنه كان يخبر بها حتى استغنيت وتمولت » .

كان أبو يوسف في نضارة الشباب حين وقعت هذه الوقائع : جاء إلى الحلقة تاركاً حلقة محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى . وقد قصصنا من قبل بعض آثاره :

ولما روى أبو يوسف هذه الوقائع كانت قد اجتمعت لديه أسباب المجد جميعاً : العلم الديني ، والعلم الدنيوي ، وأموال تكاد لا تحصى ، ووظيفة

دونها الوزارة ، وصداقة شخصية مع هارون الرشيد .

فلنرجع البصر إلى روايته مستقرئين : فأبو حنيفة كان يدرك بعقله ويلتزم بفعله ، حديث رسول الله : « لا حسد إلا في اثنتين ، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » وبهذين الحكمة والمال راح يتحدى الحسد ، فيمنح المال في سبيل الخير ويقضي بالحكمة ويعلمها . منحاً ليس له أول ولا آخر ، وتعليماً يكاد تضيق عنه حدود هذا الوجود .

وأبو حنيفة كان صاحب مال يفنيه بالسخاء ، أريحياً مرهف الحس ، يدرك وحى العين ودخائل النفس . يعطى من فوره ، ويعطى في الميعاد ، وقدماً قال الحكيم العربي : « خير الخير أوحاه » . وأقدم منه قول الرومان : « إن من يعطى فوراً يعطى مرتين » . والبدار في ذاته فضل . ثم هو يعطى في غيبة الناس فلا يشهد على العطاء إلا نفس صاحبه . في أناقة مظهر تسمو بمن يعطيه عن مهانة الابتدال .

وأى رشاقة كرشاقة اليد العليا وهي تدفع المال إلى اليد الأخرى دون رنين أو التماع . فتقدمه في صرة لا صوت لها ولا بريق منها يزعج الأعصاب ، في إسماع يسكر البصر . كل أولئك وهو مع تلميذ له لا بأس عليه إن هو خلع ثياب التخرج من شأنه . لكن القريب عنده كالغريب . وكذلك الجليس صاحب له خمسة الآلاف درهم حتى لا يرى عليه ذل استلامها ! وكذلك الجليس صاحب الثوب الخلق ، وذلك المدين الذي لا يجلس في ظلاله ! يصنع الصنيع دائماً في استخفاء وعلى استحياء ، وفي تلطف كتلطف الماتمس . يقطع بأنها السليقة المطبوعة لا السجية المصنوعة ، فإذا شكر أنكر الشكر ونقله إلى شيخه حماد .

قال أبو يوسف : « وكان يعولني وعيالي عشرين سنة وإذا قلت له ما رأيت أجود منك ، يقول : كيف لو رأيت حماداً ، وما رأيت أجمع للخصال المحمودة منه » .

وأبو حنیفة یدرک مزیة الاتصال الشخسی بین الأستاذ ورواده :

قال لأبی یوسف ینصحه : « وأقبل علی متفقهتک كأنک اتخذت کل واحد منهم ابناً وولداً لتزیدهم رغبة فی العلم » وتلك النصیحة هی الصنیع الذی طفق یصنعه طوال حیاته ، لا ینفک یسأل عن المریض من تلامیذه حتی یبرأ ، وعن الغائب حتی یرجع ، وعن غیر المریض و غیر الغائب ، لم یعرف عنه أنه اختص ولده حماداً بعطف کما اختص تلامیذه : قال عصام : « لم یکن لأحد من الحق کما لأبی حنیفة علی أصحابه . وكان الذباب إذا وقع علی أحد منهم یرى مشقة ذلك علی نفسه » .

والذی صنعه مع أبی یوسف فی مرضه والذی صنعه معه لما جلس للفتیا . لم یك إلا أمثالا میمونة العواقب . ففی واحدة شد أزر فقی كان یومه یشیر بغده . وفی الأخری دعاه إلى الاستزادة من العلم . فأوقی منه بسطة سمت به إلى أرفع الذری بین أئمة الفقه عامة . ولقد طالما قدر أبو یوسف له هذه الیة بقوله : « إنی لأدعو له قبل أبوی وسمعتہ یقول إنی لأدعو لحماد مع أبوی » .

هكذا كان أبو یوسف یقدمه علی أبویه فی حین یسوی أبو حنیفة بین أستاذه حماد و بین أبویه . وكلاهما علی الإنصاف : لأن أبا حنیفة علمه علی رغم أبویه . . . وعلى النحو الذی كان یدرکه أبو یوسف بقوله : « تغمد الله أبا حنیفة برحمته . وجزاه خیراً . فإنه أطعنی الدنیا والآخرة إطعاماً » .

ولئن كان أبو یوسف قد أعلن حدیث عطائه إن الحدیث نفسه لیشی بمقدار ما كان یتوخاه من إخفاء - والوقائع الی سردنا من قبل تنم عنه وتقرره - فكم من التلامیذ لم یعلنوا آیادیه . . . لقد أعلنها الحسن بن زیاد إذ كان یلازم أبا حنیفة وأبوه یرهقه بقوله لنا بنات ولیس لنا ابن غیرك فاشتغل بهن . وكان أبو حنیفة یدر علیه أخلاف الرزق حتی تعلم . وأعلنها یوسف ابن خالد السمتی . واجتمعت كلمة الرواة علی أنه كان یصبر علی من یعلمه وإن كان فقیراً أغناه وأنزل علیه وعلى عیاله صیباً من العطاء حتی یتعلم ، فإذا تعلم قال له : قد وصلت إلى الغنی الأكبر بمعرفة الحلال والحرام . وأجمعوا

أنه كان معروفاً بالإفضال على كل من جمعتهم به الأسباب . ورواية أبي يوسف تحدثنا أنه كان يفعل الفعال النابه مراراً ، ويسره إسراراً ، غير ممنون ولا مجذوذ ، ولا مصدر ، مما لا ينقع الغلة .

ولو جاءه المال عن أبيه أو جده أو من أعطيات الأمراء لكانت له درجة فضل ، ولوقع أجره على الله . لكن أرفع درجات الفضل أن يجمع الرجل المال بشق النفس ويؤتية بنفس راضية من يشاء . ويزيده سموّاً أنه لا يوزعه صدقة يطمع بها في ثواب الآخرة . بل يدفعه للناس على أنه وجه أولى من غيره بالإنفاق ، وسبيل صالحة لعمارة الدنيا بالعلم . فالإنسانية العليا هي المبدأ والمنتهى . والأمل المشتهى . لا حسن ثواب الدنيا . ولا حسن مآب الآخرة .

ويرتفع الفضل إلى سماء ما طاولتها سماء إذ يصنعه صاحبه ليتمكن الذين أعطاهم من أن يتلقوا منه عطاء آخر دونه كل ذلك العطاء المالى أو المادى . نعى به العلم الذى علمه هؤلاء التلاميذ .

هذه الوقائع ترسم أمامنا خطوط الظاهرة الأولى في حياة أبي حنيفة . وهى قيام مدرسة كبيرة منظمة . كان ممولها وصاحبها مثلما كان أستاذها . يتحمل أعباء تلاميذها المالية مثلما يتحمل أعباء تعليمهم وتهذيبهم . ويسوى بينهم وبين ولده في الإنفاق وفي التهذيب . فى إخلاص للعلم كأنه العبادة .

جاء إليه رجل بكتاب شفاعاة ليحدثه فقال : « ما هكذا يطلب العلم . قد أخذ الله الميثاق على العلماء لبيئته للناس ولا يكتمونونه . لا يكون العالم له خواص . لكنه يعلم الناس ويريد الله بتعليمه » .

ولا يعرف التاريخ أن أبا حنيفة خلف من بعده مالا غير مارد للناس من ودائعهم . فهو العليم بأن ثروة المفكر هى الفكر . فإذا خلف المفكرون من بعدهم أفكاراً فقله أنجبوا . أما ما يخلفون من عروض وأموال فهى كسائر ما يخلف الموتى من العروض . تتناهى فى النقصان قدر ما تتناهى فى التداول والتعامل . وأما الفكرة فهى النور تتناهى فى الانتشار كلما تداولتها الأنفس . وتتناهى فى الازدهار كلما أرهقها الأذى . فلا على صاحب الفكر

إذا هو أغنى الدنيا من بعده وأفقر أولاده ، فالدنيا كلها ولد له . ولو رحت تسأل ماذا ترك الأنبياء لأولادهم من المال ، فقد أجاب عليه الصلاة والسلام بأنهم معاشر الأنبياء لا يورثون . وأن ما يتركونه صدقة للعالمين ، فإذا سألت عن تجيء مراتبهم بعد هؤلاء من الملوك والقادة والمفكرين شعرت بالشذوذ في السؤال .

إنما يبقى الفكر ، ويبقى الذكر ، والفكر والذكر لا يفنيان كما يفنى المال ويزول . وإن حفل بالمال جيل فلن تحفل به الأجيال الأخرى . إلا كما حفلت بالملايين وملايين الملايين من الناس بعد إذ تطبق عليهم أجفان الثرى ، إنما الفكرة شيء إلهي فمهي كائن حتى لا يموت . وهي الجوهر الحر الذي يورث . ويدفع الضريبة عنه الموقى والأحياء على السواء - ولا يخلد المفكر إلا فكرته ومن اعتنقها من الأشياع والأتباع . ولهذا كان تلاميذ أبي حنيفة قطعاً من نفسه . ربط بينها وبينهم كما ربط بينها وبين أستاذه في شجرة النسب العلى يذكرهم مع أصوله وأستاذه كلما مثل بين يدي ربه . قال : « ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدي وإني لأستغفر لمن تعلمت عليه علماً . ومن علمته علماً » .

قال له صاحبه وقد رأى بيته عريان إلا من البواري . وهو هو الذي يوزع الدنانير آناً مؤلفة . وتعرض عليه أسباب المجد فيصدف عنها . قال صاحبه : لك عيال . قال : الله تعالى للعيال . . وإنما قوتى أنا في الشهر درهمان . . ثم قرأ : (وفي السماء رزقكم وما توعدون) .

أما الظاهرة الثانية فهي أن الرجل الكبير يعنى . أول ما يعنى . بأن يبنى الرجال الكبار . ومن الزعماء من يؤثرون أن يخلفوا الرجال على أن يؤلفوا الكتب . وفي تاريخ الحقبة الحديثة خلد جمال الدين الأفغانى بغير مؤلفاته . وبتلاميذ سما إلى أرفع ذرى المجد في ميادين الكفاح كالسيد عبد الرحمن الكواكبي . كما كان محمد عبده في الإصلاح الدينى . وسعد زغلول في الإصلاح السياسى . وإبراهيم الهلباوى في المحاماة . مع قليل من الرجال والمؤلفات . هي السجل الذين حصر

التاريخ فيه تركة الزعيم الفكري العظيم الوارد من الأفغان أو من إيران ، ورود آباء الإمام الأعظم .

ولأن بنى الرجل الكبير رجلاً كبيراً خيراً على الوجود البشرى من كل آثاره ، فكيف إذا بنى رجلاً كبيراً عظماً .

فلعل النفس الإنسانية خيراً ما عبرت به يد القدرة الإلهية عن الله سبحانه : والرجل الصالح بنى الممالك ويقوم المذاهب ويشرع الشرائع ويبني الرجال من جديد .

إن من الرجال من كان أجدى على الإنسانية من إحدى القارات الخمس .

لقد كان أبو حنيفة ملهماً عندما احتضن أبا يوسف ومحمداً وزفر والحسن وباقي الجماعة وورثهم من نفسه وعلمه ما ورثهم ، في جهد يومي متصل ، يهدف إلى غاية كبرى ، تتجمع عندها أهداف كل يوم ، وكل تصرف ، كما تتجمع الفروع وتتلاقى الينابيع في النهر الجاري ، فيربو الوشل ، وتصبح الحفونات من الماء فيضاناً زانحاً كالسيل العرم ، تزحم البحر وتعان وجودها في أجلى مجاله !

بهذا استطاع الرجل المفرد أن يصبح أمة وحده ، وأن يجعل من الضعف الإنساني قوة عارمة ، ومن العمل الفردي عمل فيلق ، ومن الجهد اليومي جهد زمان ، وبهذا أحدثت الضجة الفردية طينياً في سمع التاريخ وأنغاماً في فم الزمان .

بهذا بلغت مدرسة أبي حنيفة أوجها ومهدت لها الدولة الجديدة ، فإذا بالمدرسة تخرج الحكام الكبار باسم القضاة ، فيضعون أيديهم على مصابير التشريع الإسلامي في شتى بقاع الدولة . وغدت الأسماء التي تلونها قبل ، يتحلق أصحابها حول الشيخ ، سجلاً بأسماء القضاة الكبار والفقهاء الفحول . وبدأت حركة التدوين على طراز الإنتاج الضخم الذي بدأه محمد في كتبه وجري على غراره الحسن بن زياد ومن تبعهما فأذاعوا فضل المدرسة في الزمان كله ، وإذا بالمدرسة تخرج نساءً وزهاداً إلى جوار الحكام . فربط التلاميذ كالأستاذ بين العلم والدين والدنيا ، وأكدوا للناس أن الفقه يهب سعادة الدارين لمن يشاء . ويا لها من يد على العلم : أن يتخذ سبيلاً إلى السعادة في الدنيا ، لا تبثلاً محضاً أو رهبانية خالصة ! وبهذا أقبل الناس

على ارتياده في سبيل الله . ومن أجل الحياة ، مدفوعين بالدافع الرباني والدافع الإنساني معاً .

استمرت المدرسة بعد وفاة المدرس . فتولاها تلميذان كانا من الدولة الإسلامية في أزهى عصورها حضارة . أعظم رجالها جدارة . نعى بهما أبا يوسف ومحمد بن الحسن . وتبعهما بقية الرهط وتلاميذهم . فأضحوا في عين الدولة وأعين الناس . اتجاهاً فكرياً جديداً هو الاتجاه المفرد الجدير بالإسلام .

* * *

كأن العناية الإلهية قد كشفت لأبي حنيفة القناع عن وجه المستقبل حين استشار أبا يوسف في قبول وظيفة القضاء ونصحه أبو يوسف بالقبول فقال له أبو حنيفة : « لكأني بك قاضياً ! وهي النبوة التي قال عنها الرشيد فيما بعد : « لعمرى إن العلم يرفع دنيا وديناً » وترحم على أبي حنيفة ثم قال : « كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسه » .

كان أبو يوسف في السابعة والثلاثين عندما توفي أستاذه كما كان أرسطو في السابعة والثلاثين إذ مات أفلاطون . ولم يرأس أبو يوسف الحامقة كما لم يرأس أرسطو مدرسة أفلاطون . وإذا كان الغضب قد ملك أرسطو لذلك . فإن رياسة زفر للحلقة بعد أبي حنيفة لم تغضب أبا يوسف . لما كان عليه زفر من العبادة والورع والتكريم في حلقة أبي حنيفة .

تولى أبو يوسف القضاء للخلفاء الثلاثة المهدي والهادي والرشيد . وبلغ مجده أوجه في عهد الرشيد إذ نقلت له عن النظام الفارسي وظيفة قاضي القضاة أو عالم العلماء (موبدان موبد) . كان هو الذي يوصي الخليفة بتعيين القضاة في شتى أرجاء الدولة . وكان يؤاكلة ويحجج معه - عدلا له على بعير - ويؤمه ويعلمه . ويدخل عليه راكباً بغلته فيستقبله الرشيد بالنشيد « جاءت به معتجرا ببرده » وكانت تتقدم به المنزلة كلما تقدم به العمر .

كان معه كأرسطو مع الإسكندر . تلميذين في عمر الورود لأستاذين في خريف العمر . كتب له في كتاب الحراج يقول : « وقد كتبت لك ما أمرت وشرحت لك وبينته فتنفقه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه . فإني قد اجتهدت

لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحاً : . . . »

وبلغ من الثراء أن قدرت تركته بمليونين . وصلى عليه الرشيد عندما مات وأمر بدفنه في مقابر قريش حيث دفن من بعده ولده الأمين ثم زبيدة أم الأمين .

كان أبو يوسف من صغر جسمه يكاد يغرق في فراشه : سمعه سامع فقال : لو شاء الله أن يجعل العلم في جوف طير لفل ! لكنه كان يحفظ خمسين أو ستين حديثاً في السماع الواحد ثم يقوم فيمليها على الناس ! . . .

أتيح لفته أبي حنيفة على يد أبي يوسف ما يتاح للمذاهب السياسية أو الاجتماعية أو العلمية من النجاح إذ يهيء لها القدر رجالات في دست الأحكام . وهي ظاهرة تولاها المؤلفون الغربيون في السنوات الأخيرة بالعرض المستفيض . وبهذا جعل أبو يوسف من فقه أستاذه فقهياً رسمياً بالقضاء وبالافتاء . وبالتدوين ، وخاصة بتعيين أتباعه في كراسي القضاء : حتى صار الناس في بغداد يسمون مذهب أبي حنيفة (بمذهب السلطان) فظهر المذهب فيها بعد وفاة أبي حنيفة على المذاهب كافة . وعظمت تلك القوة - كما عبر أحد خصوم أبي حنيفة - (لأن العلم والسلطنة حصلا معاً) :

أو كما قال ابن حزم : مذهبنا انتشر في بداية أمره بالرياسة والسلطان . الحنفى بالعراق والمالكي بالأندلس .

أتاح أبو يوسف لفته الحنفى لقاحاً جدد شبابه وأكسبه المناعة . هو اللقاح العملى الذى يتجاوب مع أطوار الحياة ، بما علمه من اتصاله بالخلفاء الثلاثة . وبفقهاء الأمصار ، وبعد أن قطعت الدولة أكبر أشواطها في الحضارة . وفرض أبو يوسف سلطانه في كل مكان حتى إنه ليجعل ابنه يوسف قاضياً على الجانب الغربى من بغداد وإماماً للحجيج عندما حج الرشيد . وفى صحبته أبو يوسف .

كان شريك خصم أبي حنيفة يحج في نفس العام وسأل عمن يصى بالناس ، فقالوا له يوسف بن أبي يوسف قال : الآن طاب الموت !

بل فرض سلطانه على الرشيد نفسه ويا له من سلطان على صاحب السلطان !

كان إذا حزبت الأمور فزعوا إليه فلا تقف أمامه المشكلات أو المستحيلات .
 زعموا أن زبيدة غاضبت هارون الرشيد - فحلف الرشيد يمينا بالطلاق
 ألا تبيت ليلتها في بلد يدخل في ولايته . فلما سكت عنه الغضب فعل الهوى
 أفاعيله في نفسه ، والتاريخ يذكر مبالغ ما شغفته حباً وشغفها . فأظلمت الدنيا
 في عينيه ، والضلام في عين الرشيد هو العمى في أعين البلاط : ! فاشتد
 الخطب وفدح الأمر . وكلما مالت الشمس في الأفق . ودنت حمرة الشفق ،
 سرت في أنباء القصر رعدة الفرق ، وزاغت الأبصار وبلغت الثاوب الحناجر .
 ودارت أعين الخاشية كالذي يغشى عليه من الموت وتصابحوا ألا أين نصر
 الله ؟ . . :

ألا إن نصر الله قريب . إن فقيه البلاط بن رجال البلاط ! يا أبا يوسف
 أفتنا في أمير المؤمنين وزوج أمير المؤمنين !
 فليات أبو يوسف بالحوارق . قال . . فلتبت زوج أمير المؤمنين بالمسجد
 فإنه لا ولاية لك يا أمير المؤمنين على المسجد . .

والله سبحانه وتعالى يقول : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) :
 ولما حج مع الرشيد أشار عليه أن يتقدم لإمامة المسلمين فصلى الرشيد
 ركعتين وسلم . ونادى أبو يوسف : يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإن أمير
 المؤمنين مسافر ونحن قوم سفر . فنادى رجل من أهله مكة : يا أبا يوسف
 نحن أعلم منك ومن علمك ! فأجاب أبو يوسف : « لو كنت أعلم لما تكلمت
 في صلاتك ! » .

كانت هذه وحدها كافية لتبتهت الرجل . لكنه استمر يقول : نحن مهبط
 الوحي وجبلنا جبل الرحمة ومنزل الحكم والعلوم والبركات من السماء . قال أبو
 يوسف : « ولكن ما استقرت على جبلكم بل سالت إلينا في الشباب والأودية
 فاستقرت عندنا : كذلك فعل المطر » .

وسيطر صاحب الخليفة على الموقف في حضرة الخليفة : !

أفلم يكن الرشيد على حق إذ يقول : « هاتوا لي مثله » !
 ، خصم إليه أمير المؤمنين الهادي في بستان وكان ظاهر الأمر أن البستان له ،
 لكن الحق كان لخصمه ، قال الهادي لأبي يوسف : ما صنعت في الأمر
 الذي نتنازع إليك فيه ؟

قال أبو يوسف : خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن
 شهوده على حق ، قال الهادي : وتري ذلك ؟ قال كان ابن أبي ليلى يراه :
 قال الخليفة أرد البستان عليه . . . !

لكنه إذ يحتال ليرد الهادي بستان الرجل إليه لا يحتال من أجل من دونه :
 شهد الفضل بن الربيع وزير الخليفة عنده يوماً فرد شهادته فعاتبه الخليفة
 قائلاً : لم رددت شهادته ؟ قال : سمعته يقول أنا عبدك ، فإن كان ، صادقاً
 فلا شهادة للعبد . وإن كان كاذباً لكذلك .

بل إنه ليحلف الرشيد في قضية رأى أن يحلف فيها الرشيد ! مع ما كان
 من تسامى السروات ووجوه الدولة عن توجيه الحصومات إليهم :

جلس الهادي يوماً للمظالم وبجواره عمارة بن حمزة ، فوثب رجل وتظلم من
 عمارة في شأن ضيعة معروفة بالكوفة ثمنها مليون درهم - ادعى أنه غصبها منه :
 قال الخليفة لعمارة ما تقول فيما ادعاه الرجل ؟ قال : إن كانت الضيعة لي فهي
 له ، وإن كانت له فهي له ! ووثب وانصرف !!

وقالوا : كتبت أم جعفر إلى أبي يوسف تقول ما ترى في كذا ؟ وأحب
 الأشياء إلى أن يكون الحق فيه كذا . فأفتاها بما صادق هواها ، فبعثت إليه
 بحق فيه فضة ، فيه حقاق مطبقات ، في كل واحدة منها لون من الطيب . وبي
 جام دراهم وسطها جام فيه دنانير : فقال له جلساؤه : قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : « من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها » ، قال أبو يوسف :
 « ذاك حين كانت هدايا الناس التمر واللبن » :

ولو جاءت الهدايا أبا حنيفة لتخرج عن قبولها أو لكافأ المهدي بأضعافها :

وفي سنة ١٨٣ مات أبو يوسف وسمعه السامع يوم مات يقول : « اللهم إنك تعلم أنني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمداً ، وقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم . كلما أشكل على جعلت أبا حنيفة بيني وبينك ، وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه » وعرف الناس وصيته ١٠٠.٠٠٠ مائة ألف لأهل مكة . و ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف لأهل المدينة . و ١٠٠.٠٠٠ لأهل بغداد و ١٠٠,٠٠٠ للبلد الذي جعل صبي القصار أستاذاً للرشيد يهب مئات الآلاف ! نعى به الكوفة .

أما محمد بن الحسن الشيباني فلم يكن من الخلفاء كأبي يوسف ومع أنه تتلمذ على أبي يوسف بعد وفاة أستاذهما . فقد كانت بينه وبينه وحشة في آخر أيام أبي يوسف حتى وفاته . ولقضاء الرقة للرشيد ثم عزل ثم عاد الرشيد فاستقصاه واستقصاه .

توفر محمد على التدوين فجمع فقه أبي حنيفة وأبي يوسف وفقهه هو في كتب هي السجل التاريخي للمذهب . أما الكتب المنسوبة إلى أبي حنيفة « العالم والمتعلم » وكتابه لعثمان البتي عن الإرجاء « والفقهاء الأكبر » ووصية أبي حنيفة إن صحت ، فهي تدور حول العقيدة .

أما كتب أبي يوسف فقد قيل إنها بلغت أربعين كتاباً لم يصل أكثرها إلينا . وبحسبه شاهداً على عبقرينه كتابه « الخراج » الذي كتبه للرشيد يبصره بالحكم جواباً لطلبه .

وأما كتب محمد فهي المعروفة بظواهر الرواية « السير الكبير والسير الصغير » في فقه الحرب « والجامع الكبير » وهو في التفسير والأصول « والجامع الصغير » ، وفيه نحو ١٥٣٢ مسألة ، والمبسوط أو « الأصل » وسمى كذلك لسبقه الكتب الأخرى في التصنيف والزيادات وزيادات الزيادات والكيسانيات والرد على أهل المدينة « وهو كتاب رواه الشافعي » وقد قرئ أكثرها على أبي يوسف :

وإذا كان الفقه الحنفي قد دان به الثلثان من أهل الإسلام ، وغمر العراق وفارس والهند والصين وتركيا وشرقي أوروبا وبقاعاً من روسيا وأصبح مذهباً رسمياً

في مصر ، أو كانت نهضة التدوين وتبويب الموسوعات قد دبت فيها الحياة ، فإن لهذه الكتب الصغرى في عددها تلك اليد الكبرى في آثارها .

إن المبسوط وحده يقع في ستة أجزاء كل جزء ٥٠٠ صفحة من ذوات القطع الكبير : ! كان الفقه بحاجة إلى الصون فحماه محمد بذلك السور المنيع الذي تتألف حجارته من اختلاط أحرف الهجاء بالورق :

كان عمل أبي يوسف لخدمة الفقه بالوظيفة لازماً للفقه عند النشأة الأولى ليأتمم العلم مع العصر ، ومع الواقع . ولتحمله إلى الدنيا اليد السحرية المسماة بيد السلطان ، وأما عمل محمد فكان لازماً ليوجه الفقه في طريق الخلود فتراه العصور جميعاً .

ولما عين محمد في القضاء شاء زميله وأستاذه « قاضي القضاة » أن يكون في الرقة بعيداً عن بغداد ، فأدناه من الخلود من حيث أقصاه عن السلطان . إذ هياً له نجاة من زحمة العاصمة ولحاجة الحكام ، فتفرغ للعلم حتى عهد في أعماله الشخصية إلى وكيل ليضطلع هو بأمانة التأليف ، وكان يحيل أهله على الوكيل ويقول : « لا تسألوني عن حاجة من الحوائج فإن فيها شغل قلبي وخذوا ما بدالكم عن وكيلي فإنه أفرغ لقلبي » .

ومن قبل محمد شغل ابن شهاب الزهري بجمع الأحاديث عن أهله حتى قالت زوجته عن مؤلفاته : « هذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر » .

رحل محمد إلى المدينة في حكم المهدي (سنة ١٥٨ إلى سنة ١٦٩) ليستقى العلم من مالك بن أنس وروى عنه « الموطأ » وتعتبر روايته للموطأ من أجود رواياته . واختلط بالكسائي في عهد الرشيد فعلمه الكسائي اللغة وعلم الكسائي الفقه :

قالوا : جلس الكسائي يوماً يداعب الرشيد فدخل عليهما قاضي القضاة فقال للرشيد هذا الكوفي قد استفرغك وغلب عليك : فقال الرشيد : يا أبا يوسف إنه ليأتيني بأشياء يشتمل عليها قلبي : لكن جواب الرشيد عن الكسائي لا يشفيه ، ولا يكفيه ، فأقبل على أبي يوسف يقول : يا أبا يوسف هل لك

فی مسألة ؟ فقال : « نحو أم فقه » ؟ فقال : بل فقه ! فضحك الرشيد حتى فحص برجله وقال للكسائي : تلقى على أبي يوسف فقهاً !! قال الكسائي : نعم : يا أبا يوسف ما تقول لرجل قال لامرأته أنت طالق أن فتحت الدار (وفتح الهمزة في أن) قال أبو يوسف إذا دخلت طلقت : قال أخطأت يا أبا يوسف فضحك الرشيد وتساءل كيف الصواب ؟ قال : الكسائي : إن قال أن وجب الفعل ووقع الطلاق وإن قال إن فلم يجب ولم يقع الطلاق !

قالوا : فكان أبو يوسف بعدها لا يدع أن يأتي الكسائي إلى الرشيد . ولما حشر الشافعي إلى الرشيد لمحاكمته بتهمة التشيع عمل محمد في إنقاذه : وتوثقت بينهما عرى الود فبهر لبه :

وقف رجل على الشافعي فسأله عن مسألة فأجابه فقال له الرجل يا أبا عبد الله خالفك الفقهاء قال : « وهل رأيت فقيهاً قط إلا أن تكون رأيت محمد ابن الحسن ! فإنه كان يملأ العين والقلب : وما رأيت مبدنا قط أذكى من محمد بن الحسن) وقال فيه : « كان محمد إذا أخذ في المسألة كأنه قرآن ينزل . لا يقدم حرفاً ولا يؤخر » وقال : « ليس لأحد على منة في العلم ما لمحمد على » . وكان يجيئه وقد ركب محمد فيرجع محمد إلى منزله ويخلو به إلى آخر الليل .

قرأ الشافعي كتب محمد ، بل حمل منها وقربيعر كما قال . فتعلم منها فقه أبي حنيفة وفقه الأقدمين . فها هو ذا محمد تلميذ أبي حنيفة ينهل من مالك وينهل منه الشافعي الذي علم ابن حنبل ، فتتلاقى عنده المذاهب الفقهية الأربعة . ويررى علومه فيرتوى منها الأئمة والمتفهمة والناس جميعاً .

روى الملك عيسى بن الملك العادل الأيوبي أن عالماً يهودياً كان بالبصرة . فطلب كتاب الجامع الكبير لمحمد ، فلما وقف عليه قال : من بحث عن دينه مثل هذا ودقق هذه المسائل ثم لم يدعها لنفسه وإنما نسبها لنبي أشهد أنه على حق . فأسلم .

قول الملك : إن هذا يعد من بركات محمد رحمه الله بما صنعه . ومسائله معروفة . فإن من أراد أن يقرأه ويفهمه يحتاج أن يكون عالماً بارعاً بستة علوم : أولها الكتاب

العزیز ، والآثار والفقہ والنحو واللغة والحساب ، ومن لم یکن مجیداً لهذه العاوم لم یعرفه إلا تقلیداً .

أقبل الرشید يوماً علی جماعة فیهم محمد بن الحسن فقاموا إلا محمداً ، ومضى الرشید لطیته ثم جاء الآذن یقول : محمد بن الحسن . فوجبت القلوب ، فاما کان بین یدیه سأله لماذا انفرد بالجلوس عندما قدم علیهم فقال : « کرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها . إنك أهلتني للعلم فکرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه ، وإن ابن عمك صلی الله علیه وسلم قال : (من أحب أن يتمثل له الرجال قیاماً فلیتبعوا متبعه من النار) وإنه إنما أراد بذلك العلماء . . . » قال الرشید صدقت یا محمد .

اعتقد محمد أن العالم لا یقف للخليفة ویالها من عقيدة ! لكن الأسمى من العقيدة هو العمل بها ولا سيما فی حضرة الرشید وضد الرشید . . . وعلى أعین الناس . ومن حقه أن یقف الناس له ولو كانوا هم العلماء . . . !

لقد کان الرشید حقیقاً بالعلم ومن حقه أن یتفعل به العلم .

بلی : کان رضی الرشید بموقف محمد كعالم ، وبعدم وقوفه كفرد من رعاياه . یعدل تماماً موقف محمد من الرشید ، کلاهما کرم العلم وكلاهما یتحق التکریم . وكان الرشید صادق الرضا عن محمد فلما علم بکتابه « السیر » بعث الأمراء - أولاده - لسماع دروسه فيه .

ولما خرج یحیی بن عبد الله العلوی علی الرشید ثم تصالحا علی (عهد) بالأمان أخذه الفضل بن یحیی البرمکی من الرشید سنة ۱۸۶ واستنزل به یحیی من معقله ، وتوشجت المودة بین یحیی والرشید زماناً حتی رفع السعاة عن یحیی ما یریب . فسیء به وضاق به ذرعاً ثم حبسه وهم به یرید قتله ، لكن العهد کان مسئولاً ، و« المسلمون عند شروطهم » كما قال الرسول علیه الصلاة والسلام ، فجاء الرشید بالعهد یقلبه لعله یجد مخرجاً ، ودعا محمداً وأقرأه العهد وسأله هل هو صحیح ؟ فأجاب محمد : صحیح . وراح الرشید یجادله وهو لا یتحول !

بل قال محمد : ما تصنع بالأمان ، لو کان محارباً ثم ولی کان آمناً !

وطلب الرشيد فتيهاً آخر هو أبو البختری فقراً الرجل العهد ، وأفتى بنقض العهد ، بل أقبل يعدد وجوه النقض ، وكانت نهاية فتواه ، وإن شئت فقل غاية فتواه ، أن صدر نطق الرشيد : بلى وأنت قاضي القضاة !

ذلك أبو البختری الذي اختصه ابن حنبل بوصف أنه « كذاب » .

رأى الرشيد وهو يطير الحمام فقال الرشيد : هل تحفظ في هذا شيئاً ؟ قال :

حدثني . . عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطير الحمام . . !

وقف محمد هنا في وجه الخليفة لأنه ليس ممن ينقض العهد . . !

ولم يقف هناك إذ جاء الخليفة لأنه يحمل كرامة العلماء . . وهناك رضى الرشيد

لأنه أثر كرامة العلم على مظاهر الدنيا . وهنا لم يرض لأن مصالحة الدولة كانت

ضد العلم وضد العهد . وكان هارون صاحب دولة ، فرأى من أجل دولته ما رأى .

صنع الرشيد ذلك مع أنه كان يبعث إلى ولاته يأمرهم بتقوى الله وبالرجوع إلى

الفقهاء . وكان إنفاقه على العلماء إغداقاً . يعهد بأولاده إليهم ، بل كان يخدمهم .

وفد عليه أبو معاوية الضرير وجرى بالطعام فأكل بين يديه . صب الرشيد الماء على يديه

حتى غسلهما . وقال : أتدرى من يصب الماء عليك ؟ قال : لا . قال : أمير

المؤمنين . قال أبو معاوية : « أكرمك الله كما أكرمت العلم ورفع درجتك يا أمير

المؤمنين في الآخرة » .

وفي سنة ۱۸۹ مات محمد بالري وهو في صحبة الرشيد ومات معه صديقه

الكسائي في نفس الرحلة . ولما دفنا قال الرشيد : « دفنت اليوم اللغة والفقه » .

هذان هما أبو يوسف ومحمد صاحباً أبي حنيفة يجرى اسمهما في التاريخ على

أنهما « الصاحبان » .

أما الصاحب الثالث فهو زفر بن الهذيل كان مقدماً في مجلس الإمام وبقى طيلة

عمره مشتغلاً بالعلم . ولما عرض القضاء عليه أبي فأكره على القضاء واختفى ، وهدمت

داره فخرج ، فأصلحها ثم أكره وهدمت داره ولم يقبل . ولم يخض الغمرات إلى

الدنيا فلم يتعرض إلى ما تعرض له الصاحبان « أبو يوسف ومحمد » .

كان أقيس الحنفية ، وكان أكبر التلاميذ سنًا فرأس الحلقة لما هوى النجم ولما مات في الثامنة والأربعين من عمره خلفه في رياسة الحلقة أبو يوسف .

شك رجل في طلاق زوجته فسأل شريكًا القاضي فقال : طلقها ثم راجعها .
وسأل الثوري فقال : إن كنت قد طلقتها فقد راجعتها ، ثم جاء إلى زفر فقال :
هي امرأتك حتى تتيقن من طلاقها .

ذلك بأن من الأصول التي وضعها أستاذه أن الشك لا يزيل اليقين كمن توضأ
ثم شك في الحدث فهو على وضوئه .

وعرض الرجل على أبي حنيفة هذه الأقوال فقال : أما الثوري فقد أتاك
بالورع ، وأما زفر فأتاك بعين الفقه . وأما شريك فهو كرجل . قلت : لا أدري
أصاب ثوبى بول أم لا . فقال : بل على ثوبك فاغساه !

فلم يغفر شريك ذلك وأشباهه لأبي حنيفة حتى بعد أن مات . . .

شهد النضر بن إسماعيل وحماد بن أبي حنيفة لدى شريك ، فرد شهادتهما
وراح الناس يستفسرونه عن رد شهادة النضر . فقال : لأنه يبيع الصلاة « إذ كان
إمامًا في المسجد يتقاضى في الشهر دينارين » فقال له النضر ، وأنت تبيع القضاء :
« إذ كان قاضيًا بأجر » فأجابه شريك فإذا شهدت عندك فلا تقبل شهادتي ! !

وجمع حماد جماعة وأتوا شريكًا فلما بصر بهم قال : وراءك يا حماد . . .
لست كالنضر . أنت وأبوك تزعمان أن إيمان شر أهل الأرض كإيمان خير أهل
السماء . . .

كان زفر يغربل الأحاديث غربلة . ويأتى بالدليل من غير حمشو فإذا ناظر
أبا يوسف فكأنه يأخذ بحلقومه . كان يناظره مرة وهو مستند إلى أسطوانة المسجد
منتصبًا وكان أبو يوسف كثير الحركة أما هو فكان لا يتحرك بل يقول : هذه أبواب
كثيرة اركض في أيها شئت . وانتهى الأمر بأبي يوسف إلى أن جلس بين يديه .

ولما تزوج دعا أبا حنيفة إلى عرسه ، والتمس منه أن يخطب فقال عنه الإمام
الأعظم : « هذا الإمام من أئمة المسلمين في حربه وشرفه وعلمه » .

وفي سنة ١٥٨ كان أسبق زملائه إلى لقاء إمامهم في الرفيق الأعلى .

أما الحسن بن زياد اللؤلؤي فقد تتلمذ بعد وفاة الإمام علي أبي يوسف ومحمد واقتدى بمحمد فكتب : « المجرد لأبي حنيفة ، وأدب القاضي . والنهقات والفرائض والوصايا . والحصال » وعمل في القضاء . وفتحت عليه أبواب السماء برزق منهجر فأضحى - وهو الذي كان يأمره أبوه أن يكف عن مجلس أبي حنيفة ليمير بناته - أضحى له مما ليك يكسوهم مما يكسوه به نفسه .

كان يخشى الله في فتواه . أتى رجلاً فتوى تبين خطأها بعد انصرافه ولم يكن معروفاً لديه فاكترى منادياً يقول : إن الحسن أخطأ في تلك المسألة حتى عاد إليه الرجل فأعلمه بخطئه ورد الرجل إلى الحق .

وكان إذا جلس للحكم ذهب عنه التوفيق فإذا قام من مجلس القضاء عاد إلى ما كان عليه من الخنث ! ! فاستغنى من القضاء .

وفي سنة ٢٠٤ ترك الدنيا .

وأما حماد بن أبي حنيفة فقد تولى قضاء الكوفة ببغداد كانها بالبصرة ، وتخرج ابنه إسماعيل عليه وعلى أبي يوسف وعلى الحسن وتولى القضاء بالجانب الشرقي ببغداد وبالبصرة والرقعة .

وتخلى يوسف بن خالد السمطي للعبادة .

أما الأخوان مندل وحبان فقد كان لهما شأن . أشخصهما المهدي إليه من الكوفة مرة فلما دخلا عليه ناداهما : أيكما مندل - وكان أصغر وأشهر - قال مندل موجهماً نظر الخليفة : هذا حبان .

ويحيى بن زكريا مات قاضياً على المدائن للرشيد .

وتولى القاسم بن معن قضاء الكوفة بعد شريك حسبة لله بغير أجر ، ذكروا من مناقبه أنه كان أحد الذين قال لهم أبو حنيفة : أنتم مسارقا جلاء حزني . وتولى حفص بن غياث للرشيد قضاء الكوفة ثلاثة عشر عاماً بقضاء بغداد عامير

فحبس المرزبان وكيل زبيدة في دين !

كان جالساً للقضاء فجاءه رسول الخليفة يدعوه فقال : لا حتى يفرغ الخصوم .
فلما فرغوا لبي دعوته :

ولما عينه أبو يوسف في قضاء الكوفة بعث إلى أهلها يقول : يا أهل الكوفة
انشروا دفتراً لتكتبوا نوادر قضاياه .

وأما عبد الله بن المبارك فكان إماماً في الفقه وبطلاً في المعارك . كانت أمه
خوارزمية ، وأبوه تركياً ، وكان من أكثر التلاميذ رواية للأستاذ . ولما مات أمر
الرشيد وزيره بأن يأذن للناس بأن يعزوا فيه أمير المؤمنين .

وهذا أسد بن عمر البجلي : يروى عنه الإمام أحمد بن حنبل . تولى القضاء
للرشيد ببغداد وواسط . . وقيل تزوج ببنت الرشيد .

وتولى علي بن مسهر قضاء الكوفة .

وهذا داود الطائي أرفع الناس صوتاً في الحلقة . ينقطع إلى العبادة ويخرج من
الدنيا في حياته ! . . أرسلت إليه بكرة فيها عشرة آلاف درهم يستعين بها على الدهر
فأعادها لمصدرها ، وردّها المرسل مع بكرة تماثلها وغلّامين قال لهما : إن قبل
البدرتين فأنتما حران . فذهبا إليه قالا : إن في قبلك عتق رقابنا . قال : إني أخاف
أن يكون في قبولها وهق رقبتى في النار . رداها إليه وقولا له يردّها علي من أخذها
منه أولى من أن يعطيني أنا

أولئك تلاميذ من تلاميذه الذين تحدث عنهم بما رواه حفيده إسماعيل بن
حماد : « أصحابنا ستة وثلاثون رجلاً . ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وفيهم
سنة يصلحون للفتوى ، وفيهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى وأشار
إلى أبي يوسف وزفر » .

كم بذل الفقهاء للترجيح بين أقوالهم المختلفة في مذهبهم ! وفي سبيل وضع نظام
الأسبقية ضاع جهد كثير فقيل وقيل :

وقيل بالتخير في فتواه إن خالف الإمام صاحبه

وقيل من دليبه أقوى رجح
وذا لمفت ذى اجتهاد الأصح

هؤلاء هم أصحاب أبي حنيفة وتلاميذه . جاءوا إلى الحلقة غفلا مغمورين .
منهم الحفافة والعرافة : ليصيروا من بعد قضاة وقضاة للقضاة . بل عمداً للفقہ
الإسلامي ، ملاً أفئدتهم يقين الرسالة التي نقلها إليهم الأستاذ العظيم فأضحى
ما حملوه منها عنصراً أساسياً في نهضة الدولة وصلاح الدنيا . بما فيه من طابع
عملي وعمق فكري . حتى قال عنهم عمرو بن بحر الجاحظ بعد قرن من الزمان وهو
يتحدث عن اعتزاز المتعلمين بالعلم : « . قال عمر : تفقهوا قبل أن تسودوا . وقد تجد الرجل
يطالب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً وهو لا يعد فقيهاً ولا يجعل
قاضيّاً وما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار
سنة أو سنتين ، حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال . وبالحرى ألا يمر عليه من
الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان . . . »
كانوا كأطيار الفجر يبشرون بالنور الذي سيجيء . . يدركون وهم بخفاء
أستاذهم أنهم ارتفعوا عن مستوى الناس ، ويجسّون وهم معه ما نخسه نحن الآن معهم
وما كان يستشعره (ميشيل أنجلو) عندما كان يقرأ هومبروس فيقول : « كلما قرأت
هومبروس نظرت إلى نفسي لأتحقق مما إذا كنت قد ارتفعت عشرين قدماً فوق
الثرى . . ! » .

البَابُ السَّادِسُ

فِي الْعِرَاقِ

« النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ لَا فَضْلَ
لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجْمِيٍّ إِلَّا مَا الْفَضْلُ بِالتَّقْوَى »
حَدِيثُ شَرِيفٍ

وبعد فإننا لا نفهم حياة أبي حنيفة إذا لم نفهم حياة العراق وبخاصة حياة الكوفة . فالإنسان ابن آبائه وأقربائه . وأرضه وسماؤه وأشياؤه: ليست أعصابه التي يحس بها أجزاء نفسه فحسب ، ولكنه يفكر بما في حدود الزمان والمكان من ماضٍ وحاضر حتى المستقبل . ومن قريب وبعيد حتى ما لا يرى وما لا يدرك .

إن هذه الكرة تدور بالناس وليسوا هم الذين يديرونها . . ! وما أصغر ذلك الشيء البديع المسمى بالإنسان إلى جوار تلك الأشياء الجليمة التي تسمى بالدنيا . وإن كانت من دونه ليست هي الدنيا .

ذو قرن الفتنة بين المسلمين قبل أن يوارى الرسول في التراب . وتزاحم الأنصار والمهاجرون على الخلافة ، وتولى أبو بكر فعمرو فعثمان ثم بايع الناس عايمًا . وانداع لهيب الحرب الأهلية بينه ومعه أهل الكوفة وبين طاحنة والزبير ومعهما أدل البصرة ، وأظفر الله عليًا في واقعة الجمل فنازلت جيوشه في صفين جناد الشام إذ رفض معاوية ومعه أهل الشام أن يبايعوه ، حتى إذا افتراه ثغر النصر رفع جيش معاوية المصاحف محكمًا كتاب الله ، وقبل على التحكيم فخذله الحكمان ، وخرج عليه من جنوده طائفة سميت بالخواارج تسائله : « لم حكمت فيما هو حق لك ؟ » وهزمهم بالنهروان . وفيما هو يتجهز لحرب معاوية نجحت مؤامرة الخوارج فيه فقتلوه غيلة . وأخذت المؤامرة في عمرو ومعاوية . واستتب الأمر لمعاوية فأخذ البيعة لولده يزيد بالعيف فرق أعناق الزعماء « الحسين بن علي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر » ودعا الوفود ليتكلموا فتقدم يزيد بن المقفع فألقى خطبة الخطب . قال :

أمير المؤمنين هذا . وأشار إلى معاوية .
ثم قال : فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد .
ثم قال : فمن أبي فهذا وأشار إلى السيف .
قال معاوية : اجلس فإنك سيد الخطباء .

ولقد كان الرجل بحق سيد خطبائه . فتلك لغة السيف ، والسيف أصدق أنباء .
ولما تولى يزيد ثارت المدينة فأسكت جند الشام صوتها بالرماح ، وبعثت الشيعة
(أنصار علي بن أبي طالب) من أهل الكوفة إلى الحسين يبايعونه فسار إليهم مع
أهله ، فقتل هو ، وإخوته . وأبناء عمه في كربلاء .

وفي سنة ٦٤ سارت جنود الشام إلى مكة تقابل عبد الله بن الزبير . إذ بايعه
أهل الحجاز ومصر والعراق واليمن ، أما الشام فتولى عليها مروان بن الحكم ثم ابنه
عبد الملك بن مروان . وولى عبد الله بن الزبير على الكوفة المختار بن عبيد ثم عزله بأخيه
مصعب بن الزبير . ودعا المختار بن عبيد بالكوفة للعلويين (لمحمد بن الحنفية أخ
الحسين) فقتل . وسار عبد الملك بن مروان بجيشه إلى العراق ومعه الحجاج بن
يوسف الثقفي ، فما هو إلا أن التفتوا فحولت جموع الكوفة برءوسها ومالت إلى عبد
الملك ، وقتل مصعب بن الزبير وقدمت رأسه هدية لعبد الملك !

وتولى الحجاج على العراق بعد قتله عبد الله بن الزبير بمكة فأخذ يبرى الرقاب
حتى سالت الدماء إلى أبواب المسجد والمسكن . وخرج عليه ابن الأشعث ومعه
العلماء ، ومنهم الشعبي فقيه الكوفة . وسعيد بن جبير فقيه البصرة . وعبد الرحمن
ابن أبي ليلى . وتزاحف الجمعان في محير الجماجم . وانتصر الحجاج فدخل الكوفة
وأدار وجهه يحاسب العلماء . فعنما عن عنما عنه كاشعبي وأهدر دم من أهدر دمه
كأبن جبير فضرب عنقه .

وآلت الخلافة بعد عبد الملك إلى ابنه الوليد فكان ميسون الطائر بما وسع من
رقعة الإسلام في أفريقية .

وفي سنة ٨٥ فتحت جزائر البحر الأبيض . وفي سنة ٨٩ فتحت صقلية وفي سنة
٩٢ خفقت أعلام الإسلام على سواحل الأطلس في الأندلس . ووقف موسى بن
نصير في ربوعها يفكر في فتح أوربة . فأشاروا عليه بالتلبث : فكث يقول : أما
والله لو انقادوا إلى لقتهم إلى رومية !

وفي الشرق بلغت كتائب المسلمين الصين .

وفي ولاية هشام بن عبد الملك ثار زيد بن علي بن الحسين فقتل . وفي سنة ١٢٥ خرج ولده يحيى بن زيد فقتل في خراسان .

وفي سنة ١٢٧ خرج الضحاک بن قيس على رأس الخوارج فاستولى على الكوفة وثارث الثائرة بين بني أمية وانتهت بتولية مروان بن محمد سنة ١٢٧ . فلم يكذب يوزم الضحاک حتى ثار عليه أبو مسلم في خراسان ودخل مروان سنة ١٣٠ ونيسابور سنة ١٣١ . وجاء رسله إلى الكوفة فولوا أبا العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس سنة ١٣٢ ، وكان التيار في الكوفة يجري نحو أولاد علي بن أبي طالب فحواه أنصار العباسيين إلى بني العباس . وهرب مروان إلى مصر حيث قتل .

وفي سنة ١٣٦ تولى أبو جعفر المنصور الخلافة حتى مات سنة ١٥٨ بعد وفاة أبي حنيفة بثماني سنوات .

* * *

في هذه الصورة المتحركة عرض لأقطار العالم الإسلامي وبلدانه : أما المدينة فغنية بتاريخها عن التعريف ، وأما البصرة فقد أمر بإنشائها الفاروق عند ملتي دجلة والفرات (سنة ١٤ - ١٧) لتكون معسكراً تلتجئ إليه الجيوش من برد الشتاء ، فبنى أبو موسى الأشعري مسجدها من اللبن وسرعان ما احتدم فيها الشغب وازدهرت فيها الحضارة . وفي سنة ٣٦ وقعت في ضواحيها وقعة الحمل . وفي سنة ٥٠ بلغ من نمائها أن ناهز عدد سكانها ثمانمائة ألف .

وفي (سنة ١٧ - ١٩) أمر الفاروق سعد بن أبي وقاص بعد موثعة القادسية أن يبنى الكوفة فأقيمت في موقع صحى على الفرع الغربى للفرات لا يفصل بينه وبين المدينة جسر ولا بحر . وصارت ملتي الطرق ومفترقها بين الشرق والغرب ، وبنى سعد مسجدها في وسط المدينة وبنيت إلى جواره دار الإمارة . فلم يكذب ينتصف القرن حتى صارت أبنيتها من اللبن بعد أن كانت خياماً وأكواخاً . وعمرها أقوام من كل جنس . من شاميين ونبطيين (شمال شبه الجزيرة) وبدو وفرس ، ولم تكذب تبنى حتى سرت فيها روح الشغب فغير عمر ولايتها في السنوات الأخيرة لحكمه ثلاث مرات .

كانوا أول أنصار علي ولم تزل تتداولهم الهزاهز حتى أذاقهم الحجاج عذاب الهون نحواً من عشرين عاماً (سنة ٧٥ - ٩٥) ولم تذق الطمانينة بعد ذلك . حتى إذا

ظهر العباسيون أقام أبو العباس بالأنبار ، وأقام المنصور بالهاشمية ، مثلما أقام الحجاج من قبل بواسط ، بعيدين عن الكوفة وشغبها وشقاقها ، وهي قصبه الإقليم في عهد بنى أمية ، وفي عهد السفاح والمنصور حتى بناء بغداد .

أراد عمر أن تكون الكوفة عاصمة للعراق بدلا من المدائن ، وعمرها والبصرة بأفواج من المؤمنين الأولين من أصحاب الرسول ليشتعروا الحضارة الإسلامية العربية في الإقليم . لكن العراق صنع بالوافدين إليه وبمن أنسلوهم ما يصنع الإقليم العظيم ، فصيرهم عراقيين بعد أن كانوا عرباً وإن كانت تحمل حضارتهم وشخصيتهم الطابع المشترك الأعظم . طابع الإسلام .

شكت الكوفة منشئها وبطل العراق سعد بن أبي وقاص إلى عمر قائلة إنه لا يحسن أن يصلى ! ! وشكت البصرة أبا موسى الأشعري لأن له غلاماً ختاراً (غادراً) هو كاتبه زياد بن أبيه إذ كان له مائدة وبرذون . وعزل عمر أبا موسى وشاطره ماله . ودعا سعد على أهل الكوفة ألا يرضيهم الله عن وال ولا يرضى عنهم والياً .

وكانما تفتحت لهذا الدعاء أبواب السماء !

شكوا عمار بن ياسر الذي مات محارباً في صفين وهو في التسعين . وشكوا المغيرة ابن شعبة . وطرردوا سعيد بن العاص .

لما قدموا على عمر يشكون سعداً - قال : « من يعذرنى من أهل الكوفة - إن وليتهم التقي ضعفوه وإن وليتهم القوى فجزوه » . قال رجل : « أنا أدلك يا أمير المؤمنين على القوى الأمين » ، قال : « من هو » قال : « عبد الله بن عمر » (ابنه) قال : « تماثلك الله : فمذ اليوم لا أسميك إلا المنافق » ، وقال : « المغيرة يا أمير المؤمنين إن التقي الضعيف له تقواه وعليك ضعفه . والقوى الفاجر لك قوته وعليه فجزوه » - قال : صدقت فأنت القوى الفاجر . فاخرج إليهم » . وفي فتنة ابن الأشعث بذل رجال الشورى نصحتهم لعبد الملك بن مروان بعزل الحجاج عسى أن يصلح بال أهل العراق . لكن الحجاج كان بهم خبيراً فكتب إلى الخليفة : « والله إن أعطيت أهل العراق بزعمي لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك . ولا يزيدكم ذلك إلا جرأة عليك . ألا ترى وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفاذ

فلما سألمهم ما يريدون قالوا نزع سعيد بن العاص ولما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه؟ إن الحديد بالحديد يفلح» .

وهكذا طفق مرجل الكوفة دائم الغليان ، قرنًا وربع قرن من الزمان ، واستفحل نفوذ الخوارج بالعراق عامة فظلوا يرون خلافة الأمويين غصبًا وأمروا أمراء منهم خاصة .

أما شيعة علي فاتخذوا في الكوفة والبصرة مراكزهم الرئيسية . وما يزال لهم الآن عشرات من الملايين في العالم الإسلامي . كانوا يرون أن عليًا أحق بالخلافة من الخلفاء السابقين . ويقولون إنه وصى النبي على المسلمين . وتطورت الفكرة فصار منهم من يقول إنه معصوم ، وغلا البعض فأطوه ، وانشعبت الشيعة شيعًا وأفراقًا حاربها بنو أمية حربًا ضروسًا ، فقتلوا أولاد علي وأسباطه كل قتلة . حتى كان الأمير الأموي يقول : لأن يقال كافر أو مشرك خير من أن يقال من نسل علي !

وظلت المدينة خاصة والحجاز عامة معتزتين بأهل بيت الرسول .

وفي عام مائة كانت ظلال الأمويين آخذة في الانحسار . وشرعت الرياح تجري رخاء لسفائن الشيعة يزجيها دعاة بني العباس . فألف علي بن عباس جمعية سرية ذات شعبتين تدعو لأهل بيت النبي . وكانت الكوفة مقر إحدى الشعبتين ومقر الشيعة الثانية خراسان . فلما دخلت جيوش أبي مسلم إقليم العراق كانت الكوفة قصبه المدافعين كما كانت مخبأ الثوار .

بويح لأبي العباس بالخلافة حيث تلاقت بالكوفة الأولوية المظفرة لقراده . فأخذ يعمل في ظمأ لا يرتوي ليكون جديرًا في التاريخ باسمه (السفاح) . وراحت سيوف العباسيين تمصّد الرعوس وتقذف الجماجم ، ولما لم تروها بجار الدم شرعت تنبش القبور . بدعوا بقبر معاوية وثنوا بقبر يزيد ، وانثنوا إلى قبر عبد الملك ، فلم يجدوا ما يصنعون فيه مثله . ثم وجدوا ضالّتهم في قبر ابنه هشام . فألقى السفاح جثته لم تبل عد فصر بها بالسياط . . وصلبها . . وحرّقها . ثم ذراها في الهواء .

وفي هذه المجزرة التي ملأت الخياشيم برائحة الدم ، عبر النهر سباحة إلى أفريقية فتي يكديطر شاربه بعد ، هو عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك .

عبر البرزخ إلى أسبانيا سنة ۱۳۹ ليتمكن في اثنين وثلاثين عاماً لحضارة وضع قواعدها موسى بن نصير وطارق بن زياد . فأنشأ - على التعبير الحربي - رأس جسر حاول الشرق أن يغزو منه الغرب وأن ينقل خلال البحار ، والأجبال ، تلك المدينة التي ازدهرت في فجر التاريخ في أثينا وإسبارطة وفارس وروما وبيزنطة ، فانبعثت حركة الإحياء العلمي RENAISSANCE من مرقدتها بعد أن مرت في طريقها - كالرسالات وكالبرد المائية والهوائية - بالشرق الأدنى ودمشق والقاهرة والقيروان وما إليها .

ولقد يخيل إلى الناظر أن هذه القلائل كادت تنزف دم الأمة . لكنها في الواقع كانت اهتزازات الجسم الذي يحاول أن يستقر ، ليستمر . وامتحاناً لقرى أمة جمع فيها الدين بالحديد من كل عنصر . فثبتت على الامتحان . وكان ظهور الدولة العباسية آية على ما في ذلك الثبات من فيض القوة ووفرة الفتوة .

كان القرن الأول استجماعاً لقرى الأمة . واستعداداً لعهداها بالحديد . فقامت أدت الإمبراطورية السياسية التي وطد أركانها معاوية وخلفاؤه رسالة هي حسبها . وأن للطور الثالث من تاريخ الأمة أن يجيء وهو طور الحضارة كما سماه ابن خلدون . لم تكن هذه الهزات الدموية التي ألفتها كيان الأمة إلا كأوجاع المخاض تبشر بالوليد الموعود . لتخلد حضارة الإسلام نفسها في الوجود ، بأسلوب جديد .

وإذا كانت دولة بني أمية قد نشرت ألوية الإسلام بالغزو . فقد كان على الدولة الجديدة في وديان دجلة والفرات أو دولة الأندلس أو الدول الناشئة على ضفاف النيل وساحل البحر الأبيض . أن تنشر الحضارة الإسلامية بفتوحات الفكر . وأن تبعث بآثارها في مهاب الرياح الأربع .

فتعالوا إذن أيها المفكرون . واحداً إثر واحد . واسكبوا في تيار الحضارة الذي لا يتوقف إلا ليندفع . تلك الفيوض الدافقة من النور . وليحس كل منكم ذلك الحنين المعذب إلى الابتكار . وليكن منكم الغواصون في أعماق الحكمة والعلم . . . لقد دنت فترة انتقال وأنتم همزة الوصل . فصلوا الماضي بالحاضر . وقولوا كلمه الفكر ، إن كلمة الفكر هي العليا .

انطلقت العقول الإسلامية ظمأى تكاد تموت من الصدى . بدأت بالترجمة ، فنقلت إلى العربية من اليونانية والسريانية والفارسية والنبطية والهندية ، ولئن صح أن إسطفان وماريانوس وابن أيجر قد ذكروا العرب في أواخر أيام بني أمية بالعلم اليوناني حتى جعل عمر بن عبد العزيز ابن أيجر رئيساً للمصاححة الطبية ، وأن خالد ابن يزيد كلف البعض بنقل بعض كتب الصنعة ، أو وجد عرب يجيدون اليونانية كصالح بن عبد الرحمن وعبد الله بن عبد الملك أو سالم أحد رجال هشام بن عبد الملك ، إن هؤلاء لم يكونوا إلا طلائع الركب الضخم ، الذي بدأت على يديه رحلة العلم ، من العالم القديم إلى العالم الجديد في عهد المنصور يتقدمه جرجس بن جبرائيل وقد كان طبيباً للمنصور ولبيمارستان جنديسابور . ثم توالى الأسماء ترى : يقسطا بن لوقا وسيد النقلة روزبة (ابن المقفع) ينقل كليلة ودمنة وخذائنامة (السير) . والحسن بن سهل والبلاذري ، ينقلون من الفارسية ، ومنكة وابن دهن الهنديان ينقلان من الهندية ، وابن وحشية ينقل من النبطية كتباً في الفلاحة . وأخذ الرشيد يبعث الرسل في كل مكان ليحيثوه بالكتب ليعربوها ، وجاء المأمون بعده يصنع أكثر مما صنع . وانتقل الروح العلمي إلى وجوه الدولة وإذا ببيت كبيت بني هاشم المنجم في منتصف القرن الثالث يشجع على العلم رجالا كحنين بن إسحاق ، وحبيش بن الحسن . وثابت بن قررة ، يُدفع لهم شهرياً خمسمائة دينار للترجمة والتعريب . كما أنشأ الرشيد (بيت الحكمة) وعين فيه الفضل بن نوبخت للقسم الفارسي (الكتب الفارسية) . وابن ماسويه من جامعة جنديسابور للقسم اليوناني (الكتب اليونانية) للمحافظة على ما يترجم من كتب ونشر ما تتضمنه المترجمات من علوم . وأنفذ إلى بلاد الروم مسلماً صاحب بيت الحكمة والحجاج بن مطر وغيرهما ليجتثا عن طرائف الكتب .

وهكذا أضيف إلى ثروة الأمة التي كان ينحصر تراثها العلمي - في الجاهلية - في علم النجوم والقيافة والآداب والأنساب رعوس أموال ضخمة من الرياضة والفلك والمنطق والفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والجغرافيا والنبات والحشرات وغيرها . وتعرف العرب إلى فيثاغورس وإقليدس وجالينوس وبطليموس وأفلاطون وسقراط

وأرسطو ، وإلى النظم السياسية والإدارية . وانطاق الفكر الإسلامى فى حريرته إلى أبعد الحدود حتى ليرى بيتاً كبيت (أبى الجعد) فيه ستة إخوة . اثنان شيعيان واثنان مرجئان واثنان خارجيان .

وكما اهتم المنصور بالفلك والطب ، عنى الرشيد بالرياضيات وأواع المأمور بالمنطق والفلسفة ، وأضيفت إلى أسماء المترجمين السابقة أسماء آل بختيشوع وأبى بشر متى بن يونس ويحيى بن عدى وإسطفان بن باسىلى ينقاز من السريانية إلى العربية . وعلى بن زياد اليمنى وإسحاق بن زيد ينقلون من الفارسية . ثم انقل العلم كدورة الشمس من المشرق إلى المغرب . فظهر ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وأمثالهم ، ولم تبق الترجمة سبيلاً للعلم وحده بل أصبحت وسيلة للمعاش . فإذا بابن الهيثم يبيع فى كل عام نسخاً ثلاثاً من نسخته هى (إقليدس) و (المتوسطات) و (المحسطنى) بمائة وخمسين ديناراً يعيىش منها طول العام .

ولم تكن الأعوام المائة الأولى من تاريخ الدولة العباسية التى وصلت العرب بالعلوم الأجنبية قد بدأت بعد حين! كانت النهضة الفقهية التى يحمل أعلامها أبو حنيفة قد سجلت روائع آياتها فى جامع الكوفة ، ولم يكن المنصور قد مرض بعد فى سنة ١٤٨ مرضاً ظنه مرض الموت فاستقدم لعلاجه (جورج أو جرجس) من جامعة جنديسابور وأبل على يده فأنزله وعلماء جنديسابور أرفع المنازل فى بلاطه! ، وورث حفيده جبريل هذه المنزلة فى بلاط الرشيد حفيد أبى جعفر . وإذا كان جرجس أول من ترجم للمنصور فإن أبا حنيفة قد أنهى رسالته فى سنة ١٥٠ قبل أن يقدم جرجس تراجمه للعقول :

فالفقه الإسلامى الذى دوى صوت إمامه فى النصف الأول من القرن الثانى كان أثراً للوثبة الإسلامية الخالصة التى وثبها أبو حنيفة .

وإن المرء ليتساءل لماذا سبق الفقه فى ميدان النهضة الفكرية كل العلوم ؟ والجواب عن ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت تهتف بها غريزتها أن تخلد نفسها ، وليست سبيلها إلى ذلك التخليد عمارة أو نحتاً أو تصويراً كما

صنع الرومان والمصريون واليونان : فتلك كانت مفاخر دون مفخرة الأمة الإسلامية التي يحويها كتابها من شريعة وعميدة ، فكان طبيعياً أن تندفع مواهب الأمة الكبرى نحو أول مقومات الإسلام وهو الشريعة ، وبهذا تناهت إلى حلقة الكوفة أصوات الفقهاء السابقين والمعاصرين فرددوها بلسان الزعيم الفكري الذي قدرته العناية الإلهية لخدمة الدين ، وتلت هذه الوثبة الفكرية الوثبة السياسية التي عاصرت في تحضيرها وظهورها حياة أبي حنيفة العلمية ، وهي قيام الدولة العباسية ، ثم انبعثت تلك الذكرة التي خلدت بها الحضارة العباسية نفسها بإنشاء المدينة التي لم ير مثلها الزمان إلى ذلك الزمان (بغداد) :

ليست مصادفة تلك التي أجمعت بالعراق حلقة أبي حنيفة كالجامة في النصف الأول من القرن الثاني بالكوفة حيث كان محمد بن علي بن عبدالله بن عباس وابنه إبراهيم الإمام من بعده يمهدان للدولة الجديدة في الكوفة وفي خراسان حيث الكثرة الغالبة من الموالى والفرس :

وليست مصادفة أن يكون فقه الدولة الجديدة هو فقه مدرسة الكوفة ، وأن يعمد أبو جعفر إلى الانتفاع به في المدينة الجديدة فيكره أبا حنيفة على التعاون معه ، ويتناهى الرشيد في الإعجاب به فيكامل بالمجد همام تلاميذه :

ليست هذه كلها مصادفة ، ولاكنها رواية الزمن متصلة الحلقات والظواهر بسطرها بالوقائع ، ويترك للوقائع الكلام : وإنما يد العناية تحرك الإنسانية نحو مصابرها المحتومة : تريد لرسالة الإسلام أن تصل بين عهدي الحضارة :

كانت حضارة العصور الأولى توشك أن تكون حديثاً في التاريخ ، وتوسطت عصور الظلمات تكاد تطمس شعاع الماضي في ظلام الليل المتكاثف ، فحملت الحضارة الإسلامية إلى العصور الحديثة أنوار القرون الأولى : ولم يخفت صوت المسلمين من جامعات الأندلس عند برزخ جبل طارق في الغرب سنة ١٤٩٣ إلا بعد أن كانت دولة إسلامية كبرى قد تسلمت برزخ القسطنطينية في الشرق من نحو نصف قرن سنة ١٤٥٣ : وإذا كان فتح ، للمسلمين للقسطنطينية يؤرخ بدء عصر النهضة والإحياء RENAISSANCE

في العصور الحديثة ، فأى مجد للإسلام ذلك المجد ! وأين منه أى مجد سياسى
وفتح حربى !

هذه النصره التى نصرت بها الدولة العلم فى المائة الأولى من حكم بنى العباس ،
لم تكن لها مثابه فى العهد الذى كان أبو حنيفة يدرس العلم فيه وفيما قبله للناس .
كان السفاح وأبو جعفر فى العهد الذى عاشه أبو حنيفة فى حكميهما .
فى شغل بالحرب مع خصومهما .

فالنهضة التى نهضها أبو حنيفة نهضها وحده . ولحساب الله لا لحساب
أحد . وكانت نهضة أصيلة مقطوعة الصلات بالترجمات .

ولئن كان الطب قد استفاد مما ترجم فى عهد المنصور أو تولته أيدى
الأجانب ، أو كانت الفلسفة وغيرها قد حدثت مع ما ترجم من فلسفة أجنبية .
إن الفقه الإسلامى كان له من أصالته ونظم شريعته ومميزاتها الاجتماعية .
والاقتصادية والسياسية . وخصوبة تربته ووفرة منابعه . مافاق ألواح الرومان
الاثنى عشر ، وشرائع صولون وليكرج . فلم يلتفت إلى ألواحهم أو شرائعهم
أحد . ولم يترجم منها مادة . وبقى الفقه فى صفاء جوهره نقى الصفحة خالص
الديباجة : تجمعه العروة الوثقى فى جملته وأجزائه بأصوله الجامعة فى الكتاب
الكريم وسنة الرسول .

زعم بعض المستشرقين أن هناك « آثاراً لا تنكر Indéniable » من
تأثير الفقه الرومانى فى الفقه الإسلامى ! وهو زعم يظهر بطلانه من أول نظرة
بالنسبة لأبى حنيفة خاصة . والفقه عامة . وإذا كان لأبى حنيفة بصر
بالفارسية . أو كانت تحيط به ثقافة منحدره من المحيط الجغرافى والاجتماعى
الذى يتوارثه العراق عن فارس ، فإنه لم يظهر أثر للمترجمين أو للمترجمات
فى حياته مع اتساعها وطولها وكثرة الرحلات والاتصالات ، ولقد كان الفقه
فى حلقة وفى سائر الحاق بالمسجد الجامع إسلامياً صراحاً فى منابعه وسواقيه .
لم يأخذ عليه أحد من خصومه أو مؤرخيه أنه تأثر بشيء أجنبى أو عالج
أثراً أجنبياً .

وإذا كانت معاملات الفرس قد تأثرت بمعاملات الرومان أو اليونان عن طريق الشام : فلا أثر للفرس ولا للرومان في الشريعة : ولا يسمع القول بوجود التشابه أو التأثير إلا بعد أن تقدم الخصوصيات المتشابهة التي يستند إليها الزاعمون في الأصول والفروع ، وفي اتجاهات التشريع ، وهو مالا يسوقه إلينا القائلون بوجود هذه الآثار « التي لا تنكر » : كما لم يدلونا على القواعد المشتركة والتفاصيل المتفقة ، حتى تقبل الدعوى شكلاً ، لتناقش موضوعاً ، كما يقول رجال القانون .

وليس بسائغ أن يتلقف المؤرخ جزئية من الجزئيات ، أو شبهة أو صدفة في مظاهر التفكير ، ليقال من جرائها بتشابه الفقه في الشرائع . فكل شريعة تقوم على قواعد من أصول التفكير البشري توافق العقل : وإذا تشابه العرف في البلدين فتشابه حكمه فيهما فلا وجه للقول بتشابه الشرائع دون الالتفات لتشابه العادات :

ومن المسلم أن صلة الترجمة العلمية المؤكدة باللغة اليونانية والسريانية لم تظهر في عهد أبي جعفر أي بعد سنة ١٣٦ حين كانت مدرسة أبي حنيفة قد بلغت أوجها في مسجد الكوفة ، وكان أستاذها في أواخر عقده السادس يرأس الحلقة نحو ستة عشر عاماً :

أما الشافعي فقد ترعرع بين الشام والحجاز واليمن والمدينة ومكة . حتى إذا انتقل إلى بغداد ومصر في خاتمة القرن لم يظهر على فقهه أثر من الآثار التي ادعاه المستشرقون : والذين تتبعوه في دراساته ومقولاته يدركون كيف كانت كلها إسلامية خالصة .

فأما مالك فكانت عمده السنة وفقه المدينة :

وأما ابن حنبل ففقهه كله السنة .

وفي سنة ١٩٣٧ قرر مؤتمر لاهاي ما قرره مؤتمر واشنطن أخيراً في سنة ١٩٤٥ ، أن الشريعة الإسلامية مصدر للقانون مستقل عن مصادر اليونان والرومان :

* * *

أبو حنيفة

لم يكد المنصور يلى الخلافة حتى راح يحارب الشيعة حرباً ضروساً فى العراق وفى كل مكان ، كأنما كتب القلق على هذا الإقليم حتى ولو صارت إليه مقاليد الأمور : . وكأنما كتب عليه أن يثور حتى على ذاته !

ولكن ما لهذه الثورات تحمل الخير مع الشر !

وما لكفة الخير فيها ترى غالباً أرجح ! إنها قد تكون ثورة جهال فيظهر فيها العلم ، أو ثورة على الحق فيخرج الحق منها أبلج وضاح الجبين كالشمس بعد السحاب !! ولقد تكون ثورة دهماء فتكشف عن انتصار المعاني الرفيعة فى الحرية أو فى الدين أو الاقتصاد أو السياسة أو غير ذلك : . !

إن الهدوء ليس الاطمئنان ، والسلام الدائم ليس سلامة دائماً : . أو كما يقول الشاعر :

« وحسبك داء أن تصح وتسلما »

فلا عجب فيما يقول « هيجو » عن الثورة الفرنسية : « كان فيها من كل شىء ، من الكفر والإيمان ، ومن الجهالة والمعرفة ، ومن العدالة والظلم . ومن الفوضى والنظام ، ومن الطغيان والتسامح : ولا عجب أن تنجلي تلك المتناقضات عن تحرير أوربا ، فأنشأت الثورة إيطاليا وألمانيا ، وأطلقت الفكر الإنسانى من عقاله ، وجمعت بين الدين والتقدم : وأعلنت حقوق الإنسان ومكنت للتقدم الصناعى والاقتراع العام ومساواة المرأة بالرجل » .

فإذا رجعت إلى العراق رأت عينك مصداق ذلك : بلداً يثور قرناً من الزمان ، على نفسه حيناً وعلى غيره دائماً ، دون أن ينضب معينه ، بل إن الثورة لتقويه ، وتزكى أنفس الناس فيه . فى رقعة منبسطة من الحصب والحضارة وامتزاج العناصر . تبدأ من الجنوب الشرقى للصحراء السورية عند الحدود الفارسية إلى جبال حلوان ، من عبادان إلى الخليج الفارسى . فتشمل بلاد الأشوريين والبابليين وشبه الجزيرة مما يرويه دجلة والفرات ويتصل بسوريا وآسيا الصغرى وفارس والبحر ، حيث ترتبط فى نشاط تجارى بآسيا الوسطى وبالهند وشرق أفريقيا وشواطئ البحر الأحمر : يعمرها مع المسلمين فرس يدينون

بالزارادشتية أو بالمسيحية ، ومانويون يدينون بمزيج من الزارادشتية والهندية والمسيحية ، وحرانيون لهم عقائد خاصة ، كما تسربت الحضارة اليونانية إلى الإقليم منذ غزوات الإسكندر . وبعد أن أنشأ كسرى مدرسة جنديسابور في كوزستان استمرت المدرسة ثلثمائة عام برغم زوال ملك الفرس وقيام الحضارة الإسلامية ، فظلت تدرس الطب والفلسفة اليونانية ، وساعد رجال من سوريا في نقل أطراف من الحضارة اليونانية بدراستهم لأرسطو وكتب الطب وكتب الحساب لأبوقراط وجالينوس ودسقوريدس وإقليدس وأمثالهم ، ونقلهم مؤلفاتهم إلى السريانية . كما ساعد أهل حران على التوسط بين الحضارة اليونانية والعرب عامة لاحتفاظهم بالدين المسيحي وبالصلة ببيزنطة . وبهذا كانت مدرسة جنديسابور محط أنظار أهل حران وقساوسة شبه الجزيرة ، كما كانت القناة الفكرية التي وصلت بين العرب والحضارة اليونانية خلال فارس .

في هذه البقاع ترعرت حضارة يانعة تكتنفها ديانات متتابعة : الزارادشتية تسبق المسيحية بنحو ستة قرون : واليهودية في الشمال تسبق الزارادشتية بنحو تسعة قرون : ثم المسيحية تنزل قبل الإسلام في شمال جزيرة العرب بنحو ستة قرون أخرى : كأنما اختصت السماء بأسرارها غرب آسيا في تلك القرون العشرين :

وكان العراق محسوباً على فارس وموصولاً بها على الوجه الذي بينا ، بحكم تاريخه وموقعه وجنس سكانه وطبيعة إقليمه ، فتجمعت فيه أنحلاط من المدينيات والجنسيات والآراء لم تشهد مثلها جزيرة العرب : وأرهف حس بنيه ذلك الانفعال المستمر في حدة وعرام لم يشهدهما بلد إسلامي ، فعلم العراقيين أن الحياة كفاح مستمر ، لا يسكن إلا أن تسكن النفس سكونها الأبدى .

وإذا عاشت الجماعة في انفعال وانبعاث مستمرين برزت - كالفرد - ملكاتها إلى الوجود فاستثمرت كل ما في كيانها من قوة وفتوة .

ويمكن لتلك النزعات في نفوس أهل العراق دين يحجب الجهاد في سبيل الاعتقاد .

احتفظ العراق دائماً بشخصيته حتى إن عمر لما دون الدواوين كانت لغة ديوان العراق هي الفارسية إلى أن نقله الحجاج في سنة ۷۸ إلى العربية ، ومع ذلك ظلت الحسابات بالفارسية ، ويبقى أغلب كتاب خراسان مجوساً : أما في خراسان - وكانت تحكم من العراق - فقد كان نصر بن سيار أول من نقل الكتابة إلى العربية من الفارسية في أواخر أيام بني أمية . ولما أنشئت البصرة كان الناس يتكلمون فيها بالفارسية ، فعنيت بالنحو واللغة لحاجة الناس فيها إلى العربية : كما غدت مركز حركة علمية تجلت في علم الكلام وفي الاعتزال . على رأسها الزعيم الجسور الحسن البصري ، وقد قيل إن الحكمة التي رزقها جاءت من منذ كانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي فكانت أم سلمة تناوله ثديها إذا بكى .

ولما جاء العراق بالدولة الجديدة وأنشئت بغداد آذنت الدنيا بعهد جديد وبقى العراق جوهرة التاج ومفخرة الخلفاء ، حتى إن المأمون بعد نحو قرن من خلافة بني العباس لياهي به عجائب الكنانة !

جلس في تواضع العالم بين إخوانه العلماء - وكان يسميهم إخوته - إذ قدم إلى مصر في أول سنة ۲۱۷ وقال : لعن الله فرعون حيث يقون : أليس لي ملك مصر . فلورأى العراق وخصبها ؛ فرد سعيد بن عفير عن مصر بقوله : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا . فإن الله عز وجل قال : (ودمرنا ما كان يصنع نيرعون وقومته وما كانوا يعرشون) ، فما ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذا بقيته !!

البَابُ السَّابِعُ

فِي الكُوفَةِ

« يخرج الحديث من عندنا شبراً

فيعود في العراق ذراعاً »

ابن شهاب الزهري

اعتزت الكوفة بذاتها كما اعتزت برجالاتها : كانت لا تزال تذكر أيام جعلها أمير المؤمنين على قسبة الخلافة ، وتذكر عبد الله بن مسعود : وناهيك بابن أبي طالب وابن مسعود من رجلين ومن عالمين .

كان عمر يسأل عن مسألة فيقول : اتبعوني : فيذهب إلى عليّ : فإذا قال له عليّ : ألا أرسلت إلى ؟ قال عمر : « إني أحق بإتيانك » : ويقول له عمر وهو يستشير الصحابة : « أنت أعلمهم وأفضلهم » : بل كان عمر يتعوذ من معضلة ليس أبو حسن لها (علي) :

وكان ابن مسعود أقرب الناس هدياً ودلاً وسمتاً برسول الله : كان له مصحف من جمعه تعصب له أهل الكوفة لا يقبلون مصحفاً دونه حتى ذاع المصحف العثماني :

ولما قدم أهل الكوفة على عمر فأجازهم وفضل أهل الشام عليهم قالوا : يا أمير المؤمنين تفضل أهل الشام علينا ؟ قال : « يأهل الكوفة : أجزعتم أن فضلت عليكم أهل الشام : وقد آثرتكم بابن أم عبد (ابن مسعود) » : ولما قدم عليّ الكوفة قالوا عن ابن مسعود ما رأينا أحسن منه خلقاً ولا أرق منه ولا أحسن مجالسة ولا أشد ورعاً : قال عليّ « ناشدتكم الله : إنه الصدق من قلوبكم » ؟ قالوا : « نعم » : قال : « : « أشهدك اللهم أني أقول فيه مثل ما قالوا وأفضل ، قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه : فقيه الدنيا عالم في السنة » :

وترسم خطي ابن مسعود فحول يتصدرهم علقمة النخعي وكان أشبه الناس به : وتلاههم أفذاذ في طليعتهم إبراهيم النخعي فكان يفتي وينبسط للفتوى ولا يخاف إبداء الرأي . ثم جاء حماد بن أبي سليمان أستاذ أبي حنيفة وراوي إبراهيم ، وكانت معارك العلم بين الشيعة والخوارج وبين الأمويين والعلويين قد خلفت في الفقه آثاراً كالجراح ، إذ أخذ الشيعة يصطنعون الأحاديث لنصرة عليّ ، وأخذ خصومهم يخلقونها لنصرة مخالفيه : أبي بكر مرة ، وطلحة والزبير مرة ، وبني أمية مرات :

كما أخذ أنصار بني أمية يخلقونها ضد العباسيين . وأنصار بني العباس يخلقونها ضد العلويين وضد الأمويين ، حتى قيل في زمن متأخر إن الجاحظ أوتي عشرة آلاف على أن يصنع أحاديث في مقتل علي ، وتدخات أطراف أخرى في النزاع . المعتزلة وغيرهم يخلقون ضد الخوارج ويخلق الخوارج ضدهم وضد السابقين جميعاً ؛ كما دس خصوم الإسلام أحاديث كثيرة على النبي . ثم تطورت أسباب الاختلاق فلم تبق مقصورة على الدافع السياسي أو الديني ، بل نجم المال والملق بين الأسباب . فأصبحت الأحاديث تخلق للخلفاء وللأفراد ولكل شيء . فتسمع أحاديث عن تطهير الحمام وعن التمر والعجوة !

وكما أصاب التزييف الروايات أصاب الرواة .

وانتهى الأمر بالوضاعين إلى أن أصبحوا يسبكون الأحاديث كما ينظم القريض ولنفس الأسباب ! في المدح والتمدح . والترغيب والترهيب . وفي صياغة الفاسفة والحكمة .

بل بلغ الأمر بأحد الوضاع في زمن لاحق أن يقول إنه يصنع الأحاديث « حسبة لوجه الله تعالى » ! فلما سئل أبو عصمة نوح بن مرجم الجامع (مات سنة ١٧٣) عن سبب وضعه لأحاديث فضائل سور القرآن قال : « رأيت النار تحولوا عن القرآن واشتغلوا بفقمة أبي حنيفة ومغازي ابن إسحق فوضعها حسبة » !

وساعد بعد العراق عن مهبط الحديث في الحجاز . حيث صحابة الرسول الذين عاشوا إلى نهاية القرن . كما ساعدت شدة الحاجة إلى النصوص لحل المشاكل . على هذا التفريخ العجيب للأحاديث . حتى ليروي عن الزهري أحد مفاخر المدينة أنه قال عن أهل العراق : « يخرج الحديث من عندنا شبراً فيعود إلى في العراق ذراعاً » .

حدث ابن ماجه عن رسول الله : « ما قيل من قول حسن فأنا قلته » . فلينسب الوضاعون إذن كل الأقوال الحسنة إلى الرسول ! ذلك ما عبر عنه أحد المستشرقين تعبيراً غريباً بقوله : « إنهم يضعون أوراقهم على المائدة ويسان حاله يقول : هذا حق . ولا مأخذ عليه من ناحية الدين ، بل هو مستحب والنبي كان يوافق عليه » .

تفرق الصحابة في الأمصار بعد وفاة النبي ، واشتجرت الآراء بينهم في الفتاوى . تبعاً لمبلغ علمهم بالأحاديث والسنن وإقبالهم على إبداء الرأي وتأثير البلدان التي استوطنوها في آرائهم وتقليدهم ، ومن ثم جاءت خلافات المدينة من ناحية وسائر الأمصار في النواحي الأخرى وبخاصة الكوفة : إذ لم يكن مستطاعاً أن تكون السنة معلومة لأهل تلك الأقطار النائية علمها لأهل المدينة ، وقد شاهدوها وشاركوا في تطبيقها جيلاً بعد جيل .

وكان أهل تلك الأمصار ملايين على حين كان أهل المدينة آلافاً .

ولم تصل السنة إلى الأمصار إلا على مهل ، فلم تظهر في الحياة العامة في العراق إلا في سنة ١٦٠ : بل في سجستان - في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع - كان الزواج يعقد في أوضاع تخالف السنة حتى طبقها الإصطخري قاضي « قم » . وفي خراسان كان ظهورها على يد عالم لغوي هو النضر بن شميل ضيعة قومه فخرج من البصرة يلتمس الرزق فشيعة ثلاثة آلاف من المحدثين والنحويين والعروضيين واللغويين . فلما اجتمعوا قال : « يعزّ عليّ فراقكم ، والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلى (مكيال فول) ما فارقتكم » ، فلم يتكلف له ذلك أحد من سامعيه ومودعيه !! وسار حتى وصل إلى مرو في خراسان حيث جالس المأمون في إقامته بمرو وعليه خلقان ، فأجيز بثمانين ألف درهم لتصحيحه حديثاً واحداً في مجلسه .

ولم تكن السنن في كتاب ذي مناهج يعرف الناس نصوصه ومدى تطبيقه . ولا كان الولاة يعنون بتعليمهم : بل إن الولاة كانوا في شغل بالدنيا عن الدين .

كان بنو أمية ملوكاً دنيويين لا خلفاء دينيين : اعترض أبو الدرداء على رأس البيت الأموي معاوية ، لبيعه سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها ذهباً . قال : سمعت رسول الله ينهى عن مثل ذلك . قال معاوية : « ما أرى بهذا بأساً » . قال أبو الدرداء : « من يعذرى من معاوية ، أخبره عن رسول الله ويخبرني عن رأيه . لا أساكنك أرضاً » .

أفيقبل فقهاء الكوفة هذه الفوضى المخربة دون أن يهتروا ظلامها بسهام من

النور ! لقد كان ابن مسعود زعيمهم نزاعاً للنظر في المصالح وتعقل النصوص
يزدري الإمعات الطائفة ويقول : « اغد عالماً أو متعلماً ولا تغد إمعة فيما بين
ذلك » : فالاستقلال والاجتهاد في الفقه ميراث أهل الكوفة يتوارثونه كابراً عن كابر :

فقيم الخضوع للمسلمات إذا لم يؤيدها الدليل الناهض ؟ وإذا سيقت الفكرة
فقيم ينحني المفكر أمام المفكر ! وإذا ورد النص فما الدليل على النص ؟ وإذا سيق
الحديث فن رواة الحديث ؟ وإذا انفتح الباب للبحث عن الرواة ، كان لزاماً أن
يسير الباحث إلى النهاية ، فيدرس الراوية مثلما يدرس الرواية .

وهذا الفقيه الذي أتاحت له حقبة نادرة من حقب التاريخ ليرى أحداث
الدولتين الأموية والعباسية الكبرى ، وتجري بين يديه التيارات الفكرية الخطيرة في
تاريخ الحضارة الإسلامية وهو عاكف على تلاميذه يسبح سبحاته معهم في آفاق
هذا الكون الحافل ، حيث كل شيء حائل ومتنقل إلا هؤلاء ، الثابتين الصادقين
عن أسباب الشحناء والسخائم ، يجودون بنشاط جسمي وفكري عجيب ، تشد
عزائمهم الأحداث الرائعة المحيطة : فليستجب هو وتلاميذه إلى الصوت الذي
لا يخفت في ضجة المذابح وفوضى التخليط ، والذي يهيب بالمومنين أن ضعوا حداً
للفوضى : وأرسوا على الطبيعة الخطوط الكبرى للنظام : والخطوط التفصيلية
للقواعد التي يتطلبها عالم تتراعى أطرافه بين الصين والمحيط الأطلسي ، فلم
تعد جزيرة العرب إلا نواة أو مركزاً للدائرة .

وإذا كان جواب الدولة العباسية الجديدة في عالم السياسة هو الحضارة
الفكرية ، فلقد كان جواب المدرسة الجديدة في عالم التشريع هو فقه أبي حنيفة
القائم على الاجتهاد وعلى التحري الدقيق للروايات . فليناقش كل شيء
حتى لا تضيع الآراء الزائفة وتذهب قواعد البنيان التشريعي الذي تأوى إليه
الحضارة :

• • •

أفترى كانت المدينة المنورة في وسط الجزيرة ، وهي قلب العالم الإسلامي ،
تصبر على هذه الحركة الثورية ؟

إن للمدينة سلطانها الديني والتاريخي الذي تعنوا له الجباه : فهناك أقام النبي وهناك يثوى جثمانه : وهناك عاشت الكثرة الغالبة من الصحابة وأمّهات المؤمنين تتصدرهن الراوية النابغة عائشة بنت أبي بكر : وهناك الرواة من هؤلاء والرواة عنهم ، يقتفون آثار زعيمى الحجاز عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس : فمن مثل هؤلاء زكّانة ومكانة وإماماً بعهد الرسول وغزواته وفعاله وكلماته ، وبأحاديث الخلفاء الراشدين والصحابة الأقربين : وأى بلدة طيبة كالمدينة تعيش في أجواء من البركة والكرامة ، تضيئ على كل شيء فيها فيوضاً من التجارة والإكبار :

كانت المدينة كعبة القصاد لمن شاء أن يتفقه الدين والتاريخ والتفسير وما إليها ، وكان عبد الملك بن مروان أحد فقهاءها الاثني عشر المعدودين - بارحها إلى الشام ليكون خليفة المسلمين ومعه زميله في الدرس قبيصة بن ذؤيب ليجعله على خاتمه :

ولما عزم عبد العزيز بن مروان أن يعلم ولده بعث به إلى المدينة ليعود ثانياً العمرين اللذين يهز الإسلام بمفاخرهما أعطافه .

وكان في عهد أبي حنيفة إمامها العظيم مالك بن أنس ، الذي لا يفتى وهو في المدينة ، حفيد أبي عامر الأصبحى صاحب رسول الله ، ولم يكن من طراز رجل الكوفة يتصايح التلاميذ من حوله أو يخطونه وجاهاً ، بل كان رجل تقاليد بحق ، يهاب المستفتى أن يسأله أسباب فتواه ، ولا يرفع أحد صوته في مجلسه . وبلغت مكانته بالمدينة أن الرشيد زاره لما حج وأن تشاور معه المهدي في سنة ١٦٠ في بناء البيت الحرام ، ولما هم أبو جعفر أن يبنى البيت على ما بناه ابن الزبير على قواعد إبراهيم شاوره فقال : « أنشدك يا أمير المؤمنين لأتجعل هذا البيت لعبة للملوك بعدك لا يشاء أحد منهم أن يشره إلا غيره فتذهب هيئته من قلوب الناس » فصرفه عن رأيه .

وفي سنة ١٧٤ حج الرشيد ومعه أبو يوسف فسمع الموطأ من مالك وتناقش فيه الفقهاء أمامه وقال الرشيد لملك : ناقش أبا يوسف . فأنف مالك وتززه عنه ، وهو

العلم بمكانة أبي يوسف من العلم . بل قال للرشيد : « ها هنا فتیان من قریش من تلامذتنا من يبلغ حاجة أمير المؤمنين . ! »

كان للمدينة من السلطان الروحي ما عبر عنه مالك لليث بن سعد بقوله : « إن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن » .

وكانت حضارتها بسيطة غير معقدة ولا مشوبة بتخليط . المشاكل فيها قلائل . والوقائع تتشابه وتتشاكل . فإذا عرضت مسألة فإن لها أشباهاً في السوابق وحكماً في النصوص . يسيطر على أهلها اعتقادهم أنهم لن يصنعوا خيراً مما صنع آباؤهم لأنهم تابعون وآباؤهم متبعون . ومن عقيدة التابع أنه ليس كالمتبوع ، وأنه لن يكون جيل التابعين ولا أي جيل بعده أو قبله كجيل الصحابة رضوان الله عليهم .

أما الكوفة ففي ذلك الإقليم من أقصى الجزيرة حيث لم تكن مادة الفقه والأحاديث والسنن هي الهواء الذي يتنفس الناس فيه في كل مكان كالمدينة . فإذا أقبل بنوها على العلم أقبلوا في تسامح انخبط الواسع الذي ينادى بالاجتهاد وبالرأى ، حيث الناس من كل الأجناس . يقبلون على الدين الجديد تؤنسهم مدنية كبيرة ، وتكتنفهم معاملات وتجارات ونوازع شتى وفنون حضارة تحتاج في كل وقت إلى الرأى الجديد . لا تغنى عنه النصوص القليلة المتداولة . جاءوا يدلون بدلهم في الدلاء . يتحرون ويتقرون لم تكدهم تهدياً رحلتهم بعد . ولم تكن لتهدأ إلا بعد أن تستنفدها شتى ضروب النشاط المادى والفكرى أو يعثورها الكلال والحرم .

لقد تلازم الاجتهاد والجهاد في تاريخ الإسلام ، وتحالف الركود الفكرى والركود العسكرى النسبى من ألف عام .

قامت مدرسة الكوفة تقول بالخلق والابتكار ، واستعصم أبو حنيفة فيها مستمسكاً بالرأى وبالتمسدد في قبول الأحاديث وروايتها وعارض فقهاء المدينة وأشياعهم . ثم تطاول الخلاف الفقهي فتحول إلى خصام . وأعلنت حرب المذاهب ، بين كلمات قارصة كقول القائل : « وضع أبو حنيفة أشياء في العلم ، مضغ الماء أحسن منها . » ومستشعرات من الألفاظ سنرى أمثالا منها بعد . وغدا فقه العراق هم الحجاز المقيم المعقد ...

غرب الوالى إلى عرفات خارج مكة رجلا من السفهاء وحرم على الناس أن نلقاه. فكانت تأتيه على حمير يكثرونها على الرغم من أمر الأمير. فجاءوا به فقال له الأمير «أى عدو الله. طردتك من حرم الله فصرت إلى المشعر الأعظم تفسد فيه وتجمع الفساق». فقال: «أصلح الله الأمير يكذبون على ويحسدوننى». قالوا: «بيننا وبينه واحدة». قال: «ما هى» قالوا: «نجمع حمير المكارين ونرسلها بعرفات فإن لم تقصد إلى بيته لما تعرف من إتيان الخراب والسفهاء، فالقول ما قال». قال الأمير: «إن فى هذا للدليلا». وأتى بالحمير. فجمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله. قال الأمير: ما بعدها شىء جردوه. فلما نظر إلى السياط. قال اضرب فوالله ما فى هذا شىء أشد على من أن يسخر منا أهل العراق فيقولوا أدل مكة يجيزون شهادة الحمير!! فضحك الأمير وقال: «والله ما أضربك اليهود» وأمر بتخاية سبيله.

وفى أواخر القرن الثانى كان بمصر قاض حنفى هو إسماعيل بن اليسع الكندى يقضى برأى أبى حنيفة فى إبطال الوقف فذهب إليه الليث بن سعد يقول: «جئت مخاصمًا لك فى إبطالك أحباس المسلمين (أرقافهم)». ثم بعث إلى الخليفة يطلب عزله وهو يقول: «إنك وليتنا رجلا يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم». على أننا ما علمناه فى الدرهم والدينار إلا خيراً». وعزل الخليفة قاضياً كل جريوته عند الليث وصحبه أنه كان يذهب فى الوقف مذهب أبى حنيفة.

وشارك الشعر بأوزانه فى الملحمة. قال شاعر المدينة (عن أصحاب المقاييس وهم الحنفية):

كنا من الدين قبل اليوم فى سعة حتى ابتلينا بأصحاب المقاييس
قاموا من السوق إذ قلت مكاسبهم فاستعملوا الرأى عند الفقر والبوس
وكان شرشير المدنى يعيب أبا حنيفة. فقال شاعر الكوفة:

عندى مسائل لا شرشير يعلمها عند السؤال ولا أصحاب شرشير
ولا يصيب فصوص الحق يعلمها إلا حنيفة كوفية الدور
بلى: كانت هناك حنيفة وكوفية فى جانب ومدنيون فى الجانب الآخر، بل

كان ثمة مدينتان تتباريان ، وإن شئت فقل مدينتين أو فكرتين : الحديدية المستوفزة
الراغبة في الخلق والاندفاع ، والقديمة الهادئة الراغبة عن الابتداع ، وبذلك بدأت
المعركة بين حزب التقليد وحزب الاجتهاد وتأرجح المفكرون بين الآراء ، فرأينا
رجلا كالنضر بن شميل كان يقدح في أبي حنيفة في مجلس المأمون بعد أن يمدحه يعود
مرة أخرى فيقول : لا ترو عنا كل ما نقول في أبي حنيفة فإننا نقول عند الغضب أشياء
ليس لها حقيقة . وتنصرم الأعوام ويشتد الخصام فيروى الطحاوي - وهو من
أئمة الحنفية - أنه كان يذاكر في بعض المسائل أبا عبد الله بن الحسين بن حرب
المشهور « بحربويه » قاضي مصر سنة ٣١١ فأجاب حربويه : ما هذا قول أبي حنيفة .
فقال : « أيها القاضي أو كلما قال أبو حنيفة أقول ؟ » قال : « ما ظننتك إلا مقلداً » ،
فقال الطحاوي : « وهل يقلد إلا عصبى ؟ » قال : « أوغى » ، وطارت الكلمة
فصارت مثلاً .

ولما قامت مدرسة الشافعي بعد نصف قرن من موت أبي حنيفة ، برز خصم
شديد ، وتطاحت المذاهب أيما تطاحن ، وإذا بملكين : بل والد وولده هما العادل
سيف الدين بن أيوب صاحب دمشق يقول لابنه عيسى شرف الدين : « يا بني
كيف اتخذت مذهب أبي حنيفة وأهلك كلهم شافعية ؟ » فيجيبه ابنه قائلاً
« أترغبون عن أن يكون فيكم رجل مسام واحد ! » وانزلق التوم إلى هوة الحقد
فتدهور المبتدعون إلى حيث تعمى القلوب ، وإذا برجلين من « الخطابية » يستفتي
أحدهما الآخر في أن يشهد على شافعي بالكذب فيفتيه بقوله : ألسنت تعتقد أن
دمه حلال ؟ فما دون ذلك دمه فاشهد ! وادفع فسادك عن المسلمين .. !!

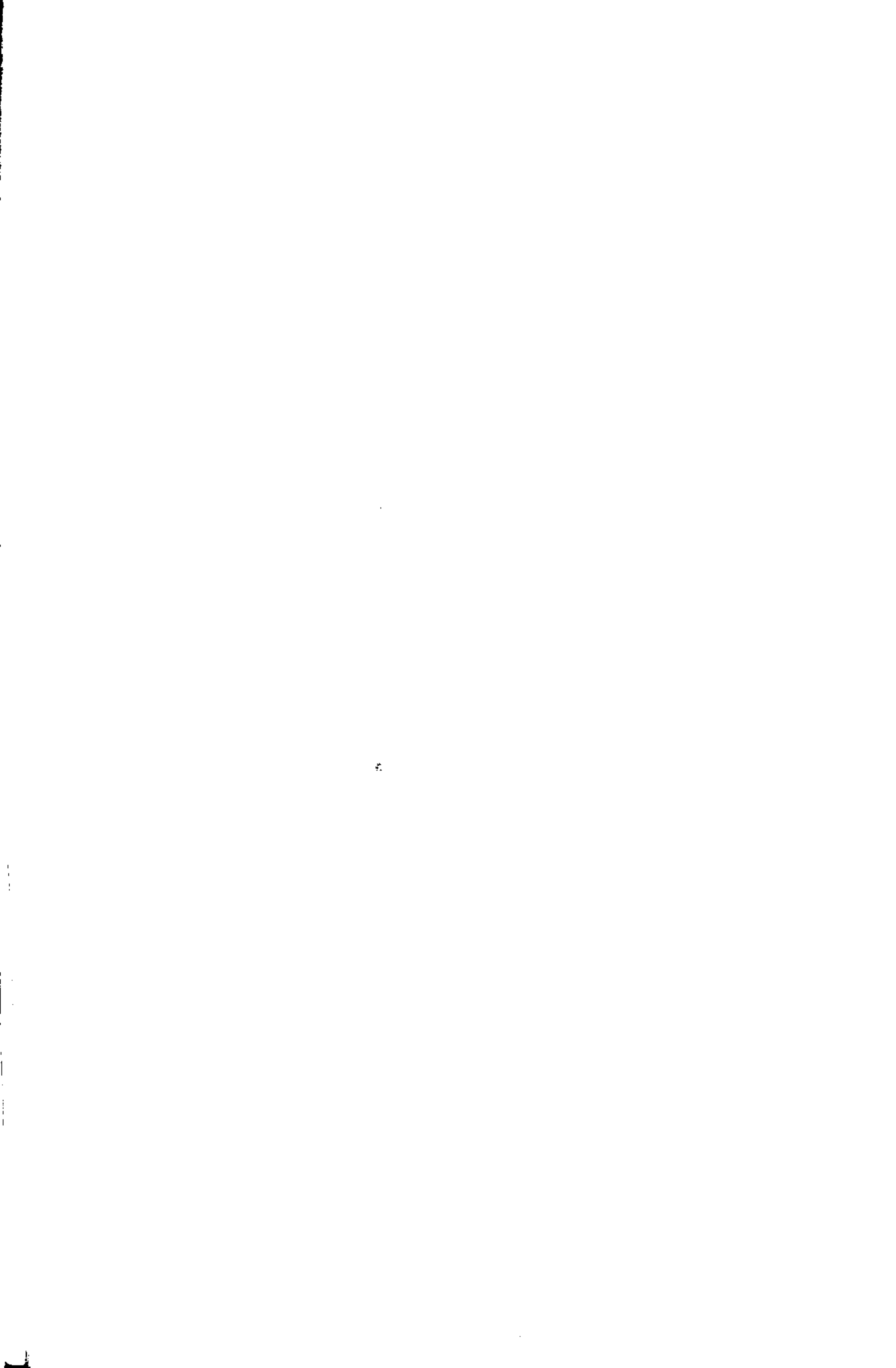
وذات يوم أمر قاضي مصر الحارث بن مسكين بإخراج أصحاب أبي حنيفة
وأصحاب الشافعي جميعاً من المسجد :

وفي الأندلس تناظر الحنفية والشافعية يوماً بين يدي السلطان فسألهم في
ببساطة : من أين أبو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة . قال : ومن أين مالك ؟ قالوا :
من المدينة . قال : « عالم دار الهجرة يكفيننا » وأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة
وقال : « لا أحب أن يكون في عملي مذهبان » .

وأخيراً ذهب الزيد جفاء ومكث ما ينفع الناس في الأرض وأنزل الله على قلوب
الحزبين سكينه وأمنًا فكانت نار الخلاف بردًا وسلامًا ، وغدت وجوه النزاع
سباقًا لنصرة الدين ، وكنوزًا نقلتها بين أيدينا لنأخذ منها ماثما نأخذ من وهج
الشمس وانحدار الماء واجتماع السالب بالموجب ، قوى خالقه جبارة تأتي بالأعاجيب .

روى القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق : « اختلاف أصحاب محمد
رحمة » ورووا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : « ما سرني باختلاف أصحاب
النبي صلى الله عليه وسلم حمر النعم » ، وأنه قال : « ما سرني أن أصحاب محمد
لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة » .

ولما قال الرشيد لمالك ليكتب : « الموطأ » ويفرقه في الآفاق . ليحمل الناس
عليه كتمان مدون . قال : « يا أمير المؤمنين اختلاف العلماء رحمة من الله على
هذه الأمة . كل يتبع ما صح عنده : وكل على هدى : وكل يريد الله تعالى » .
وهكذا اختلف الصحابة ولم يتعادوا ، واختلف الأئمة ولم يتخاصموا . ولا ينجم
العداء الفكري إلا بين الحمقى والمنتطعين : ألا هلاك المنتطعون .



الجاب الثامن

في الفقه

« إنى أرى ، لا أكثر . وأومن لا أقل »
« أما مستقبل فلا أضعه نصب عيني »
فيكتور هيجو

« إني أرى وأؤمن بالله . لا أكثر ولا أقل » . تلك قواعد تفكير أبي حنيفة في كلمة جامعة مانعة : أما الناس أو التقاليد ، أما السخط أو الرضا ، فإنها أمور تجيء في المحل الثاني أو لا تجيء أبداً .

مصدر التشريع الإسلامي هو القرآن ، غير أن آيات الأحكام فيه نحو مائتي آية من ستة آلاف كانت تنزل على النبي في المناسبات ، فتعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلي لا جزئي ، وهو مما شرف الله به هذه الأمة ، إذ لم يهمل عقولها ولم يلقنها الجزئيات تفصيلاً ، وكان الرسول يتولى تطبيق هذه الآيات على الحوادث والأشخاص مع بيان وجوه العمل بها ، بالقول أو بالفعل أو بالإجازة ، وهو ما اصطلاحوا على تسميته بالسنة وصار بطبيعته مصدراً ثانياً للتشريع .

في عهد الخلفاء الراشدين ، كانت تقع حوادث لم يعلم للنبي في نظائرها آراء ، فكانت سياستهم فيها تتحصل فيما أثر عن الفاروق ، وهو يولي شريحاً قضاء الكوفة ، إذ قال : « انظر ما تبين لك في كتاب الله ولا تسأل أحداً ، وما لم يتبين لك فاتبع فيه سنن رسول الله وما لم يتبين لك في السنة ، فاجتهد فيه رأيك » ، وفيما كتبه إلى أبي موسى الأشعري من أن : « القضاء فريضة محكمة أوسنة . الفهم الفهم فيما تلجلج فيه صدرك مما ليس في كتاب أو سنة ، اعرف الأشباه والنظائر . وقس الأمور عند ذلك » .

ولم يكن ثمة اجتهاد بالرأى إلا لضرورة ملجئة . كتب كاتب لعمر : « هذا رأى الله ورأى عمر » فصاح به : « بشما قلت . هذا رأى عمر . فإن يك صواباً فمن الله وإن يك خطأ فمن عمر ... »

ولما أفتى ابن مسعود في صداق امرأة مات زوجها قبل أن يدخل بها ولم يفرض لها صداقاً ، قضى بأن يكون لها مهر مثلها من نساءها ، وأضاف : « فإن يك صواباً فمن الله ، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان ... »

إلى هذا الحد بلغ تخرج الرجلين اللذين هما زعما الرأي في الإسلام ... !
 كان الخلفاء الراشدون يستشيرون زعماء الفكر من الصحابة إذا استغلقت وجوه
 الأمور ، وكان عددهم محصوراً . فكان الإجماع ميسوراً . وكان لأبي بكر ما يشبه
 مجلس الشورى يدعو إليه رجلا من المهاجرين والأنصار منهم عمر وعثمان وعلي
 وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت : فلما خلفه
 عمر كانوا في طليعة مستشاريه .

ولم يكن عمر يتردد في الرجوع عن أخطائه ، قضى في عام من الأعوام بجرمان
 الإخوة الأشقاء مع الإخوة لأم والزوج في الميراث . وفي عام آخر أشركهم جميعاً
 في ثلث المال ، وقال : ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقضى ... ولم ينقض حجه
 « الشئء المحكوم فيه » كما يسمونها في الفقه الحديث .

ورفعت إليه جارية سوداء متهمه بالزنا فخفقها بالدرة خفقات وقال : أى
 لكاع زنيت .. قالت مرعوش بدرهين « تريد صاحبها الذى صنع بها والمهر الذى
 أعطاها » قال عمر : ما تروني ؟ . وكان عنده عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف .
 قال عليّ : أرى أن ترجمها ، قال عبد الرحمن : أرى مثل ما رأى أحوط . فقال
 لعثمان : ما ترى ؟ فقال إنما حد الله عز وجل على من علم أمر الله . قال : صدقت
 ورد على الجماعة . وأسقط الحد وبين أنها تجهل ما صنعت فلا يجب عليها الحد .
 ورفعت إليه قصة رجل قتلته امرأة أبيه وخليها فتردد ... دل يقتل الكثير
 بالواحد ؟ فقال عليّ : أرايت لو أن نفرًا اشتركوا في سرقة جزور فأخذ هذا عضواً
 وهذا عضواً أكنت قاطعهم ؟ قال : نعم . قال : فكذلك . فكتب عمر إلى
 عامله أن يقتلها فوالله لو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم اقتلتهم .

ولما فتح المسلمون الأمصار طلب الفاتحون أربعة أخماس الغنيمة مستأدين إلى
 ظاهر النص في الآية ، ومؤداه أن يأخذوا أربعة أخماس البلد الذى يفتحونه ويبقى
 الخمس للمنفعة العامة ، لكن عمر تساءل : كيف آخذ أرض الناس منهم ؟ قال
 مندوبو الفاتحين : هذا ما أفاء الله علينا بأسيا فنا . قال عمر : هذا رأيت . قالوا
 استشر . فأشار عبد الرحمن بن عوف برأيهم وأشار عثمان وعلي وطلحة وابن عمر
 برأى عمر . فدعى عشرة من الأنصار قال فيما قال : « قد سمعتم قول هؤلاء القوم

الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم ... أرأيتم هذه الثغور التي لا بد من رجال يلزمونها ... لا بد لها أن تشحن بالجيوش وإدراار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء . . . ؟ » وأشار برأيه المستشارون .

وفي ذلك يقول أبو يوسف : « والذي رأى عمر رضى الله عنه من قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرفه الله ما كان في كتابه من بيان ذلك توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم » - ذلك بأن الخراج إنما يصرف في شؤون الدولة ، فيعم به النفع للمسلمين كافة بطريق غير مباشر .

هذه السياسة العمرية هي التي نشرت الإسلام في الأمصار ، فلو استولى الغزاة على الأرض من ذويها لجرد الناس من أموالهم ومتاعهم ، ولقابات أسماءهم بالصمم صوت الحق ، مروعين بما يصاحبه من عنف مخرب يطغى على الهداية التي تبسطها الحنيفية السمحة بجناحيها على العالمين .

وفي عام الحجة لم يثبت العمر حد السرقة . ولم يقطع يد الغامان الذين سرقوا الناقة بل غرم وليهم ثمنها مضاعفاً لأنه يجيع غلمانه .

وفي الصدقات أسقط حق المؤلفه قلوبهم لأن الإسلام باع عزة فام يعد بحاجة إلى تأليف القلوب بالعطاء .

وفيما لا نص فيه كم كانت لابن الخطاب اجتهادات .. فهو يعهد بالخلافة على غير عهد أبي بكر . ويوصى بانتخاب الخليفة من ستة عيّنهم ، ويفرض العشور على الصادر والوارد ، ويفرق بين المهاجرين والأنصار في العطاء .

واجتهاد عثمان فجدد أذاناً ثانياً لفريضة الجمعة لما اتسعت رقاع المدن . وجمع الناس على قراءة مصحف واحد ، هو المصحف الإمام ، مع ما هو معلوم من أن القرآن نزل على سبعة أحرف : وإنما خشى عثمان الفتنة لتفريق الحفاظ واستشهادهم وتباعد أطراف البلاد .

واجتهاد على كاجتهاده في حد قتل الزنادقة فجعله بالحريق في الأخاديد إذ رأى المصلحة في الزجر عن الجرم الشنيع بالعقاب الشديد : واجتهاد في قضائه الذي كان مضرب الأمثال .

وفي عهد بني أمية تفرق الصحابة في الأمصار فكان بكل مصر من الصحابة والتابعين رجال يتولون الفتيا ويعلمون الناس القراءة والأحاديث والمغازي . فلما نجمت الخلافات السياسية التي ألمنا بها في الباب السابق نجم معها شر مستطير ، فإذا بالخوارج ولهم فتاوى ، والشيعية ولهم فتاوى ، ولسائر الأمة فتاوى – وإذا بقبس من النور يترآى في اجتهادات بعض الفقهاء ، لكن الغلبة كانت للقائمين بعدم الاجتهاد التزاماً لظاهر النص في الآية ، وظاهر اللفظ في الحديث ، خشية الزلل . بل ذهب البعض إلى القول بأنه لا فتوى لديه إذا لم يكن النص بين يديه .

قالوا : أدرك عبد الرحمن بن أبي ليلى عشرين ومائة صحابي ما منهم رجل يسأل عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه ، ولا يحدث حديثاً إلا ود أن أخاه كفاه . ومن الفقهاء من كان يمتنع أن يفتى في مسائل بذاتها كسفيان بن عيينة لم يك يفتى في الطلاق ويقول : « من يحسن هذا ... ؟ » ولما أعجب به ابن حنبل قال فيه : « ما رأيت مثل ابن عيينة في الفتوى أحسن فتياً منه : كان أهون عليه أن يقول لا أدري » .

ولم يكن سعيد بن المسيب يكاد يفتى إلا وهو يقول : « اللهم سلمني وسام عني » ، بل هؤلاء بعض أهل العلم يقولون : تعلم لا أدري فإنك إن قلت لا أدري علموك حتى تدري ، ولو قلت أدري سألك حتى لا تدري .. !

سأل رجل من الغرب مالك بن أنس فقال : لا أدري . قال السائل تقول : لا أدري . قال : نعم . فأبلغ من وراءك أني لا أدري ... !

وذات يوم سئل فقال : لا أدري . فقال السائل : إنها مسألة خفيفة سهلة وإنما أريد أن أعلم بها الأمير – وكان السائل ذا قدر – فغضب مالك وقال : « مسألة خفيفة سهلة ! ليس في العلم شيء خفيف : أما سمعت قول الله تعالى : (إنا سنأتي عليك قولاً ثقيلاً) .. »

وقال مالك يوماً : إني لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لي فيها رأى إلى الآن .

وسئل أربعين سؤالاً فقال عن ستة وثلاثين سؤالاً منها : لا أدري .

وكان علامة التابعين الشعبي يقول : « لا أدري نصف العلم » قال : لا أدري .
يوماً ، فقال له السائل : ألا تستحي من قولك لا أدري وأنت فقيه العراق ؟
قال : لكن الملائكة لم تستح أن تقول لله : « لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

كانت أطراف الإمبراطورية الإسلامية قد ترامت إلى أقصى أقطار العالم
المعمور . فلم تك إمبراطورية القياصرة ولا إمبراطورية الأكاسرة إلا بعض
أجزائها . لقد غربت الفياق الإسلامية إلى البرزخ الذي يحمل مفاتيح البحر الأبيض
لدى المحيط ، وشرقت كالسهم تخترق آسيا إلى أقطار الصين ، وتضاعفت المسائل
والمشاكل والأشخاص والأشياء ، فكيف تغني نصوص بلغت من الندرة ما أحصينا ،
وتخرج من الإفتاء بلغ من الضيق ما بينا ، وسيادة لنظرية « اللا أدري » توحى
بتعطيل الفتيا . . . !

لم تكن الحضارة التي يجنحها ضمير الغيب للإسلام ، والفتوح السياسية والفكرية
التي أزهرت في عهد بني العباس ، لتم أو تزدهر في أجواء هذا الحرج الفكري
الذي يضطرب في قيوده الفقهاء .

كانت بالعراق قوى عارمة تستبق الزمان وتستبق حضارة بني العباس قبل أن
تقوم دولة بني العباس ، فلم يك للأمة غنى عن رجال يهيئون بأفكارهم للمستقبل
أصولاً تشريعية صالحة لقيام نهضة علمية واجتماعية واقتصادية يرتبط المسامون
فيها بالفتوة كما يرتبطون بالدين نفسه على أساس من فهمه والإيمان به ، والقدرة
التي هي شرط التكليف .

فهل استجابت قوى الأمة إلى ماجاش في صدرها من حاجات وحاجات ؟
هل فسحت المجال الحيوي لمواهب بنيتها لتربي وتنتشر وتطير في كل مكان وزمان على
أحرف الهجاء ، كما يطير الصوت على ألف جناح وجناح من موجات الهواء ؟
وبعبارة أخرى هل قدمت هذه الأمة الدليل على قوتها وحيويتها وأصالة حضارتها ؟
بالدولة الحية كالجسم الحي إذا حزبتها الأمور نبض قلبها أقرى نبضاته وتجمعت
وأها تجمع الأسد للوثوب فدفعت إلى الوجود من يملأون الفراغ كله ، ويحققون
لرجاء كله ، فيدفعونها إلى الأمام دائماً وباستمرار .

بحسبنا أن نرجع البصر كرة واحدة لنرى مقدار ما استجابت المدنية الإسلامية إلى ذلك النداء الصامت عندما تجاوزت في جنباتها أصدائها ، ومدى رسوخ هذه الحنيفية السمحة ونفوذها إلى الأعماق ، ونرى إلى جوار ذلك فضل السبق الذي تفرد بقصبه الإمام المجلي في حلبة الفقه والعلوم . والذي نادته الحضارة الإسلامية في كل عصورها بأنه «الإمام الأعظم» .

وفي سنة ٨٠ ولد أبو حنيفة . وفي سنة ١٢٠ كان يأتي على الناس أصول مدرسة الكوفة ليدينونها أبو يوسف وغيره من التلاميذ على ما أسلفنا من بيان ويسجلها من بعدهم رهط كبير من العلماء تلالوا في سماء الدولة العباسية التي لم تبدأ حياتها إلا في سنة ١٣٢ وازدهرت فيها الحضارة العلمية في أيام الرشيد في أواخر القرن ، وفي أيام المأمون وما تلاها في القرن الثالث للهجرة .

أما الأوزاعي إمام الشام فولد سنة ٨٨ ، ومالك بن أنس إمام المدينة ولد في سنة ٩٣ ، وزفر بن الهذيل ولد في سنة ١١٠ ، وأبو يوسف ولد في سنة ١١٣ ، ومحمد ولد سنة ١٣٢ .

وفي سنة ١٥٠ و٧٦٧ م هوى نجم وبرز نجم فمات أبو حنيفة وولد الشافعي . وفي سنة ١٦٤ ولد رابع الأئمة الأربعة ابن حنبل ، وفي سنة ١٧٩ (٧٩٥ م) مات مالك . وفي سنة ٢٠٢ ولد داود الظاهري إمام أهل الظاهر ، وفي سنة ٢٠٤ (٨٢٠) مات الشافعي وفي سنة ٢٢٤ ولد الطبري وفي سنة ٢٤١ (٨٥٥ م) مات ابن حنبل .

ظهر هؤلاء الأئمة جميعاً بعد أبي حنيفة بسنين وعشرات السنين ملبين لنداء الأمة ، مترسمين خطى الأستاذ الأول الذي استجابت على يديه العناية الإلهية لهتاف الإسلام .

• • •

سئل أبو حنيفة عن خطته في الفقه فأجاب : « إني آخذ بكتاب الله ووجدته ، فما لم أجد فيه أخذت بسنة رسول الله والآثار الصحاح التي فشت في أيدي الثقات ، فإذا لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسوله أخذت بقول أصحابه من شئت

وأدع تول من شئت ، ثم لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم ، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب - وعدة من مجتهدي التابعين وتابعيهم - فلي أن أجتهد كما اجتهدوا » .

والصحابه هم الذين كانت لهم صحبة بالرسول طالت أو قصرت على ما رأى محدثون أو الذين رأوه على ما يرى البخاري . أما التابعي فهو من رأى صحابياً ولقيه ، روى عنه أو لم يرو عنه .

لي أن أجتهد كما اجتهدوا ... !

تلك هي المسألة الأولى لأبي حنيفة .

وإذا كان أبو حنيفة ينحني أمام رأى الرسول ورأى الصحابة فيقول : « إن مقام أحدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة خير من عمل أحدنا جميع عمره وإن طال » . فلقد قال عليه الصلاة والسلام : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . وكان أحدهم يرى الرأى فينزل القرآن بموافقة كما رأى عمر في أسارى بدر أن تضرب أعناقهم ونزل القرآن بموافقة ، ورأى أن تحجب نساء النبي ونزل القرآن بموافقة ورأى أن عبد الله بن أبي منافق ونزل القرآن بموافقة : وموافقات عمر للقرآن والوحي ، تبلغ بضعة عشر موضعاً .

وحقيق بمن كانوا كذلك أن تكون لآرائهم خير المنازل . قال أستاذ الكوفة ابن مسعود : « من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلمها تكافياً ... »

لكن أبا حنيفة إذ ينحني أمام أصحاب الرسول لا ينحني لسواهم من التابعين ولا تابعي التابعين فأولئك لم يمسه من بركات الصحابة مثل ما قدر الأولين ولما سأل لاس كاناس نابليون في سنت هياين بعد ألف عام من وفاة أبي حنيفة : لماذا لم تأخذ سيف فردريك الكبير إذ كنت في براين ؟ أجاب : « لقد كان معي سيفي » .

كان فقه الكوفة مطبوعاً بطابع ابن مسعود ، وكان كعمر يجتهد فيرى الرأى حيث لا يوجد النص . وبلغ اجتهاده أن قال عنه إبراهيم النخعي : « إنه كان

لا يعدل بقول عمر وابن مسعود إذا اجتمعا فإذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه أطف .

سئل أبو حنيفة : إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالف قولك ؟ قال : أترك قولی لكتاب الله . قيل : فإذا كان خبر رسول الله يخالف قولك ؟ قال : « أترك قولی بخبر رسول الله » . قيل فإذا كان قول الصحابي يخالف قولك ؟ قال : « أترك قولی بقول الصحابي » . قيل : فإذا كان قول التابعي يخالف قولك قال « إذا كان التابعي رجلاً فأنا رجل ... »
أجل : هو رجل . والرجال قليل .

إنه يجتهد رأيه ، فيحكم عقله ، كما كان بعض زعماء الفكر من الصحابة يحكمون عقولهم فيصدرون فتاواهم على قواعد الإسلام العامة كقوله عليه السلام : « لا ضرر ولا ضرار » . وقوله : « دع ما يريبك » أو قوله : « ادروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام إن يخطئ في العذر خير من أن يخطئ في العتوبة » ، أو قوله : « إذا أمرتم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » أو قوله تعالى : (لا إكراه في الدين) . أو قوله سبحانه : (ولا تزرر وازرة وزر أخری) ، وغير هذه التواعد الكليات :

تلك المسألة الأساسية في فكر أبي حنيفة كانت نقطة التحول في الاتجاه العلمي للمجتهدين .

فليقدح أبو حنيفة زناد الفكر الإنساني وليسبر أغواره . وليقاب النصوص بين يديه في جسارة لا تنهأ الإنباء ، فإذا أصاب فهو مأجور ومأجور ، وإذا لم يصب فالعصمة لله جميعاً .

قال صاحب الشريعة : إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر . وقال لصاحبيه الصديق والفاروق : « قولاً فإني فيما لم يور إلى مثلكما » ، ولما أخذ رأى صاحبه يوم وقعة بدر في المكان الذي يربط فيه أحد يقول له : « .. يا رسول الله إن هذا المكان الذي أنت فيه ليس بمنزل ، انطلق »

إلى أدنى ماء التوم فأنى عالم بها وبقلبها ، بها قلب قد عرفت عذوبة مائه لا ينزح :
ثم نبى عليه حوضاً فنشرب ونقاتل .. فنهض ففعل ذلك » .

إن لأبي حنيفة برسول الله أسوة حسنة ، فالمجتهد دائماً مثاب ، لأن الاجتهاد
في ذاته صواب ، أو كما قال أبو حنيفة : « المجتهدان مصيبان والحق في واحد » ،
أو كما قال الشافعي : « المجتهدان مصيب ومخطئ معفو عنه » ، وإذا تحاض المسلمون
على الجهاد في سبيل الدين ، فليتحاض العلماء على الاجتهاد في سبيل العلم .

وليقع أجر أبي حنيفة على الله مصيباً ومخطئاً ، وليشتق للناس هذه الطرائق
المعبدة التي يسرون فيها بأمان واطمئنان ، يحسبونها خاتمة موطأة الأكناف كما هي
الآن ، وكانت من قبل أضيق من سم الخياط وأكثر ترويعاً من المسبعة .

إن الكشوف العظمى التي يتخذ منها العالم أجديات حضارته اليوم كانت في
ظلمات الجهل الإنساني أعداءها ، وكان العالم حريئاً أن يظل سادراً في جهالته
بها أزماناً لو لم تكشف له .

فليس بهين عمل أبي حنيفة في إعمال الرأي إذا كنا الآن نأتى بالرأى في كل شأن ،
فإن هذه الحرية الفكرية لم تتقرر إلا بعد أن خط لناثاة من العباقرة مسالكنا في
الشعاب . واتمت آثارهم نخبة الطلائع ، وجاءت في أعقابهم عصور الإحياء
في الغرب وثورات دينية وفكرية لولاها ما باغ الناس ما بلغوه من حرية التفكير
والتعبير .

أما أبو حنيفة ففرض الحجب واستطاع من ألف ومائتي عام أن يقول :
إني أرى .

* * *

وفي السنن والاحتجاج بها كان لأبي حنيفة شؤون أخرى .

السنة هي الطريقة .

وهي في الفقه ما جاء عن رسول الله من أقوال أو أفعال أو إقرار لأقوال أو أفعال
صدرت من سواه ، وتطلق على عمل الصحابة لكونه اتباعاً لسنة ثبتت عندهم
لم تنقل إلينا ، أو اجتهاداً مجتمعاً عليه منهم أو من خلفائهم .

قال عليه الصلاة والسلام : « عليكم بسنتي وسنة خلفائي الراشدين المهديين
تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » .

والاحتجاج بالسنة يكون بالأحاديث التي تصدر بشأنها .

كانت الكثرة الغالبة من رواة الأحاديث بالمدينة كما أسلفنا . وكانت طريق
الوثوق بالخبر في أمور التشريع أن يعمل أئمة الصحابة أو فقاوهم بما يوافقه أو يجرى
عليه عملهم لا يختلفون فيه ، لأنه عن مشاهدة جيل لمن قبله حتى عهد الرسول
فهو من باب السنة العملية . أما أفعال النبي الشخصية كالحرب أو معاملته لزوجاته .
فتلك أمور خاصة به وبالذات . وهو يقول : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .

لكن حالة الأمة والخلافات التي نشبت حرقت على اختراع الأحاديث
أسلحة للحرب الداخلية . وكان كل حزب يزكي رأيه بالحديث الصحيح والحديث
المخترع ، وكثرت أسباب الاختلاق كما بينا من قبل . وأصبح الحديث الصحيح
في الحديث الكذب - كما قال الدارقطني - كالشعرة البيضاء في جمل الثور الأسود .
وفشت في الكوفة المقالات لكثرة الشقاق . وقلة الرواة . ولأن الثورات لم تكد يفرخ
روعها بعد . حتى كان مالك يسميها دار الضرب « ضرب العملة » . إذ تسك
الأحاديث كما تسك النقود .

وكان الثقات من الرواة يختلفون في النصوص عن الحديث الواحد . منهم من
يختار كلمة تؤدي معنى بدلا من أخرى تخيرها غيره . كحديث خطبة الوداع
ولا خلاف فيه ، جاء في نصه الخلاف بين الرواة . ولم تكن الأحاديث كلها نقلا
عن النبي ، بل كان يشترك في بعضها الصحابة . وكانت لغة الناقلين متغيرة ونظامهم
مختلفا . فنتج من ذلك اختلاف كبير بعضه بحسن نية الناقلين بإهمال . وكثير منه
خال من الإخلاص . ولم يك أحد ، حتى الصديق والفاروق . يستطيع الإحاطة بجميع
الأحاديث . ثم إن من الأحاديث ما لم يثبت عند محدثه أو محدث محدثه . ثم آفة
النسيان . فالفاروق نفسه نسي فذكره عمار فلم يتذكر . . . !

سئل عن الرجل يجنب في السفر فلا يجد الماء فقال لا يصلح حتى يجد الماء فقال له
عمار : يا أمير المؤمنين أما تذكر إذ كنت أنا وأنت في الإبل فأجنبنا . أما أنا

فتمرغت كما تمرغ الدبابة ، وأما أذت فلم تصل : فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنما يكفيك هكذا وضرب بيديه الأرض فمسح بها وجهه وكفيه . فقال عمر : اتق الله يا عمار . فقال عمار : إن شئت لم أحدث به . قال عمر : بل نوليك من ذلك ما توليت .

من أجل ذلك كان عمر لا يقبل الحديث إذا رواه واحد إلا إذا استشهد على روايته شاهدين . وكان على يستحلف الراوى ، أما ابن مسعود فكان إذا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استقلته الرعدة وقال هكذا . . أو نحو ذا . . أو قريب من ذا . . وكان إبراهيم النخعي لا يقول قال النبي ، وإنما يقول قال ابن مسعود أو قال علقمة . . وكان الشعبي يقول : « كره الأولون الصالحون الإكثار من الحديث ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما حدثت إلا بما أجمع عليه أهل الحديث » . وإذا كان ذلك شأن الخلفاء قبل أن يستفحل الشر ، فهل يخضع له أبو حنيفة بعد أن بلغ السيل الزبى ، وهو الذى لا حجة عنده إلا للثابت الصحيح .

أفينحنى معصوب العينين أمام هذه الأحاديث التى بلغت مئات الألوف ، دون أن يعمل فيها قواعدهم ! أفيقبل قول أهل المدينة إن الوسيلة لتحقيق صحة الحديث هى أن يعملوا بها وأن يردوا الأحاديث التى لم يجر العمل عليها لديهم ، كما صنع مالك مع أبى يوسف وهو قاضى القضاة !

سأل أبو يوسف مالكا عن الأذان ، فسأله بدوره عن الأذان لديهم : فذكر مذهبهم فيه فقال مالك : من أين لكم هذا ؟ فذكر له أن بلالا لما قدم الشام سألوه أن يؤذن لهم فأذن لهم كما ذكر - فقال مالك : ما أدرى ما أذان يوم وما صلاة يوم . هذا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده من بعده يؤذنون فى حياته وعند قبره وبحضرة الخلفاء الراشدين بعده ! يشير إلى أن ما جرى عليه العمل عند أهل المدينة أولى بالاتباع .

إن أبا حنيفة يوجب البحث عن طريق الثقة بالنسبة ، ويجب لذلك عنده أن تكون متواترة وإلا فمشهورة . وإذا وجد النص فيجب أن يكون فهمه على وجه يتفق وعلل الشريعة وأحكامها .

وسبيل التواتر أن يروى الحديث جماعة عن جماعة حتى يؤمن التواطؤ : وأكثر السنة المتواترة فى الأفعال كالشعائر والعبادات ، تتناقلها الأجيال . وسبب ذلك

أن أعمال الرسول هي وسيلة تطبيق لأحكام وردت في القرآن يحاكيها الناس ،
فيتعلمونها ويتوارثونها كأسارب الصلاة والوضوء وشعائر الحج .

وقل أن يوجد حديث قولي متواتر .

فإن لم يكن الحديث متواتراً فيجب أن يكون الراوي عدلاً موثقاً به ينقل عن
عدل موثق به ، وأن تكون الأمة والفقهاء وبعض الصحابة قد عملوا به دون أن
يخالفهم أحد فيه . لأن هذا يدل على إقرارهم لهم ، إذ لو كانوا يخالفونه لردوا
عليه ، ومن هذا النوع كانت الأحاديث التي آلت إلينا عن عمر وابن مسعود ،
روتها جماعة بعد جماعة ومنها حديث . . « لا ضرر ولا ضرار » وحديث :
« إنما الأعمال بالنيات » .

أما ما يخالف القرآن من السنة فليس منها !

وأما أحاديث الآحاد التي يرويها واحد عن الرسول أو اثنان أو جمع لم يبلغ
حد التواتر عن واحد عن الرسول - وما أكثرها - فلا يطمئن إليها أبو حنيفة وإن كان
الكثير منها في نواح أخرى من المسلمات .

وهو يعرض الحديث على عموميات الكتاب وظواهره . والسنة . فإن خالفت
ظاهر القرآن استبعدتها وأخذ بالقرآن ، وإن خالفت السنة المشهورة استبعدتها ،
لأن القوى لا ينسخه الضعيف . وإن طعن فيها السلف رفضها . وكذلك يرفضها
إذا خالفت العمل المتوارث بين الصحابة والتابعين ، وإذا جاءت أخبار الآحاد مخالفة
لقاعدة من قواعد الشرع فلا يعمل بها ، ولا يقبلها في الحدود لأنها تدرأ
بالشبهات ، ولا في الكفارات ، ولا يقبل حديثاً عمل راويه بعد روايته بخلافه ،
ولا يقبله فيما تعم به البلوى ، أو إذا عارضه آخر مثله ، وتأيد المعارض بالقياس .

كان الصحابة الذين أقاموا بالعراقين قلائل أمرهم عمر ألا يتحدثوا الناس . وإياد
مثلاً : كان حذيفة بالمداين وكان واليها سلمان ، وكان حذيفة يذكر أشياء قال
الرسول لأناس من أصحابه في الغضب ، فينطلق أناس ممن سمع ذلك من حذيفة
فيأتون سلمان فيذكرون ذلك فيقول سلمان : حذيفة أعلم بما يقول : وعاتب حذيفة
سلمان على هذا التعبير فتهدده سلمان بقوله : فوالله لتنتهين أو لأكتبن لعمر !

لقد كانوا يهابون الدرّة في يده ! ويعلمون أنه حبس ثلاثة من الصحابة لأنهم
أكثروا الحديث عن الرسول .

سئل أبو هريرة يوماً أكنت تحدث الناس في زمان عمر هكذا ؟ قال : لو كنت
أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربني بمخفقتي .

فلا عجب إذا كانت ظروف العراق توجب الاحتياط في تلقى الأحاديث
ولا عجب إذن في أن يقول أبو حنيفة : « عندي صنديق من الحديث ما أخرجت
منها إلا اليسير الذي ينتفع به . . » ولا عجب أن كان يروى أربعة آلاف حديث .
ألفين عن حماد ، وألفين عن غيره ، وأنه كان إذا هبط الكوفة يحدث بعث
أصحابه على أثره ينظرون هل عنده شيء من الحديث ، ولا عجب مع هذا كله
إذا انحصر المتفق عليه عند الحنفية في قليل جداً من الأحاديث .

كان مالك بن أنس يتخير أحاديثه في الموطأ ينقصها عاماً بعد عام ، وكان
ينهى ابن وهب تلميذه عن الإكثار من السماع الذي لا يحدث به ، بل إنه يندم
على ألا يكون طرح من الأحاديث أكثر مما طرح ، ولما مات وجد في تركته حديث
كثير لم يحدث به .

وهذا وأمثاله رد الفعل لحالة طال عليها العمر بعد أبي حنيفة حتى ليقال إن
البخاري اختار أحاديثه سبعة الآلاف ، ومنها نحو ثلاثة آلاف مكررة ، من ستمائة
ألف حديث كانت متداولة عندما وضع صحيح البخاري !!!

بل قال حنبل بن إسحق عن ابن عمه الإمام أحمد بن حنبل : « جمعنا . . :
وقرأ علينا المسند . . وقال لنا إن هذا الكتاب جمعته من أكثر من سبعمائة وخمسين
ألفاً . . » .

بل يقول أبو زرعة لعبد الله بن أحمد بن حنبل : « كان أبوك يحفظ
ألف ألف حديث » فيسأله الرجل وما يدريك ؟ فيجيب : ذاكرته . فأخذت عليه
الأبواب !!!

ولم يكن مسند ابن حنبل يزيد على أربعين ألفاً من الأحاديث !
فكيف بدولة المحدثين وقد جاء أبو حنيفة ينقصها من أطرافها ويغربلها وينخلها

حتى ليروى بعض المؤرخين أن ما صح عنده سبعة أحاديث متواترة . . ! أو كما قال ابن خلدون : «إن أبا حنيفة رضى الله تعالى عنه باغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوها» !!!

والصحيح أن أبا حنيفة انفرد بمائتي حديث وخمسة عشر حديثاً غير ما اشترك في إخرجه مع سائر الأئمة . وله مسند روى في الصلاة وحدها ٢١٨ حديثاً ولما جمع أبو المؤيد الخوارزمي مسنداً له وقع في ٨٠٠ صفحة .

من أجل ذلك - وتلقاء ما لم يثبت عنده من العدد الضخم من الأحاديث - كانت قواعد أبي حنيفة قبله لا يحس أثرها القارئ بقدر ما أحسه الشهود . أى المعاصرون . وقدر ما نزل بالمصابين وهم الرواة . لقد زلزلت دواة المحدثين زلزالها أمام تلك الغزاة الفكرية . المقبلة من المشرق مع الدولة المقبلة من العراق . حتى جاء الشافعى يرد إليها مكانتها بجده العبقري في بغداد والحجاز وفي الفسطاط . ودياً لذلك الصاحبان نفسيهما بعد إذ مات الشيخ في بغداد وتبعهما الشافعى بأساوبه القرد فاعتزت به دولة المحدثين أيما اعتزاز .

حمى أبو حنيفة الإسلام من أن يقصر الفقه دون مطالبه . فأدخل فيه الاجتهاد وحمى الفقه نفسه من أن يبيد ، بالمبدرة إلى تدوينه . فنقل إلى الأجيال اللاحقة فقهه وفقه السابقين .

وقف أبو بكر عندما ارتد العرب وقفته المشهودة فجرد لقتال المرتدين من استطاع تجريدهم من المسادين الأولين وسقط في هذا القتال كثيرون من الحفاظ . فراح عمر يقول له في إثر واقعة اليمامة: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس . وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه . وإني لأرى أن تجمع القرآن .

ولم يزل يراجع حتى شرح الله صدره لذلك ، ورأى رأى عمر ، فجمعت الصحف ثم صارت «المصحف الإمام» في خلافة عثمان بن عفان . أبقيت منها نسخة واحدة لديه . ووزعت خمسة في الأقطار في مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام . أما السنة فلم تجمع . وإن كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أجاز جمعها .

روى أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو أنه قال : « كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه . . فنهتني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم في الغضب والرضا . فأمسكت عن الكتاب . فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق » . وصحيفة عبد الله هذه هي المسماة « بالصادقة » .

ولما خيف تحريف الأحاديث بعد وفاة الرسول جمع أبو بكر الناس وقال : « إنكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافًا . فلا تحدثوا عن رسول الله شيئًا . فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله ، فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه » .

حتى إذا ولي عمرهم بجمع الأحاديث ، ثم أصبح يومًا فقال للناس : إني كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتبًا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله . وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء .

وأبي ابن الخطاب أن يجمع الأحاديث مع أنه صاحب الرأي في جمع الكتاب العزيز .

كان الصحابة لا يذكرون أحاديث الرسول إلا مقامين على ما أسلفنا من بيان . ولما بعث عمر بعثه الأول إلى الكوفة قال للمبعوثين : « إن أهل العراق لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم برواية الأحاديث وأنا شريككم » .

وقديمًا كان من شرائع إسبرطة ألا تدون القوانين إلا في القلوب وأن يتدرس بها الناس في حياتهم وتدرّب الناشئة عليها في أيامها الأولى ، لتكون الأئمة وعاءها لا النصوص . فمنع « ليكرج » تدوين الشرائع ، وكانت فلسفة التدوين عنده تتحصل فيما عبر به من فلسفته في القيود والحدود حيث قال : « ليست بغير سور هذه المدينة التي لا سور لها إذا كانت تحميها قاوب الشجعان » . وما تزال أمم كإنجلترا دستورها أبو حنيفة

غير مكتوب ، تقوم على حياطته مهج ليس أرخص عندها من أن تسيل في سبيله :
وكانت حضارة الصدر الأول من الإسلام روحية خالصة ، وبهذا نستطيع أن نفهم
تردد الناس في التدوين وقلة حاجتهم إليه . قال قائل : إن إثبات السنن بعد جمعها
ليس أصلح منه قبل ذلك .

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز هم بجمع السنة وتدوينها على يد ابن شهاب
الزهري وأبي بكر محمد بن عمرو بن حزم .

كانت كل الأشياء تلح على الأمة للتدوين سواء في الحديث أو الفقه أو التاريخ
أو الشعر أو العلوم . وكانت أشد حاجة الأمة إلحاحًا حاجة فقهاء إلى التسجيل حتى
لا ينهار بين أيدي الشيع المتخاذلة . وحتى يتمكن الناس كافة منها بتلك الوسيلة التي
لا رسوف مثلها بين الأجيال نعى بها الكتابة . والغذاء الفكري لا يقدم للعقل البشري -
بحق - إلا في وعاء من الورق : في كتاب .

لم تكن الوراقة تكاد تعرف بعد . وكان الورق بعيد المنال : حتى إن الدولة
في عهد المنصور (سنة ١٣٦ - ١٥٨) كانت تكنز القراطيس مخافة نفادها : وفي
ذات يوم وقف المنصور على كثرة القراطيس بخزائنه فأمر ببيعها وإن لم يعط عن كل
طومار إلا دانقًا (١/٦ درهم) وكان الطومار في ذلك الوقت بدرهم . وفي الغداة عدل
عن رأيه واستبقى القراطيس مخافة أن يقع بمصر حادث تنقطع القراطيس بسببه ،
ولهذه العلة كان الفرس يكتبون في الجلود والرق تخلصًا من الحاجة إلى ورق
لا يصنعونه في بلادهم

وكان أبو جعفر يأمر كتابه بجمع الخط حتى لا يسرف كاتب في القراطاس .
وأول من كتب في الطوامير الخليفة الوليد بن عبد الملك . وفي خاتمة القرن الأول
كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل بعث إليه يطلب قراطيس : « دقق القلم وأقل
كلامك تكتف بما عندك من القراطيس » .

وكان ما يكتب في الدواوين يثبت في صحف . فلما جاء خالد بن برمك
وزير السفاح (١٣٢ - ١٣٦) أمر بإثباته في دفاتر .

لكن الكتابة كانت شغل مدرسة أبي حنيفة في عهد المنصور: وقبل ختام ذلك العهد بسنين وعشرات السنين ، كانت المسائل تدون في الحلقة على ما أسلفنا منذ رأسها ، وكان هو يدون لنفسه المسائل وهو تلميذ في حلقة حماد ، كما كان الأئمة والمجتهدون ينظرون في كتبه في حياته . ولم يتأكد لنا التدوين الفقهي عند غيره من فقهاء الجمهور الإسلامي إلا بعد أن كان أبو حنيفة قد أباح رسالته في الكوفة وفي مكة والمدينة وفي كل مكان ، وسجلها تلاميذه في كتبهم ، ثم تحرك دولا ب العلم .

واستخدمت أداة التدوين ، فساعد التدوين على الوراثة ، وساعدت الوراثة على التدوين ، وأخذنا نسمع أن العلماء « أصحاب المخابر » - وبدأ التاريخ بتسجيل فضل أبي حنيفة ، إذا صح ما قيل ، فربط اسمه بالقلم والدواة .

فن أين هذه الكنية للنعمان بن ثابت « أبي حنيفة » ؟

المعول عليه أن التاريخ لا يعرف له من البنين إلا حماداً. وإن التاريخ يذكر نحو الثلاثين من العلماء كانوا بهذه الكنية بعده كالإتقاني والدينوري صاحب كتاب النبات ، والبخاري ، والفارسي الماجمي (من فقهاء الشافعية) والمغربي (النعمان من فقهاء المالكية) ، ثم إن حنيفة إحدى القبائل التي عرض الرسول نفسه عليها . فأبو حنيفة ليست من جراء أبوة لفتاة . ولذلك قال البعض إن سبب هذه الكنية هو أن حنيفة مؤنث حنيف ، والحنيف هو المائل إلى الدين قال تعالى : (قل صدق الله فأتبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) ، وقال جل شأنه : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا) ، ولذلك تسمى الشريعة بالحنيفية السمحة كما قال عليه الصلاة والسلام : « بعثت بالحنيفية السمحة » .

ولكن المرء يتساءل لماذا لم تكن أبا حنيف بدلا من أبي حنيفة ، وإذا أنت الحنيف في شأن من كانوا بكنيته تشبهاً به فلماذا أنثت كنيته هو ؟

ولهذا ننتقل إلى قول آخر قاله (الكافيجي) ، وأورده ابن حجر وردده صاحب عقود الجمان ، وهو أن سبب تكنيته بذلك هو ملازمته للدواة . لأن الدواة تسمى حنيفة بلغة أهل العراق

وسواء أصبح القول أم لم يصح فإنه يصل بيننا وبين عقيدة ثبتت في التاريخ عن ارتباطه بالدواة أو ارتباط اسمه بها وارتباط مذهبه بالتدوين والتحرير .

وهذه هي اليد الكبرى لأبي حنيفة على الإسلام : فإذا كان لأبي بكر وعمر الفضل في تدوين الكتاب العزيز . أو كان لعمر بن عبد العزيز فضل التفكير في تدوين السنن دون أن يتم له ما أراد . فإن لأبي حنيفة فضل تدوين الفقه الإسلامي ، وتدريسه باباً باباً . وترتيب دراساته والأمر بتدوينها ساعة تدريسها ، فدونت في حياته وتضخمت بعد وفاته . فخلفت البحوث الضافية التي شغلت بها المدرسة ثلاثين عاماً أو تزيد . وتلقاها الصاحبان وتلاميذهما وخلفاؤهم . ثم تساعدها الشافعي وتلاميذه : ومالك وتلاميذه . وابن حنبل وتلاميذه وغيرهم من المجتهدين والمقلدين ، فبينوا لنا ذلك الصرح الممرد الذي يقف الرأي إزاءه مشدوداً ، تروعه ضخامته قدر ما تبهره متانته .

ولئن كان قد دون تفسير بعض الآيات لابن عباس من قبل ، أوجمعت بعض السنن ، إن ذلك كان خاصاً بالتفسير والسنة ، وكان فيما يتعاقب بالأحاديث شخصياً لا يتصد به نفع الجمهور . كصحيفة ابن عمرو والمسماة بالصادقة أو صحف الزهري . ولئن قال بعض الفقهاء إن تدوين السنن كان في سنة بضع وأربعين ومائة ، أو حددتها البعض بسنة ثلاثة وأربعين ومائة ! إنها جميعاً تواريخ لاحقة لرياسة أبي حنيفة لحلقة الكوفة ببضعة وعشرين عاماً .

ولقد يكون حقاً ما قيل من أن علي بن أبي طالب كان يجمع في قرابة سيفه بعض أحكام الفقه . وأن بعض الشيعة دونت لهم كتب ، لكن التدوين والتأليف للجمهور الإسلامي على نطاق شامل . لم يبدأ إلا على يد أبي حنيفة .

قيل إن مالكاً جمع الموطأ في ذلك العصر . لكن الموطأ كان كتاب سنة قبل أن يكون كتاب فقه يحتوي عرضاً وشرحاً . وفروضاً وحلولاً وأصولاً وتفاريع وأسئلة وإجابات . ثم إن مالكاً لم يكن قد تخطى السابعة والعشرين عندما كان أبو حنيفة في رياسة الحلقة الكبرى بمسجد الكوفة بعد نحو عشرين عاماً من النجابة والصدارة

في حلقة حماد ، وبعد أن كان يكتب المسائل قبل وفاة أستاذه بعشر سنين ، وكان أبو حنيفة في حلقة حماد تلازمه كنيته التي تحدثنا عنها .

قالوا إنه لما استقامت الأمور لأبي جعفر نخرج حاجماً إلى مكة سنة ١٤٨ فكان فيمن دخل عليه مالك بن أنس فقال : يا أبا عبد الله إني رأيت أني أجلسك في هذا البيت فتكون من عمار بيت الله الحرام وأحمل الناس على عامك ، وأعهد إلى أهل الأمصار يوفدون إليك وفدكم ، لتحملهم من أمر دينهم على الصواب والحق . فقال مالك : « يا أمير المؤمنين إن أهل العراق قد قالوا قولاً تدوا فيه طردهم فإن رأى أمير المؤمنين إقرارهم على حالهم فإفعل . . . فأعفني . . . فأعفاد » .

وذكروا أن مالكا حج في سنة لاحقة فقال له أبو جعفر : « يا أبا عبد الله ضع هذا العلم ودون منه كتباً . . . واقصد إلى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة لتحمل الناس إن شاء الله على عامك ، وكتبك . . . فقال مالك : أصلح الله الأمير : إن أهل العراق لا يرضون علمنا ولا يرون في عامهم رأينا . فقال أبو جعفر : يحملون عليه وتضرب عليه هاماتهم بالسيف . . فتعجل بذلك وضعها فسيأتيك ابني المهدي العام القابل إن شاء الله إلى المدينة يسمعها منك ، وذكروا أن مالكا لما أخذ في تدوين كتبه قدم عليه المهدي فأناه بكتب المرطأ فأمر المهدي بانتساخها وأمر له بأربعة آلاف دينار . . . ولا يذنه بألف .

ولم يكن مالك يحب الكتابة ف قيل له : ماذا نصنع ؟ قال : تحفظون وتفهمون حتى تستنير قلوبكم ثم لا تحتاجون إلى الكتابة !

وكان ابن حنبل مثله يكره أن يكتب كلامه . وهي ظاهرة نعرف أسبابها من جواب جابر بن يزيد إذ قيل له إنهم يكتبون ما يسمعون منه ، فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون . يكتبونه وأنا أرجع عنه غداً ! »

والذي روى عن أبي جعفر في تكليف مالك ، روى مثله عن الرشيد مع مالك . وسواء أصح تكليف هذا له أو ذلك ، فإنما كان بعد سنة ١٥٠ أو سنة ١٤٩ أو سنة ١٤٨ أي بعد أن استأثر ثرى الكوفة بعظام أبي حنيفة . أو بعد أن كان قد أدى رسالته وأمر بالتدوين تلامذته على النحو الذي شرحنا .

إنما تنتسب النهضة الرائعة في التدوين إلى أبي حنيفة وتلاميذه وتلاميذهم .

الذين أقبلوا على التدوين مدفوعين بغريزة الأمة المشغوفة بالتأليف والتصنيف ،
بالإملاء أو بالكتابة ، في الس الإفتاء أو في مقاعد الدرس ، حتى لتجد في خاتمة
القرن الرابع أو فاتحة القرن الخامس مجاساً للطيب الصعلوكي يضع فيه الشيخ في
وقت إملائه أكثر من خمسمائة محبرة . . . !

لم يضع الصحابة والتابعون في علم الشريعة أبواباً مبررة ولا كتباً مرتبة . وإنما
كانوا يعتمدون على قوة فهمهم ويجعلون قلوبهم صناديق علمهم . وجاء أبو حنيفة
بعدهم فرأى العلم منتشراً فخاف عليه الخلف السوء أن يضيعوه ، فدونه ورتبه مبتدئاً
بالطهارة ثم بالصلاة ثم بسائر العبادات ، ثم ختم بكتب المواريث لأنها آخر أحوال
الناس : وهو أول من وضع كتاب الفرائض وكتاب الشروط .

رووا عن مالك أنه قال : وضع أبو حنيفة ستين ألف مسألة في الإسلام . وقيل
ثلاثة وثمانين ألفاً منها ثمانية وثلاثون ألف أصل في العبادات وخمسة وأربعون ألف
أصل في المعاملات وقيل بل خمسمائة ألف . . .

وروا أن مالكا كتب إلى خالد بن مخلد القطراني يسأله أن يحمل إليه كتب
أبي حنيفة ففعل .

وصنع ذلك الأوزاعي مع عبد الله بن المبارك بصدد كتب أبي حنيفة كما سرى
بعد . وصنعه الشافعي عن طريق محمد بن الحسن .

وصنعه سفيان الثوري : فرأى الرأى تحت رأسه كتاباً استأذنه في قراءته فإذا هو
كتاب أبي حنيفة في الرهن فسأله : أنتظر في كتبه ؛ قال : وددت أنها كلها
مجتمعة عندي .

صنع هؤلاء الأئمة ذلك وصنعه الفقهاء والمجتهدون والمقلدون والناس جميعاً .

الباب التاسع

إمام أهل الرأي

« علمنا هذا رأي فن جاءنا بأحسن منه قبلنا »
« أبو حنيفة »

كان أبو حنيفة قياساً « يقيس المسألة على أخرى ليردها إلى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة فيجتهد ويدور حول الاتباع » كما قال :

أو كما قال في وصيته لنوح بن مريم عندما ولي نوح القضاء بمرو :
« إن أبواب القضاء لا يدركها إلا العالم النحرير . . فإذا أشكل عليك شيء من ذلك فارحل إلى الكتاب والسنة والإجماع ، فإن وجدت ذلك ظاهراً فاعمل به ، فإن لم تجده ظاهراً فرده إلى النظائر واستشهد عليه الأصول ، ثم اعمل بما كان إلى الأصول أقرب وبها أشبه » .

كان القياس هو النبع الذي سال منه فقه أبي حنيفة فبلغ هذا الشأن البعيد من التفصيل والشمول والانتشار ، وأضحى في متناول الكفاة حلول لكل ما يعرض لهم من شؤون المعاش والعبادات .

ولم يكن من ذلك بد . فالناس في بحر الحضارة الجديدة أحوج ما يكونون إلى معالم تعين حدوده وأدوات تتيح إراكبيه أن يسبحوا فيه . ولا غنى في تلك القلة النادرة من الآيات أو الروايات . لأن النصوص متناهية والوقائع غير متناهية ، والذي له نهاية لا يضبط شيئاً بلا نهاية .

فإما أن يترك الناس مع أهوائهم في المتاهات . وإما أن يقفوا تاقاءها ، جامدين . فلا يكون بد من التوقف المؤدى إلى تعطيل التكليف أو إلى مالا يطاق . وإما أن يؤذن الناس بالاجتهاد . لأن الوقائع لا تختص بزمان دون زمان .

وفي بلد متحضر كالعراق . حيث تجمعت قوى الإسلام لتناطق في مضمار الحضارة ، كانت تقع أمور ذات بال تدفع الفقيه إلى الابتكار . فلا معدى عن الاجتهاد بالنسبة للعالم والقاضي والكافة باستنباط القواعد العامة من الشريعة لتقاس عليها المسائل التي تحدث للناس .

والقياس في كتاب الله كثير ، من ذلك قوله تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى

الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) ،
وأول أبواب الاستنباط وأعلامها هو القياس .

وفي السنة اجتهادات وقياسات كثيرة : قصد إلى الرسول رجل ينكر ولدأ
له رآه جاء أسود فقال عليه الصلاة والسلام : « هل لك إبل ؟ » قال : نعم .
قال : « ما ألوانها ؟ » قال : حمر . قال : « هل فيها من أورك ؟ » قال :
نعم . قال : « فبن أين ؟ » قال الرجل : لعاه نزعة عرق « قال : « وهذا لعاه
نزعة عرق . » .

قال ذلك عليه الصلاة والسلام من أربعة عشر قرنًا ويقواه العلم الآن .
واجتهاد النبي اجتهادات صححها القرآن : وفي بعض ذلك قوله سبحانه :
(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ) . ولما
أذن للمنافقين في التخلف عن غزوة تبوك نزل قوله تعالى : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ
لِإِمِّ أَذْنَبْتَ لَهُمْ) .

بل إن من اجتهاداته عليه الصلاة والسلام ما صححه الصحابة أنفسهم .
كيوم نزوله في بدر دون الماء فقبل له بوحى أم برأى ؟ .

أما اجتهادات الصحابة . فكانت كالعلامات التي تشير إلى ما تحت
الثرى من كنوز . أمر النبي صحبه يوم الأحزاب بأن يصلوا العصر في بني
قريظة . فاجتهد بعضهم فصلاها في الطريق . قائلين إن النبي أراد السرعة . وأبى
آخرون إلا أن يصلوها في بني قريظة فصاوا هنالك ليلا - ودؤلاء دم ساف
أهل الظاهر - الذين يتمسكون بظاهر النصوص : أما الأولون فهم الآباء المفكرين
لأصحاب القياس والاجتهاد .

ولما كان علي بن أبي طالب باليمن اختصم إليه ثلاثة نفر في غلام وقعوا
على أمه في طهر واحد فقال لاثنين منهم : طيبا بالولد لهذا . قالا : لا . قال
لاثنين فيهما الثالث : طيبا بالولد لهذا قالا : لا . قال : أنتم شركاء متشاكسون
إني مقترع بينكم . ففرع بينهم وجعل الولد للقارع ، وجعل عايه للرجلين ثلثي
الدية .

فبلغ ذلك الحكيم النبي فضحك حتى بدت نواجذه من فضاء علي .

واجتهد صحابيان خرجا في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فصليا ثم وجدا الماء . الوقت فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر فصوبهما النبي وقال للذي لم يعد أصبت السنة وأجزأتك صلاتك ، وقال للآخر : لك الأجر مرتين . ولما قتل خالد بن الوليد قوماً قالوا : صبأنا . قال النبي : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » ووداهم من مال المسلمين لا من مال خالد وعذره لاجتهاده . لكن الصحابة لم يكونوا كلهم عليا ولا عمر وأمثالهما فكانوا يتخرجون دون القياس أو الاجتهاد . وكان التابعون كمثلهم بل أشد حرجاً . . . كان سعيد بن المسيب واسع الفتيا حتى ليسمى سعيد بن المسيب الجريء . فكان الرجل يدخل فيسأل عن الشيء فيدفعه الناس من مجلس إلى مجلس حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب كراهية للفتيا .

ولقد أثر عن حذيفة أنه قال : « إنما يفتي الناس أحد ثلاثة : رجل يعام ناسخ القرآن ومنسوخه وأمير لا يجد بدءاً أو أحقق متكاف » ، فقال ابن سيرين : فأنا لست أحد هذين فأرجو ألا أكون أحقق متكلفاً . حتى إذا جاء أبو حنيفة وضع يده على تلك الأداة بشئ أسمائها (القياس . أو الاستنتاج . أو الاجتهاد . أو الرأي) وقابها في كفه كعصا موسى . فجاءت بالأعاجيب .

ومضى الأئمة على غراره وجري المجتهدين في غباره . اللهم إلا أشياخ داود الأصفهاني (الظاهري) الذين يقولون بأن العدة على ظاهر النص ، وإن في عمومات النصوص كفاية للأمة . وقد درس مذهبهم .

وإذا بتلك الثروة الضخمة من التشريع الإسلامي تربووتندو حتى ترفع الفقه الإسلامي إلى مستواه الرفيع العالی بين مستويات الشرائع المقارنة نطاع إليه في قومه الشوامخ . ذلك الفضل من الله أتاه أبا حنيفة . وهو الذي جعل الشافعي يهتف بذكره قائلاً : « من أراد أن يعرف الفقه فليأزم أبا حنيفة وأصحابه فإن الناس كلهم عيال عليه في الفقه » .

وانتقلت هذه العصا السحرية إلى اللغة والنحو كما يذيع الخير ، ويشيع النور . وتنتقل الصحة - والصحة تعدى كما يعدى المرض - فإذا بالقياس

في البصرة والكوفة بيهب اللغة العربية طرازات كأنها الاختراعات . . . فلو كنت من أهل البوادي في ذلك الزمان ممن يعولون في اللغة على السماع وحده كهؤلاء الذين كانوا يعولون في الفقه على النصوص وحدها ، ثم جئت إلى مصر أو إلى الشام بله العراق - بعد أن أعمل علماء الكوفة والبصرة في اللغة آلة القياس - لظننت أن العربية التي تسمعتها ليست هي العربية التي تعهدنا .

كان أبو حنيفة منطقيًا ، والمنطق جوهره القياس . فليس كالشرع مضمار لفارس هذه كفاياته .

وإذا كانت الشريعة معقولة المعنى ، فلماذا لا يتعرف المجتهد . باستقراء الأحكام الشرعية ، وجوه المصلحة في النصوص ليستخرج منها القواعد العامة التي يقوم الشرع عليها ، ويلحق مالا نص فيه بما فيه نص لا تحاد عاة الحكم في الأمرين ؟ وما دامت الشريعة منوطة بمصالح العباد فلا بد من أن تتفق أوصاف أحكامها مع أسبابها من دفع ضرر أو جلب نفع .

فالتقياس الصحيح دائر مع أوامر الشريعة ونواهيها وجوداً وعدمًا . كما أن المعتول دائر مع أخبارها وجوداً وعدمًا . فلم يخبر الله ولا رسوله بما يناقض صريح العقل ولم يشرع ما يناقض العدل . وعلى ذلك ففي كل ما يمكن أن يحدث من الأحداث حكم للإسلام سواء بنص أو باجتهاد حيث لا نص .

وإذن فليعمل المفكرون فكرهم في تعرف العلل وإضافة الأحكام إليها وضبط النتائج . وتفريع الفروع . في فهم وإحاطة لحاق الأحكام وبتكاد الآراء ، وفي ذلك تتفاوت الملكات . وتتميز الكفايات من الكفايات . تتميز الزجاج من البلور وتميز البلور من الماس . ذلك يخرقه الشعاع بلا حائل وذلك يعكس الأضواء بعض الانعكاس . أما الماس فهو الماس . يعكس الشعاع ألف شعاع ويسكب فيها فيوضاً من النور والبهجة والائتلاق .

لقد طالما نزل أبو حنيفة إلى معارك المتكلمين في صدر شبابه فخالفه النزال أثره في ملكة الحدال ، وربط حاضره بماضيه في حياة عملية ذات الوا وأحداث .

والجدال هو العدة الأولى للعقل الفقهي سواء في الفقه أو القضاء أو الدفاع لأنها جميعاً تقوم على التعليل أو التسبيب أو الموازنة أى على القياس .

لم يك أبو حنيفة إلا غلاماً طرى الإهاب عندما صحب الشعبي في سفينة فسمع الشعبي يقول : « لا نذر في معصية ولا كفارة فيه » ، فاستوى الفتى الرشيق الفهم ، مناظلاً راشق السهم . يقول : « بل فيه الكفارة لأن الله سبحانه وتعالى جعل في الظهار الكفارة بعد أن جعاه معصية فقال : (وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا) وقد أوجب فيه الكفارة ..) فلم يحرجهم المحدثين جواباً سوى أن قال : أقياس أنت ؟ .

والظهار لغة هو أن يظاهر الرجل من امرأته إذا قال لها . أنت على كظهر أمي ، وشرعاً هو تشبيه المسلم زوجته أو جزءاً منها بمحرم عليه ، مؤبداً .

ولو امتد الأجل بالشعبي أعواماً لجاءته الأيام بالجواب عن أبي حنيفة .

إنه لفي المسجد ذات يوم والأبيض بن الأعز يقايسه في مسألة يدبرونها بينهم ، إذ صاح من ناحية المسجد فتى أزله الخاق الشكس فقال : ما هذه المقاييسات ؟ دعوها فأول من قاس إبليس ، فلم يغضب أبو حنيفة لأن الغضب خلة لسلب الحجية ، بل أقبل على الفتى يكتبه بأى الكتاب . فذلك أدنى ألا يرتاب . قال : يا هذا وضعت الكلام في غير موضعه ، إبليس رد على الله سبحانه وتعالى أمره فقال سبحانه وتعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنِ أَمْرِ رَبِّهِ) . وقال تبارك وتعالى (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) . وهذا القياس الذي نحن فيه نطلب فيه اتباع أمر الله تعالى لأننا نرده إلى أصله ، أمر الله تعالى في كتابه ، أو إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إلى قول الأئمة من أصحابه والتابعين ، فاتبعنا أيضاً في ردنا كتاب الله وسنة رسوله والإجماع : فنحن ندور حول الاتباع فنعمل بأمر الله تعالى ، وإبليس حيث قاس خالف أمر الله تعالى وردده فكيف يستويان ؟

أتت الفتي هذه الحجج بغتة فبهتته ، وكأنما أحاطت به خطيئاته ، فرأى العذاب وتمطعت به الأسباب وراح يقول : غلظت يا أبا حنيفة وتبت . نورالله قلبك كما نورت قلبي . . .

كان من رأيه أن قراءة المصلين خلف الإمام في الصلاة تكفي عنها قراءة الإمام ، فتمسّد إليه رهط من أهل المدينة يحاجونه ، قال : لا يمكنى مناظرة الجميع فولوا أعلمكم . فاختاروا لجداله أعلمهم . قال : وهل إذا ناظرته أكون قد ناظرتكم ؟ قالوا : بلى : قال : إن ناظرته لزمتمكم الحججة لأنكم اخترتموه فجعلتم كلامه كلامكم . وهكذا نحن اخترنا الإمام فقراءته قراءتنا وهو ينوب عنا . فأقروا بالإلزام .

كان يبحث عن علم النصوص فيجري الحكم الشرعي على مقتضاها لا على ظاهر الألفاظ . فإذا سمع حديث النبي عن الزكاة أن في كل أربعين شاة شاة ، رأى أن مراد الحديث أن يتصدق صاحب الأربعين بشاة من الأربعين أو بما يعادل ثمن شاة . وإذا طبق حديث صدقة الفطر صاع من تمر أو شحير . قال : إنما يراد به أن يتصدق المرء بصاع أو ثمن صاع أو بدقيق الصاع .

وإذا فسر رواية أبي هريرة لحديث الرسول عن رد الشاة المصراة بعد احتلابها ورد صاع من تمر « وهي الشاة التي يُربط ضرعها قبل البيع حتى يظن المشتري بها غزارة اللبن » فالمقصود عنده هو الصاع أو ثمن الصاع . ذلك بأن أبا حنيفة يرى أن ضمان التلف في الشريعة هو أن يرد المثل إن كان التلف من ذوات الأمثال أو القيمة إن كان من ذوات القيمة . أما المدرسة الأخرى فتري أنه لا يجزئ عن شيء من ذلك ثمنه أو مثله .

» » »

قالوا إنه يترك النصوص والأحاديث لأقيسته ! والحق غير ذلك : فأبو حنيفة هو القائل : « وكل شيء تكلم به عليه السلام فعلى الرأس والعين قد آمننا به

وشهدنا بأنه كذلك ، ونشهد بأنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بشيء يخالف أمر الله ، ولم يقل غير ما قاله الله تعالى وما كان من المتكلفين . قال تعالى : (من يُطعُ الرسول فقد أطاع الله) وإن كتب أبي حنيفة للمأى بترك القياس إلى الحديث .

قال زفر : لا تلتفتوا إلى كلام المخالفين فإن أبا حنيفة وأصحابه لم يقرؤا في مسألة إلا من الكتاب والسنة والأقوال الصحيحة ، ثم قاسوا بعد عاينها .
والشافعي نفسه يقول : « أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد وما يخال من مخالفتهم للسنة فعذرهم أنه لم يصلهم الحديث أو وصلهم ولم يثقوا به . . . »
إنما كان الأمر عند أبي حنيفة وصحبه أمر ثبوت السنة أو عدم ثبوت .
قال ابن خلدون : « واعلم أيضاً أن المجتهدين من الأئمة تفاوتوا في الإكثار من هذه الصناعة . وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين إلى أن منهم من كان قائل البضاعة في الحديث ، فلهذا قلت روايته : ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة وإنما قال منهم من قائل الرواية لأجل المطاعن التي تعترضه فيها . . . »
وقديماً قدم علي بن أبي طالب القياس على خبر الواحد .

قال أبو يوسف : « ما خالفت أبا حنيفة في شيء فتدبرته إلا رأيت مذهبه الذي ذهب إليه أنجي في الآخرة وكنت ربما ملت إلى الحديث وكان هو أبصر بالحديث مني . . . »

وفي سبيل الاستيثاق من الروايات اعترت مدرسة الكوفة وأستاذها بإساسة الكوفة ورواتها .

اجتمع أبو حنيفة والأوزاعي بدار الحنطين بمكة ، فسأله الأوزاعي عن سبب عدم رفع أيديهم عند الركوع في الصلاة وعند الرفع منه . فأجابته : لأنه لم يصح عن النبي شيء فيه . قال الأوزاعي : كيف وقد حدثني الزهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع . قال أبو حنيفة : حدثنا حماد عن إبراهيم عن علقمة

والأسود عن ابن مسعود أن رسول الله كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ولا يعود إلى شيء من ذلك .

قال الأوزاعي : أحد تلك عن الزهري عن سالم عن أبيه وتقول حدثني حماد عن إبراهيم فأجاب أبو حنيفة : كان حماد أفقه من الزهري .

وكان إبراهيم أفقه من سالم .

وإن كان لا بن عمر صحبة أو له فضل صحبة . فالأسود له فضل كثير .

وعبد الله هو عبد الله .

أما عن سلسلة الأوزاعي : فالزهري هو ابن شهاب وأما سالم فهو ابن عبد الله بن عمر وأبوه عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان عبد الله كثير الاتباع بالأثار ينزل منازل الرسول حيث كان يصلي . ويتعهد الشجرة التي جلس تحتها الرسول حتى لا تتيبس . لكنه كما قال عنه الشعبي وهو أحد خصوم الرأي : كان جيد الحديث ولم يكن جيد الفقه .

أما سلسلة أبي حنيفة فهي سلسلة الكوفة : حماد هو أستاذ حماد، وإبراهيم هو إبراهيم النخعي . وعاتمة هو عاتمة النخعي الذي قال عنه ابن مسعود إنه ما قرأ شيئاً أو علمه إلا قرأه عاتمة أو علمه . والأسود هو الأسود بن يزيد بن أخي عاتمة وتلميذ حماد وابن مسعود : وأما عبد الله فهو عبد الله بن مسعود العظيم .

ولقد كان الأوزاعي يجادل في أبي حنيفة قبل أن يجادله أبو حنيفة .

قال عبد الله بن المبارك : « قدمت الشام على الأوزاعي فرأيت به بيروت فقال لي : يا خراساني من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة ؟ فرجعت إلى بيتي فأقبلت على كتب أبي حنيفة فأخرجت منها مسائل من جواد المسائل وبقيت في ذلك ثلاثة أيام فجئت يوم الثالثة ، وهو مؤذن مسجدهم وإمامهم ، والكتاب في يدي فتال : أي شيء هذا الكتاب ؟ فذاولته فنظر في مسألة منها ... فما زال قائماً بعدما أذن حتى قرأ قدرًا من الكتاب ثم وضع الكتاب في كفه ثم قام وصلى ثم أخرج الكتاب حتى أتى عليها ، ثم قال لي : يا خراساني من النعمان بن ثابت هذا ؟ قلت : شيخ لتيمته بالعراق . فقال : هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه . قلت : هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه .. »

فلما اجتمعا بمكة جراه في تلك المسائل فكشفها له أبو حنيفة بأكثر مما كتبها عنه ابن المبارك : ولما افترقا قال الأوزاعي لا بن المبارك : « غبظت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله وأستغفر الله تعالى لقد كنت في غلط ظاهر . الزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغني عنه . »

وكما كشف الأمور للإمام « الأوزاعي » كان يكشفها للإمام « الثوري » : جاءه رجل يقيمه الهم ويتمعه قال : حلفت بالطلاق لا أكلم امرأتى قبل أن تكلمنى . قالت : والعتاق لازم لا أكلمك قبل أن تكلمنى — فكيف أصنع ؟ قال : اذهب فكلمها ولا حنث عليكما ، فذهب الرجل إلى « سفيان الثوري » فهرول سفيان إلى أبي حنيفة يقول : « أتبيح الفروج » قال أبو حنيفة : « هو كذا : إنها لما قالت له وعلى العتاق إلخ .. شافهته بالكلام فانحلت يمينه ، فإذا كلمها لم يقع الطلاق » .

قال الثوري : إنك لتكشف ما كنا عنه غافلين :

حتمًا : كم كان صحيحًا قول الشافعي : « قول أبي حنيفة أعظم من أن يدفع بالهويناء » . وقول عبد الله بن المبارك : « رأيت الأكابر في مجلس أبي حنيفة صغاراً وما رأيت أحداً حاور أبا حنيفة إلا رحمته » .

بل قوله : هاتوا لي مثله وإلا فدعونا ولا تعذبونا .

* * *

ويتصل بمذهب أبي حنيفة في القياس مذهبه في الاستحسان وهو الأخذ بمصلحة جزئية في مقابل دليل كلى : يلجأ إليه إذا كانت نتائج القياس لا تستساغ بأن كان طرد القياس يؤدي إلى غلو في الحكم ومبالغة فيه فيعدل عنه في بعض المواضع ، وينتفى المجهود بما يحسن وقعه في النفس في تلك الحالة بذاتها ، فيفرد للوصف الذى تحس به نفسه حكماً غير ما ينتجة القياس .

قال عليه الصلاة والسلام : « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون ... »

ولقد نعوا على أبي حنيفة تركه القياس إلى الاستحسان ، قولا بأنه خروج منه

عن قاعدته الكبرى وهي القياس ، لكن الذين أخذوه على الاستحسان طالما كانوا يستحسنون .

رووا عن مالك أنه قال : « تسعة أعشار العلم الاستحسان » .

إن القياس أداة تحركها عين باصرة ويدكلها إحساس ، والمفكر الذي كانه أبو حنيفة ليس هو الذي تستعبده أدواته ، ومن يصنع شيئاً لا يسجد له . والرجل الذي يطبعه الحسن في ذاته ، وفي كل أسباب حياته ، لم يكن ليتجنبه في مقولاته .

قال محمد بن الحسن : كان أبو حنيفة يناظر أصحابه في المقاييس فينصفون منه ويعارضونه حتى إذا قال استحسن لم يلاحقه واحد منهم لكثرة ما يورد في الاستحسان فيدعونهم جميعاً ويسلمون له . بل قال ابن شبرمة : إن كان يجوز لأحد أن يتكلم في دين الله برأيه فأبو حنيفة إذا قال استحسن .

حضر مع العلماء وليمة رجل زوج ابنتيه من أخوين فخرج الولي وهو يقول : أصبنا مصيبه عظيمة . غلطنا فزفت إلى كل واحد غير امرأته وأصابها . قال سفيان : لا بأس بذلك كما حكم به على كرم الله وجهه ... فقال : أرى أن عرس كل المهر بما أصاب من المرأة وترجع كل إلى زوجها . فاستحسن الناس منه ذلك وأبو حنيفة ساكت . فقال له مسعر : قل فيها . قال سفيان : وما عسى أن يقول خلاف هذا ... قال أبو حنيفة : على بالغلامين . فأحضرا . فقال لكل واحد منهما : أتحب أن تكون عندك التي زفت إليك ؟ قال : نعم ، قال : فما اسم امرأتك التي عند أخيك ؟ قال : هي فلانة . قال قل هي طالق مني . ثم زوج كلا المرأة التي مسها . وأمرهم بتجديد عرس آخر . فعجب الناس من فتياه بذلك حتى قام مسعر فقبله وقال ، تلوموني على حبه ... وسفيان ساكت لا يقول شيئاً وكلا الحكمين حق : فحكم على حكم الوطاء بشبهة وهو يجب فيه المهر . يرفع النكاح ...

وحكم أبي حنيفة حكم يدرء ما يترتب من التمسوة بعد إذا أفضت كل امرئ إلى رجل بما أفضت من أسنهما مما تعلق به الأنفس . ولو صارت تحت غيره

فكان حكم أبي حنيفة إلهامًا موفقًا ، لأن لصاحب عدة الوطء شبهة أن يعقد بالموطوءة فيها ، وفي ذلك من المصلحة ما أسكت سفيان وجعل مسعراً يقباه .

* * *

قال أبو حنيفة يوماً لتلميذه داود الطائي عن العلم : أما الآلة فقد أحكمناها .
قال داود : وهل بقي شيء ؟ قال الإمام : العمل .
فلننقل عنه هذا التصوير للعلم إلى الآلة التي صيرت علمه مذهباً في العالمين وهي أداة الاجتهاد أو أداة القياس .

وضع أبو حنيفة يده على تينك الآلتين فاختلفتا في يده وصارتا كالمولد العظيم للقوى، وجرى اسمهما في التاريخ على أنهما (الرأى) :: أو كما قال الشافعي أصبحا اسمين لمعنى واحد . ذلك بأن الاجتهاد لا يكون إلا بدلائل والدلائل هي القياس ، وإذا بهذه الحركة الفكرية الكبيرة تدب في كل الآلات والمحركات، وإذا بحلقات الفقه تضحى كعامل الإنتاج الكبير، حتى تكاد الأذان تسمع وقع العجلات ودق الآلات وجلبة العمال خلال هذه القرون الاثني عشر، وإذا بهذا الروح الخالق يهيب الحياة للإنتاج الهائل الذي خلفه لنا القرنان الثاني والثالث ومازال يهيب الفقه حياته كلها إلى الآن .

حقاً إن هاتين الآلتين لم تكونا من مخترعاته لأن النبي والصحابة قد اجتهدوا وقاسوا . لكن الرسول إذ يشرع هو صاحب الشريعة ، واجتهادات ابن الخطاب عمريات ليس يقدر عليها سوى الفاروق ، كذلك كانت اجتهادات أبي بكر وعلى وما عداها من اجتهادات الصحابة والخلفاء ، لم تلك إلا ومضات ناطقة لمعت في المناسبات ، أما الفتى الخزاز كما يسميه ابن أبي ليلى . فلم يكن أميراً للمؤمنين ولا والياً ولا قاضياً ، لكنه جعل هذه الومضات العابرة شمساً تغمر الأكوان كلها بالنور، واتخذ منها نمثلاً شامخاً يربط كل ما في الوجود إلى قاعدته بخيوط من الشعاع الذهبي المسمى بالفكر . فيتحكم فيما حدث وفيما سيحدث ، وفيما قد لا يحدث من الأمور .

وأيه جسارة كانت هذه الجسارة

لقد كان أبو بكر يقول : « أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في

القرآن مالا أعلم» وهو مقال ينم عن خطورة التعرض لتطبيق أحكام الكتاب ،
وتفسير آياته .

سئل أبي بن كعب وهو من فقهاء الصحابة المقدمين عن شيء فقال : أكان
هذا؟ قال السائل : لا . قال : فأجبتنا حتى يكون فإذا كان «اجتهدنا» لك رأيًا .

وروى عن زميله زيد بن ثابت أنه كان إذا استفتى في مسألة سأل عنها ،
فإن قيل له وقعت أفتى فيها . وإن قيل له لم تقع قال دعها حتى تكون .

وكان عبد الله بن عمر لا يكثر من الفتوى تورعًا منه . برغم أنه تصدى
لإفتاء الناس ستين عامًا . وأن أهل الشام مالوا إلى توليته الخلافة فزهد فيها .

وكان التابعون يرفضون الجواب عما لم يقع كأن في الافتراض نجامة أو رجماً
بالغيب أو تحديًا للمستقبل . مخافة أن يحلوا حرامًا أو يحرموا حلالًا دون إمام تام
بالظروف .

سئل سالم بن عبد الله بن عمر عن مسألة فقال : لم أسمع في هذا شيئًا .
قال السائل : فأخبرني أصلحك الله برأيك : قال : لا . ثم أعاد عليه فقال :
أرضى برأيك . فقال سالم : إني أعلم إن أخبرتك برأي ثم تذهب فأرى بعد
ذلك رأيًا فلا أجذك .

قال ابن سيرين : أول من قاس إبليس . وما عبدوا الشمس والتممر إلا
بالمقاييس . وروى الليث بن سعد أنه جاء ابن شهاب الزهري بشيء من الرأي
فقبض وجهه كالكاره . ثم جاءه بأحاديث من السنن فتهلل وجهه وقال : إذا
جئني فأتني بهذا .

وكان الشعبي يقول : « ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن والروح
والرأي » .

ويقول : احفظ عني ثلاثًا لها بيان : إذا سئلت عن مسألة فأجبت فيها فإني
تتبع مسألتك رأيت (أى لا تفترض) فإن الله تعالى قال في كتابه
(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ . . .) وإذا سئلت عن مسألة فلا تقه

شيئاً بشئٍ فربما حرمت حالاً أو حلت حراماً ، وإذا سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم : وأنا شريكك .

كان ذلك قبل أن يظهر علم أنى حنيفة ، وكان كذلك من بعد ظهوره : روى أسد بن الفرات بعد إذ قدم إلى المدينة على مالك « وكان ابن القاسم وغيره من أصحابه يجعلونى أسأله فإذا أجاب يقولون قل له : فإذا كان كذا؟ فضاق على يوماً فقال لى : « هذه سليسة بنت سليسة ، إن أردت هذا فعليك بالعراق » .

وفى كلمة مختصرة كان أهل الأثر لا يأخذون بالرأى إلا اضطراراً ، مكرهين عليه إكراهاً ، ولا يستخرجون أحكاماً لمسائل لم تقع بل لا يفتون إلا فيما يقع . لكن أبا حنيفة إذ يقدم للناس أداة الرأى أو القياس فيما وقع وفيما لم يقع ، لا يفرق مما قدمت يدها . بل يفرضها على الفقهاء فرضاً ، ويهيب بالعلماء أن ينهجوا طرائقه وأن يفيدوا منها ، ثم يقف إلى جانبها جباراً يملأ العين والسمع ويزحم حواس الناس أجمعين ، عقوداً ثلاثة أو أربعة من القرن الثانى للهجرة : معلناً لاملأ أنها أدواته التى يخلق بها مالا يعلمون ، وأن العقل والنقل . أو الفكر والنصر ، هما الأساس الذى تبنى عليه أصول الفقه الإسلامى وفروعه ، حتى إذا سجلوا عليه وزر هذه الأداة باهى بما سجلوا عليه وكافح فى سبيله .

ذلك الرجل إذا لم يك مخترع هذه الأداة فإنه كاشفها الذى جمع القطر فصيره من فيض عقله بحاراً . والكشوف العلمية لم تخترع المكتشفات اختراعاً ، وإنما بصرت بها بين المجاهيل : والرسالات الفكرية كالكشوف تهدى إلى الحق الكائن بعد أن يسبقها التمهيد والإعداد والارتياح :

لم تكن الكهرباء ابتداءً ، ولا الراديو ، ولا البسترة (التعقيم على طريقة باستور) ولا أمثالها ، وإنما هى كشوف هدت إليها الصدفة حيناً والكدر والضنى أحياناً .: وكذلك كان كشف المولد الذى قدمته مدرسة الكوفة إلى العالم الفقهى ، أثراً لجهد ناصب دام أربعين عاماً فى عهد أبى حنيفة ، بعد أن ظل قرناً كاملاً من الزمان جنيناً يضطرب فى بطون التاريخ الإسلامى ، حتى قدمته يد أبى حنيفة إلى الوجود :

ترى ماذا كان مصير الشريعة الإسلامية إذ هي وقفت في حدود ظاهر النصوص أو اكتف بمدلولاتها المباشرة . سواء في المائتي آية أو العدد القليل المسامح به من الأحاديث أو غير المسلم به منها . أو بذلك الاجتهاد الفردي أو القياس العرضي ! ترى ماذا كان مصير هذه الحضارة الإسلامية إذا لم تستند إلى قواعد مستنبطة من المنقول والمعقول من أصول الحنيفية السمحة التي يهدف إلى نشرها هذا الدين ؟؟ ماذا كانت صناعة هذه الآلاف من الملايين وهذه الهزات الفكرية وهذه الحياة الدائمة المتجددة . وهذا العالم المتباين المتغاير . وهذه القرون التي يحمل كل منها طابعه . وهذه البقاع والأجناس والحضارات . من آسيوية إلى أندلسية ومغربية وهندية وصينية وأوربية ومصرية وغيرها ! ومن حضارة القرون الأولى إلى حضارة القرون الوسطى إلى حضارة الآلات !

إنما يرجع الفضل في سداد الشريعة الإسلامية لمطالب الحضارة الإسلامية إلى هذا المولد . الدائم التوليد . مثله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة يتضاعف نباتها دواليك حتى يكسف القمران . أو كالمتواليات الهندسية التي تجعل العدد البسيط (١٠ مثلا) مائة مليون في ثلاث عمليات فحسب . أو كالجواهر الأصلية التي تخرج منها كل المركبات وتستجيب لجميع الحاجات .

لكأنما كان أبو حنيفة يعنى نفسه حيث يقول : « من يطالب الفقه ولا يتفقه مثل الصيدلاني يجمع الأدوية ولا يدري لأي داء هي . كذلك طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه حتى يجيئ الفقيه » .

والذي يقوؤه عن طالب الحديث هو القول الصحيح فيمن لا يتصرفون في النصوص . فأولاء يلتزمون النصوص كأولئك يختزنون الدواء . لا ينفعون به ولا ينتفعون . عجزوا عن أن يجعلوا من العقارات الناجعة . مركبات نافعة . تتلاءم في كيميائها وعناصرها مع أشخاص المرضى وأصناف الداء . أما الطبيب الحق فيأخذ من كل عقار ما يشفي الداء كما يشاء خالصاً أو ممزوجاً أو متفاعلاً .

بهذا المولد الدائم . وبالفكر النافذ ، لم يتردد أبو حنيفة عن أن يقول « أرى » و « رأيت » ويحكم على المستقبل ويرفع سماء الفقه على عمد الحرية . فلم يبق في

الامة مشاكل بلا حلول ، ولم يعد الفقه الإسلامى محجوراً عليه أن يملأ كل فراغ فى مستقبل الزمان ، لأن العلماء كما قال أبو حنيفة « يستعدون للبلاء ويتحرزون منه قبل نزوله ليعرفوا طريق الدخول فيه والخروج منه » .

فيا للفكاهة التى زعموا عن الشافعى تعريضاً بكتب أبى حنيفة وتلاميذه عندما سيق الشافعى ليحاكم فى بلاط الرشيد حيث قال : « . قدمنا على هارون . . . ومعى خمسون ديناراً . . . ومحمد بن الحسن يومئذ بالرقعة فأنفقت الخمسين ديناراً على كتبهم ، فوجدت مثلهم ومثل كتبهم ، مثل رجل كان عندنا يقال له فروخ وكان يحمل الدهن فى زق له ، فكان إذا قيل له : عندك فرشانان ! قال : نعم . فإن قيل له : عندك زئبق ! قال : نعم ، فإن قيل له : عندك خيزى ! قال : نعم ، فإذا قيل له أرنى ؟ ولزق رءوس كثيرة . فيخرج له من تلك الرءوس ! وإنما هى دهن واحد ! كذلك وجدت كتاب أبى حنيفة إنما يقولون كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإنما هم مخالفون له . . . »

بلى هو دهن واحد حقاً كما نسبوا القول إلى فتى قريش العظيم . لكنه أصول الشرع الإسلامى وقواعد الفكر السليم ، وهو دهن يخرج الزئبق والخيزى والفرشانان ، ويخرج من كل الأكل ومن كل الألوان . كما أخرج هو منه كل شىء بعد قليل من الزمن . وإذا كان كتاب أبى حنيفة قد خالفوا الشافعى فى فهم الكتاب والسنة فهو خلاف المجتهدين المثابرين أجمعين .

سمع ابن سريج رجلاً يتكلم عن أبى حنيفة فقال : يا هذامه : فإن ثلاثة أرباع العلم مسلمة له بالإجماع والرابع لا يسلمه لهم . قال : وكيف ؟ قال : لأن العلم سؤال وجواب وهو أول من وضع الأسئلة ، فهذا نصف العلم . ثم أجاب عنها ، فقال بعض أصاب وقال بعض أخطأ : فإذا جعلنا صوابه بخطئه صار له نصف العلم الباقى . والرابع ينازعهم فيه ولا يسلمه لهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسن السؤال نصف العلم » ، وعلى هذا الحديث فرع الملك عيسى الأيوبى فتعال مقالة ابن سريج .

وفى الحق إن الأسئلة نصف العلم لأنها الاستعراض النظرى للمشاكل التى

تحتاج إلى حلول : ولقد طالما عرف عن بعض الفقهاء قوة الحكم وضعف الاستعراض ، وهو ما يسمى بضعف السؤال وقوة الجواب ، كما عرف عن البعض قوة السؤال وضعف الجواب : ومن أجل هذا كان للأسئلة رجال وللأجوبة رجال .

قيل عن الحسن بن زياد إنه أحسن الناس سؤالاً ولم يكن جوابه على قدر سؤاله :

أما أبو يوسف فقد قيل إنه أحسن الناس سؤالاً وجواباً .
ولما مدح الشافعي محمد بن الحسن أثنى عليه « لبيانه وثبته في السؤال والجواب والاستماع . »

أما الشافعي فقال فيه محمد : « إن كان أحد يخالفنا ونثبت له فالشافعي رضي الله عنه » قيل : ولم ؟ قال : « لتأنيبه وثبته في السؤال والاستماع » .

ولكل من الضعف في السؤال أو في الجواب أسباب لنا بسبيل شرحها ، فبحسبنا التنبيه على أن هذه المدرسة أول من استعرض مسائل الفقه استعراضها الشامل وأجاب على فروضها الإجابات الضافية ، فكان لما فيها أصابت فضل السؤال وفضل الجواب . وفيما أخطأت فضل السؤال وفضل الاجتهاد . وكان لما فوق هذه الأفضال جميعاً فضل السبق في التلميز والترتيب والتبويب .

أنجب الفقه الإسلامي هذا الإنجاب . وتبارت في مضماره الأجيال اللاحقة مدفوعة بما يشبه الحمى نحو قرنين من الزمان ، وقف بعدهما التيار إذ أوفى على التمام ، حتى إذ مات الطبري سنة ٣١٠ ذهب بموته آخر الأواين ، وأصبح الناس . من بعد ، وقد تهيأت أسماعهم لاستقبال ذلك الصوت الأجلح البغيض : أن قد أقتل باب الاجتهاد ! وانفتح باب التقايد ، وسرت عدواه كالوباء بتخطى القرون والقارات ، وانطبع العلم بطابع الجمود . ومسخت روحه وأصبحت قضاياها كالألغاز :

* * *

ستذكر الإنسانية هذه اليد لأبي حنيفة عليها وعلى الإسلام فتسلكه في سلك المناضلين المتألمين في ظلمات الاضطهاد ، كلما صب فوق رؤوسهم من عذاب الجحيم برزت كالعسجد الحرمزايهم . وتميزوا من الناس كما يتميز الماس من الفحم - وهما من أصل واحد - لأن الماس يتحمل الضغط العالي ولا يفنيه الحريق وكلما

صبت عليه النار ردها أنواراً ، أما الفحيم فهو الفحيم ، ظلمات بعضها فوق بعض :
لا يصبر على الضغط وصلاحيته الأولى للوقود :

سيذكر المؤرخون ذلك الاضطهاد على أنه مجد الإمام الأعظم ، فلولم ينغض
إليه الحمقى رءوسهم لدلوا على أنه لا وزن لعلمه ولا لعمله . فبقدر ما يوزن للرجل في
ميزان الرجال يوزن له من حقد الخصوم ومن هوى الأشياع ! ولا عجب إذا كان
الرجل صاحب الرأي هو الرجل صاحب الخصوم :

والعمریات الهائلة التي نخلد بها مجد الإسلام لم تمنع أن يكون للفاروق خصماء
رأوا في وجهاته التشريعية واجتهاداته بعداً عما ذهبوا إليه من التمسك بظاهر الكتاب
والسنة ، وهو هو عمر الذي كان في يده من كنوز الإمبراطورية الإسلامية ما إن
مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولى القوة : ولكنه لم يك يملك إلا قميصه ودموعه وتقواه . . . :
ولم تمنع منه المطاعن شهادة الرسول له أنه لم ير عبقرياً يفري فريته ، أي
يصنع صنيعه . وأن « عمر معي : والحق مع عمر حيثما كان » و « إن الله جعل الحق
على لسان عمر وقلبه » :

وقفت عليه أعرابي فقال : يا عمر الخير جزيت الجنة : اكس بناتي وأمهنه :
قال عمر : فإن لم أفعل ماذا يكون ؟

قال الأعرابي : والله عنهن لتسألنه : إما إلى نار وإما إلى جنة :
فبكى حتى أخضبت لحيته ، وقال لغلامه يا غلام أعطه قميصي هذا لذلك
اليوم « يوم السؤال والحساب » لا لشعره :
ثم قال : والله ما أملك غيره :

ولم يك أبو حنيفة عاطلاً من الفضل العمري وأشباهه بل هو كان قطب الزمان .
زهادة وعبادة ، وقوة إيمان وسداد رأى ، وزعامة فكر ، وهي جميعاً أسباب خصومة
لأنها أسباب كرامة !

وسينسى الناس ما سال في هذه الحرب من جراحات اللسان والقلم : فأبو حنيفة
الإمام الأعظم لأهل السنة في علوم القرآن والحديث والتفسير لا يعرف اللغة العربية . . !

فلا يجر المجرور . وإن كانت تجره حروف الجر الغلاظ ... !

قال الليث بن سعد : « بلغني أن أبا حنيفة يريد الحج فخرجت إليه قاصداً ، فلقيته بمكة . فسألته عن مسائل كثيرة في أبواب متفرقة وسألته عن مسائل الجنائيات وعن قتل الخطأ وشبهه انعمد فقال لي في بعض ما أجابني ، (وإن ضربه بأبو قبيس) - جبل أبي قبيس - وفي رواية أخرى بأبا قبيس . فقضينا المناسك ورجعنا . ثم بلغني بعد ذلك أنه يريد الحج فخرجت إليه قاصداً فأردت أن آخذ عليه حرفاً واحداً ما قدرت عليه ، فدا أدري أنذرت منه تلك الكلمة أو تكلم بحجة . »

فيا لأدب الليث ويا لحماقة الخصوم ! إنها لم تنذر من أبي حنيفة وإنما تكلم بحجة . فقد يكون تكلم عن أبي قبيس باعتباره عالماً والعلم لا يغير . وإبدال الواو في « أبو قبيس » ياء عند الجر أو ألفاً عند النصب واجب يعرفه الأحداث فلا يجادل فيه إمام الأمة الأعظم . المفسر ، الكاتب . المتكلم ، الأستاذ ، الفقيه .

تلك واحدة في اللغة . وهذه أمثالا في العقيدة :

فأبو حنيفة مرجئ إذ يقول إن العمل ليس ركناً للإيمان :

وأبو حنيفة زنديق . تاب . ثم فيسق عن أمر ربه فتزندق مرة أخرى . ثم تاب وإنه كافر تاب من الكفر مرات !

بل هذا رجل يقول : أراه كان يهودياً !

وهؤلاء آخرون يقولون : كان جهمياً !

فلندع قولهم إنه كان زنديقاً أو كافراً أو يهودياً :

أما أنه كان من أشياع جهم بن صفوان الذي كان يقول إن الإنسان مسيء لا مخير وينفي صفات الذات الإلهية . ولا يشترط للإيمان النطق به . فحسبه تكديباً جهماً قصد إليه يجادله فأجابه بقوله : « الكلام معك عار والحوض فيما أنت فيه نار . ثم طنق بقرع حججه واحدة إثر واحدة حتى فصل عنه جهم وهو يقول : « أوقعت في الخلد شيئاً فسأرجع إليك » .

وكيف يكون جهمياً من كان مذهبه أن الصلاة خلف الجهمي لا تجوز ؟

أما أن أبا حنيفة مرجئ ، فلعلها من تهم الخوارج أو المعتزلة الذين لا يقولون بالإرجاء . فليس ثمة ريب في أن عامة المسلمين مرجئون على المعنى الذى شرحناه من قبل ، لا يكفرون مرتكب المعصية كالخوارج ولا يجعلونه في منزلة بين المنزلتين كالمعتزلة ، وإنما يرون له التوبة والمغفرة ، ويتركون حسابه إلى الله :

قال عمر بن حماد بن أبي حنيفة : « أقمت عند مالك مدة فلما أردت الرجوع قلت لعل الحساد ذكروا جدى عندك على خلاف ما كان عليه فأذكر لك مذهبه فإن كان فيه رضاك فذاك وإلا فعظي . إن الإمام كان لا يخرج أحداً من الإيمان بذنب . قال أصاب : قلت : وكان لا يكفر قاتل النفس قال : أصاب فمن قال غير هذا فقد كذب وأخطأ . قال : بلغني أنه كان يقول : إيماني كإيمان جبريل : قلت : بلغك الباطل كان يقول إن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام إلى النبي صلى عليه وسلم كما بعثه إلى من قبله فأمره أن يدعو الناس إلى الإيمان : فالإيمان إيمان واحد لا إيمانان أو ثلاثة . ولا إيمان هذا وإقراره غير إيمان ذا وإقرار ذا . فتبسم كالراضى به ولم يقل شيئاً . قلت : وكان ينكر الشك في الإيمان . قال : وما الشك فيه ؟ قلت عندنا أقوام لا يقولون إننا مؤمنون حتى يستثنوا أو يقول أحدهم لا أدري أنا مؤمن أم لا . فأنكر وقال : من يقول هذا . »

ذلك قول مالك في قول أبي حنيفة .

والناس يرون أبا حنيفة بأعينهم رجلاً هو المثل العالى همة في الدين ، يحيا حياة طويلة ليست في عداد الزمان إلا سجدة مخلصه لله ، ولا يبقى من ماله الضخم إلا النفقة . ويسمعونه بأذانهم في المسجد . وفي كل مكان ، يجاهد بقلبه ولبسانه وييده حتى تكون كلمة الله هي العليا . وهم يقرءون ويستمعون إلى كتبه « العالم والمتعلم » و« الفقه الأكبر » وكتابه في الأرجاء إلى عالم البصرة عثمان البتي ، وإلى القواعد الواردة في الوصية المعزوة إليه ، وفيها جميعاً الحجج الباهرة على أهل الإلحاد والبدع . وهم يعرفون إفحامه لأهل الإلحاد ويتناقلون تمثيله للعالم بالسفينة . ونخالقه بالسفان ، حيث يسائل المشككين : « ... ما تقولون في رجل يقول لكم إن سفينة مشحونة بالأحمال . مملوءة بالأممعة والأثقال قد احتوتها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهي من بينها تجرى مستوية ليس فيها ملاح يجرها ويقودها . هل

يجوز ذلك في العقل ؟ فقالوا : لا . قال : فيا سبحان الله إذا لم يجز في العقل وجود سفينة تجرى مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها من غير صانع وحافظ ومحدث لها .. ؟) :

فلم يبق إلا التهمة التقليلية التي وجهت من قبل إلى السيد المسيح وهي أن أبا حنيفة يحرض على عدم التعاون مع الساطان . لكن الساطان ليس أذنأ لهم فلا ياف لفهم ولا تقع الواقعة . فلم يبق في جعبة السهام إلا أخيبها . سهام القذف والكلم التوارص :

فأبو حنيفة من أبناء السبايا . . . ومن الدجاجلة . . . بل إنه ليروى عن شريك أنه قال :

« لأن يكون في حي من الأحياء خمار نعيم من أن يكون فيه رجل من أصحاب أبي حنيفة » وإنه لم يولد في الإسلام من هو أشأم منه على الإسلام . . . وهو كان جرباً . يراه الرجل مقبلاً نحوه في المسجد فيقوم قائلاً لأصحابه . قوموا لا يعرنا بجربه . . . فيقومون . . .

وهو لا يثق بنفسه فيحضر تلميذه أبا يوسف على الشك في مقولاته بقوله :

لا ترو عني فإني والله لا أدري أمخطئ أنا أم مصيب !

ثم إنه أجرأ الرجال على الرجال . قالوا . . . إن رجلاً جاءه من خراسان يقول :

عندي مائة ألف مسألة أريد أن أسالك عنها . قال أبو حنيفة : هاتها . وتساءلوا فيما بينهم أسمعتم أجراً من هذا ؟

والجواب أن الجريء على الحق ليس هذا المحيب وإنما ذلك السائل الوافد من خراسان لا يُعرف عنه إلا أنه إمعة من الإمعات . ومع ذلك يزعم أنه يعنى مائة ألف مسألة ! فمن أين له المائة ألف ؟ ومن أين له عقل يحفظها أو لسان يبسطها !! ولماذا لا يجيء ذلك اللوذعي بمسألة أو بضع مسائل من المائة ألف ليرى الناس من آيات إعجازه الكبرى ؟

لقد كان جواب أبي حنيفة له جواب أستاذ عذب الروح يسمو على الأغلوطات . ومن قبل أبي حنيفة كان ابن سيرين إذا سئل عن مسألة فيها أغلوطة قال للسائل : أمسكها حتى تسأل عنها أخاك إبليس !

والأغلوطات - كما فسر الأوزاعي نهى النبي عن الأغلوطات - هي صعاب المسائل .

سأل عمر بن قيس مالك بن أنس عن محرم نزع نأبي ثعلب فلم يرد عليه شيئاً .
أما أبو حنيفة فلم يسهه السائل بالكلام كابن سيرين ولا بالامتناع عن الكلام
كابن أنس : لكنه أطاش حلم السائل بأن جعل نفسه رهن أمره فسهه الرجل نفسه
وأخزاه الله .

وأما عن الرد على مائة ألف من المسائل فإن قواعد أبي حنيفة وفروعها تحوى
أكثر من ذلك وأمثاله لمن يشاء .

* * *

يا لله أصحيح أنه لم يولد في الإسلام من هو أشأم من أبي حنيفة على الإسلام !
أصحيح أن وجود أبي يوسف أو محمد أو داود الطائى أوزفر وأمثالهم في حى من الأحياء
شر عليه من وجود خماربييع فيه بنت الحان !

أم أنه كما يقول الرسول عليه السلام : « ويل لعالم أمره من جاهله » .
أم أنه المجد وارتفاع المقام يعنيه محمد بن الحسن إذ يسمع قدح الحصوم في
أستاذه فيقول :

محسدون وشر الناس منزلة من كان في الناس يوماً غير محسود
أو كما قال تلميذه الآخر عبد الله بن المبارك :

حسدوا أن رأوك فضلك الله بما فضلت به النجباء
أو كما قال هو ذات يوم إذ أقبل عليه رجل ، فسأله : من أين أقبلت ؟ قال
من عند شريك - وكانت بينهما وحشة كما رأيت - فرفع رأسه وقال :

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم غيرى من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لى ولهم ما بى وما بهموم ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

لقد كانت قاعدة « أن السلف لا يخالفون » في قدسيتهما عندما أعمل فيها
معاولة ، ولم يك شاع في الوسط العلمى أن أحكام المعاملات ليست تعبدية ، وعزيز
على أنفس المتعنتين أن يقبلوا الاتجاه القاضى على ما ألفوه دون أن يتجمعوا ضده ،
أو يصبروا على الجهر والإلحاح والتحدى بأن رأى إنسان من الأناسى يعتبر مصدراً

للمحکم علی حاضرهم وماضیہم ومستقبلہم !

أم أنه ليس الحسد ، وليس الجهل ، ولا التعصب هي التي جعلت على قلوبهم
أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وإنما هي الحصومة القديمة الضاربة بجرانها بين
القديم والجديد .

لم تك هذه التهم إلا تهمًا تقليدية يلقاها الباحثون على صفحات التاريخ
في كل زمان ومكان ! شنشنة عرفها رجال الفكر من أعدائه ومن أديبائه ، تدعى
أيًا ما تدعى ، بأسماء مختلفة أو متشاكلة ، لكنها تسمى واحد قديس في المشرق
بالزندقة . تحويراً لتعبير فارسي يراد به الإلحاد ، ويسمى في الغرب بالهرطقة
يراد به - في الواقع - أعداء الكنيسة في الاعتقاد .

لكأنما تضيق صدور سكان هذا الكوكب الواسع بأسماء النابغين وإن كانت
الدنيا لا تضيق بأجسادهم ! وإلا فقيم لا يطيق الناس قيام المجد إلا بعد أن يزايل
صاحبه دنياهم ، فيصبح معنى من المعاني وذكرًا في الزمن !

كأنما ترسل النفس القوية على الأرض شعاعًا تعشى من ضيائه الأبصار .
فإذا سعدت إلى بارئها تنفس الصعداء هؤلاء المتصقون بالثرى . وفتحوا أعينهم
في أفق أوسع وألمع !

هنالك يبايع الأحياء موتاهم ويقيمون التماثيل لمن أدخل مكانه في الوجود .
فإذا بايعوا الأحياء بايعوهم مجبرين غير مختارين ، ورضوا بهم كما يرضون بقضاء الله
الذي لا يرد ، وبظواهر الطبيعة التي لا تقاوم .

لا جديد تحت الشمس ، ولا جديد فيما قارفه خصوم أبي حنيفة في عهده
ولا فيما صنعه خصوم الفكر من قبله ومن بعده : لقد فقد (ليكرج) من ألقى عا
قبل ذلك إحدى عينيه من جراء إحدى شرائعه !

إنما الحديد في صدد أبي حنيفة أن الولاة لم يسمعوا ولم يخذعوا ، على فره
ما استمعوا وما انخدعوا في حوادث الإيقاع بسواه . فلعلها بركة السنة على إمام
أهل السنة الأعظم ، فلم تسمل له عين ولم تقطع له ذراع ، ولم تصبه محاكم التفتيش

ولا مذابح العقائد ، وحمى التاريخ مدرسة الكوفة وإمامها . فلم يقع ما وقع في أثينا وروما وبيزنطة ومدريد وباريس وبغداد وغيرها في الشرق والغرب ، في عهد الحضارة الأولى أو في القرون الوسطى أو الحديثة .

هنا لك ترى في العصور الأولى سقراط يحكم عليه بالإعدام خمسمائة قاض من الجماهير . لأنه يفسد عقائد الأثينيين ! وأرسطو يهرب خوفاً من تهديد مواطنيه ويموت في مهربه ! !

وترى في مطلع العصر الحديث ، بين مصدق ومكذب ، (كلفن) زعيم الإصلاح الديني بعد مارتن لوثر ، فارس الحلبة لاتهام برونو بحجة الهرطقة ! وهناك حوكت «القديسة» جان دارك وسرفانتس وكثيرون جد كثيرين من رواد العقل البشري !

وهنا تجد المعتصم - بطل عمورية - وأخا المأمون - يجلد ابن حنبل بالسياط والجلال والمجلود صائمان . . . ! وابن عبد القدوس . والبويطي . وأحمد بن نصر ، ومحمد بن نوح . وابن تيمية وأمثالهم .

هنا وهناك لقي الفكر الإنساني من العذاب ما تندى له الجباه
لقد صعد هذا الفكر الإنساني درجات المشنقة ، وهوت عليه المقصلة . وشرد ، وجرد ، وحرم الألقاب ، وذاق عذاب الحريق ، لكنه كان يبعث شعاعه على عمد المقصلة ويملاً الأرجاء بالإشراق .

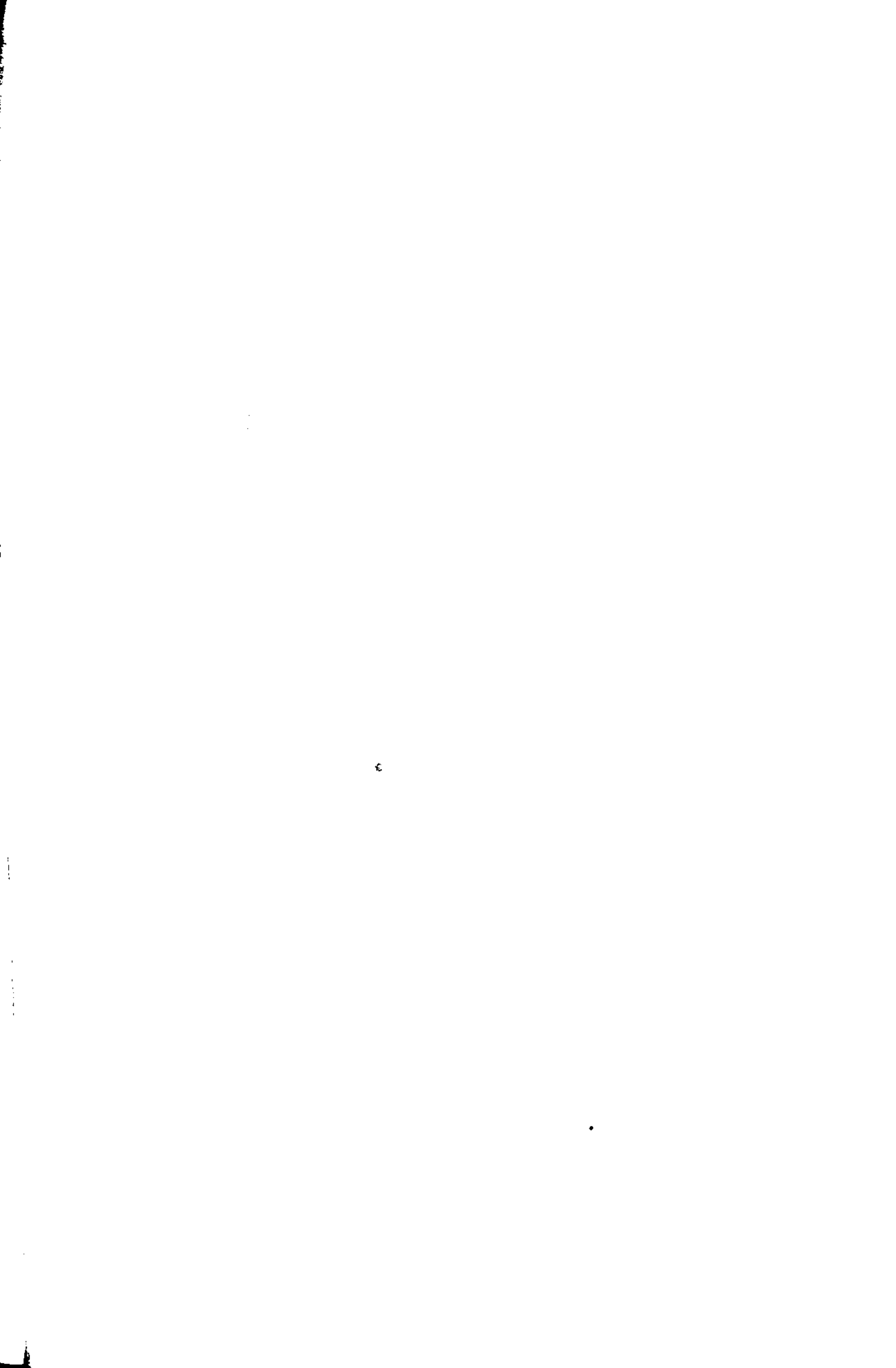
وكانت غيابة السجن له أولى درجات الخلود .

البابُ العاشر

في القضاء

« كن من السلطان كما أنت من النار ، تنتفع
منها وتتباعدها ولا تدن منها فإنك تحترق »
أبو حنيفة

أبو حنيفة



كانت وظيفة الحكم في الكوفة عملاً لا يغبط عليه من وسد الأمر إليه وكان هم الولاة المقيم المقعد أن يستقضوا عليها أفقه الفقهاء .

فإذا قلبت الصفحات الماضية من تاريخها استقبلتك أسماء من الطراز العالى . . .
ولى « شريح » القضاء فيها لعمر بن الخطاب ، فلعثمان بن عفان ، فلعلى ابن أبى طالب ، ليظفر منه بقوله : « أنت أفضى العرب » . وتولاه لمن جاء بعده فظل نحو ثلثى قرن فى عمله ، لم ينقطع إلا ثلاثة أعوام فى فتنة ابن الزبير حين استقال الحجاج فأقاله ، ومات فى العشرين بعد المائة من العمر وفى الثمانين من الهجرة .

وتلاه « الشعبي » . وما أدراك من الشعبي ! بعثه عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم . فلما قفل راجعاً سلمه الملك خطاباً إلى أمير المؤمنين . وقرأ عبد الملك الخطاب فإذا فيه : « عجباً من أهل ديارك ! كيف لم يستخلفوا رسولك ! ! » قال الشعبي : « يا أمير المؤمنين أراد أن يغريك بقتلى حسداً . . . »

وبلغ ذلك ملك الروم فقال : لله درأبيه ، ما أردت إلا هذا .

جلس الشعبي للقضاء نحواً من ربع قرن حتى مات سنة ١٠٤ ف خلف من بعده الأستاذ الأول لأبى يوسف ، محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى حتى سنة ١٤٧ .
وكان طبيعياً أن تشرئب الأعناق إلى أبى حنيفة ليتولى منصب القضاء ، بعد أن جلس مجلس ابن مسعود فى الإفتاء ، فاتجه إليه يزيد بن هبيرة عامل مروان على العراق (١٢٧ - ١٣٢) حين قامت الفتن بالعراق فى أخريات أيام بنى أمية .

جمع يزيد ببابه ابن أبى ليلى ، وابن شبرمة ، وداود بن هند ، وولى كل واحد منهم صدرأ من عمله ، وتنازل لأبى حنيفة عن جزء من سلطانه ليكون فى يده خاتم الدولة يختم به كل أمر ، وجعل له حق إنفاذ الأحكام التى يصدرها القضاة ، والحراج أيضاً ، وختم أوامر الولاة ، فرفض أبو حنيفة ، وألح يزيد وأشار أصحاب أبى حنيفة عليه بالقبول فقال : « لو أراد أن أعدله أبواب مسجد واسط لم أدخل فى ذلك ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل وأختم أنا على ذلك الكتاب ، فوالله لا أدخل فى ذلك أبداً . . . »

قال ابن أبي ليلى : دعوا صاحبكم فإنه هو المصيب .

وسجن يزيد أبا حنيفة أسبوعين وأمر بضربه بالسياط . قيل : ضربه مائة سوط وعشرة ، كل يوم عشرة أسواط ، فلم يزد العذاب إلا ثباتاً .

لكن للدولة مآرب أخرى في رضى الأستاذ ، فإن لم تفلح في أن تضمه إلى رجال الحكم فلتمدد إليه بسبب من الأسباب : عرض عليه يزيد أن يسلكه في الطراز - (بيت المال) - لكن الأستاذ كان أسمى من الأمراء ، وأغنى عن الخلفاء ، فأبى .

وقيل إنه ترك الكوفة إلى مكة سنة ١٣٠ وبقى إلى جوار بيت الله بضع سنين حتى تولى الخلافة أبو جعفر المنصور .

كان العراق إقليمًا ثائراً على ما وصفنا ، وكانت الكوفة عنوانه ، لا يقتصر شغبها على الخلفاء والأمراء بل يتعداهم إلى الولاة والقضاة .

روى الشعبي عن شريح أن قد جاءتته امرأة تخاصم رجلاً فأرسلت عينها فقال له : يا أبا أمية ما أخال هذه البائسة إلا مظلومة ! قال يا شعبي إن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم له ظالمون ! !

وكان ذلك أيام لم يألف الناس أن يتباكى الظالمون كما يتباكى في القرن العشرين . كضاحك المزن ، دمع ولا حزن .

ودخل على الشعبي في مجلس القضاء زوجان فأدلت الزوجة بحجتها وكانت بارعة الجمال ، فلما فرغت من بيانها التفت القاضي إلى المدعى عليه يسأله وما دفاعك ؟

فرد الشيطان على غير استحياء بهذه الأبيات :

فتن الشعبي لمـا رفع الطرف إليها

فتنته بدلال وبخطى حاجبيها

قال للجـلـواز قـربـها وأحضر شاهديها

ففضى جوراً على الحصم ولم يقض عليها

والجلواز في الفارسية ، هو الحاجب في العربية أو الشرطي .

ولم تلبث الواقعة أن طوى خبرها الجزيرة فجاء أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان في دمشق . فلما دخل عليه الشعبي ذات يوم ضحك وقال : فتن الشعبي لما رفع الطرف إليها » وسأل القاضي : ماذا فعلت بالرجل ؟ قال : أوجعته ضرباً يا أمير المؤمنين بما انتهك من حرمتي في مجلس الحكومة وما افترى به عليّ ، قال : أحسنت .

كان المنصور يقول لخاصته : ما أحوجني إلى أن يكون علي بابي أربعة نفر لا يكون علي بابي أعف منهم ، قيل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الحق لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى . والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، فإني عن ظلمها غني ، والرابع صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة .

وكان ولاية البريد في الآفاق يكتبون إليه أيام خلافته بسعر القمح وكل ما كول وبكل ما يقضى به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وما يرد بيت المال ، وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب . ويكتبون إليه بما كان في كل ليلة إذا صلوا الغداة . فإذا وردت كتبهم نظروا فيها فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك . وإن تغير شيء عن حاله كتب إلى الوالي والعامل . وإن شك في شيء مما قضى به القاضي كتب إليه في ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فإن أنكر شيئاً عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه .

لقد تغير العراق في الدولة الجديدة فأضحى مركز الدائرة بعد إذ كان مجرد قطر من الأقطار . ولقد بويغ السفاح في سنة ١٣٢ هـ - ٧٤٩ م بالأنبار ، ثم انتقل إلى الهاشمية ، وخلفه فيها المنصور سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) فبدا له أن يبني عاصمة للدولة غير الكوفة ، وجعل يرتاد المواضع حتى وصل إلى موضع بغداد فرسمها بنفسه وحشد لها الصناع من كل الأصقاع ، وشرع يهدم مدينة إيوان كسرى وينتفض القصر الأبيض ليدخل الأنقاض في بناء بغداد ، ثم كف لكثرة التكاليف . وتخبر لها الأبواب من كل البلدان وبني قصره (الخلد) في وسطها وبلغ ما أنفق ثمانية عشر مليون دينار ، ثم حشر إليها العلماء والشعراء وأصحاب الآراء وأتاها الناس

من كل فج حتى غدت بحق عاصمة الدنيا . وبلغ سكانها ، نحو المليونين في عهد حفيده الرشيد (١٧٠ - ١٩٣) - (٧٨٦ - ٨٠٨) .

هذه المدينة الكاملة التي أنشأها ، وهي بغداد ، كان يعوزها ما كمل مجد إسبارطة : اسم كاسم « ليكرج » ، وما جعل مجد أثينا ، مشرع مثل « صولون » .

كان يعوز رجال بغداد الرجل الذي يضع تخوم الحضارة التشريعية عند أساطين مسجد الكوفة : فأشخصه أبو جعفر إلى بغداد فشحخص إليها .

هنالك دعاه إلى ولاية القضاء في بغداد ، وقيل في الرصافة التي بناها لولده المهدي . وقيل دعاه ليوليه قضاء القضاة فيخرج القضاة من تحت يده إلى جميع كور الإسلام ، أي إلى الوظيفة التي أنشئت لأبي يوسف في عهد الرشيد .

كان أبو حنيفة يعلم قول النبي صلى الله عليه وسلم : « التمضاة ثلاثة : قاض في الجنة ، وقاضيان في النار . قاض عمل بالحق في قضائه فهو في الجنة ، وقاض علم الحق فجار متعمداً فذلك في النار ، وقاض قضى بغير علم واستحيا أن يقول لا أعلم فهذا في النار » ، كما كان يعلم حديثه عليه الصلاة والسلام : « يثني بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في ثمرة قط » ويعلم حديثه الآخر : « ويل للأمرء وويل للعرفاء وويل للأمناء . ليتسنى أقوام يوم القيامة أن نواصيتهم كانت معلقة بالثريا يتجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلدوا عملاً » .

وكان يعلم ما يتناقله الرواة عن عثمان بن عفان إذ نادى عبد الله بن عمر : « اذهب فاقض بين الناس » قال : أو تعافيني يا أمير المؤمنين ؟ قال : وما تكره من ذلك ، وقد كان أبوك يقضى ؟ قال : « إن أبي كان يقضى فإن أشكل عليه شيء سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن أشكل على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سألت جبريل ، وإني لا أجد من أسأله . . »

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بمصر ليدعو كعب بن ضنة للقضاء فدعاه وأقرأه الكتاب . وكان ابن ضنة حكماً في الجاهلية . فلما عرف ما دعى

له قال : « والله لا ينجيني الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة ثم أعود فيها بعد أن نجاني الله منها » .

ورفض حياة بن شريح القضاء بمصر فجاء بالسيف والنطع ، فلما برق السيف أبرز مفتاح داره وقال هذا مفتاح داري وقد اشتقت إلى لقاء ربي . . . ولما رأى الأمير إقباله على ربه حرمه من لقياه وأعفاه . ودعا أبا خزيمة فأبى حتى هدده بالسيف فقبل قضاء الأمير عليه بأن يتولى القضاء .

ولما أقبل ابن أبي الأسود صاحب خراسان ليشهد عند قاضي البصرة إياس قال إياس : مرحباً وأهلاً بأبي مطرف وأجلسه معه ثم قال له : ما جاء بك ؟ قال : لأشهد لفلان قال : ومالك والشهادة ، إنما يشهد الموالى والتجار والسوقة ! قال : صدقت ، وانصرف من مجلسه راضياً فقالوا له : إنه خدعك . إنما أراد بذلك أن يتخلص من شهادتك لأنه لا يقبلها !!

قال : « لو علمت ذلك لعلوت رأسه بالقضيب » .

وهكذا كان القاضي في عهد عمر بن عبد العزيز نفسه بحاجة إلى ذكاء إياس - مضرب المثل في الذكاء - ليحتفظ باستقلاله !

كان الشيخ يعلم ذلك . لكنه لا يتردد أمام تبعاته ، وإن ما فيه من زكاة وعلو همة ليمنعه من التردد وإن به لفطانة وسمواً عن الهوى تحميان عقله أن يجور .

وما تبعات القضاء شيئاً مذكوراً إذا قيست إلى تبعات الفقهاء . . .

لقد كان شريح يقول : « أنا أقضي ولا أفتى » فكان قاضياً ، لأنه لم يكن يستطيع أن يكون مفتياً .

ولكل مقام رجال ، فالقاضي يقضي في قضية بذاتها ، أما الفقه فيشرع القواعد للقضاء وللمتقاضين أجمعين - ولهذا يربو خطأ الفقيه على خطأ القاضي مرات .

قال سحنون : « إنا لله . ما أشقى المفتى والحاكم » وقال : « هأنذا يتعلم مني ما تضرب به الرقاب وتوطأ به الفروج وتؤخذ به الحقوق ! أما كنت عن هذا غنياً ؟ » ذلك بأن فتوى الفقيه - على حد تعبير ابن القيم - شريعة عامة تتعلق بالمستفتى

وغيره أما الحاكم (القاضي) فحكمه فردى لا يتعدى إلى غير المحكوم له .
 إنما يقوم المفتى في الأمة مقام النبي ، وكما قال عليه الصلاة والسلام : « إن
 العلماء ورثة الأنبياء . والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم » .
 فليؤد العلماء إذن أمانتهم ، وليوزعوا في الناس ما ورثوا من الأنبياء : وإنها لأمانة
 تنقض الظهور وتؤود أقوى الأقوياء على القضاء :
 وإذا صح قول الشافعي : « من ولي القضاء ولم يفتقر فهو سارق » فإن أبا حنيفة
 فقير مع كثرة ماله وغنى بالله عن العالمين .
 وإنما هي الوظيفة في خدمة السلطان يقف أمامها متسائلاً .
 ماذا عن الغد ؟

إنما هي عظات الماضي ينشرها بين يديه . والماضي مرآة المستقبل .
 ففي مطالع هذه الدولة الجديدة (سنة ١٣٣) قذف جندي بمصر رجلاً من
 الأهالي فسجنه القاضي وأخرج الوالي الجندى السجين من سجنه فلم يك من القاضي
 إلا أن ترك وظيفته . . . ومن قبل ذلك في مصر أيضاً (سنة ١٨٩) أقام القاضي
 ابن شرحبيل الحسني الحد على كاتب الوالي لشربه الخمر فعطل الوالي قضاءه
 فاستقال .

وكانت تسيل بالأنبياء أعناق المطى في الصحراء ، مثلما تسيل الآن بالأنبياء
 موجات الهواء واهتزازات الكهرباء ، كما كان يتناقلها أعضاء المؤتمر العام ، الذي
 ينعقد كل عام ، إذ يلتقي الحجيج في جوار البيت الحرام .

استعرض الإمام الأعظم حوادث بضعة عشر ربيعاً خات من عمر الدولة
 العباسية لا يأذنون فيها بمخالفة من أمير أو وزير ويأبون إلا أن تكون كلمتهم هي
 العليا . . . وهو أدري الناس بما يجب للقضاء من استعلاء ، وما يلقاه رجله من
 ابتلاء . وهو القائل لتلميذه نوح بن مريم إمام مرو عندما أعلمه أنه ابتلى بالقضاء
 « ورد كتابك ووقفت على جميع ما فيه وقلدت أمانة عظيمة يعجز عنها الكبار
 من الناس . وأنت كالغريق فاطلب لنفسك مخرجاً . . . » .

وعقب على ما فات بتلك الآيات التي يبعث بها القرن الثاني إلى القضاة في كل

العصور « فإذا جلس الحصمان فسو بين الضعيف والقوى والشريف والوضيع في المجلس والإقبال والكلام . . ثم كلمهما برفق وأفهمهما كلامك ولا تعجلهما ، ودعهما حتى يفرغا من جميع ما يريدون إلا أن يأخذا في فضل فتمنعهما عن ذلك وتبين لهما ذلك . ولا تعجل بفصل القضاء بين القرابات وردداهم مجالس لعلهم يصلحون » .

استعرض أبو حنيفة ذلك كله ثم ذكر قوله : « من جعل قاضياً فهو كالغريق . إلى متى يسبح وإن كان سابحاً » .

وراجع نفسه كرة أخرى إذ يقول لتلاميذه في داره : « أنتم مسار قلبي وجلاء حزني قد أسرجت لكم الفقه وأجمته . . . فسألتكم بالله ، بقدر ما وهب لكم من جلالته العلم ، لما صنتموه عن ذل الاستمار » .

وإن منهم من سيرفض القضاء غداً لأبي جعفر كزفر ، وإن منهم من سيرفضه بعد غد للرشيد كوكيع .

فلما دعا الرشيد تلميذى أبي حنيفة وكيعاً وحفص بن غياث ليليا القضاء أبي وكيع وقبل حفص . فخاصم وكيع حفصاً حتى مات .

استعرض الشيخ ذلك وأمثاله مجهرراً مكبراً وفي سرعة « الأفلام » . وراح يستنبط على طريقته ويقيس ويستحسن ، واستوقفه ولا ريب أن يكتب أبو جعفر إلى القضاة يلومهم إذا عارض آراءهم أو عارضتها آراء حضاره . واستوقفه أن يكتب عنهم ولاية البريد كما يكتبون عن العمال ، واسترجع قوله عليه الصلاة والسلام : « إن قليل العمل مع العلم كثير . كما أن كثيره مع الجهل قليل » . وقوله : « تعلموا ما شئتم فلن يأجركم الله حتى تعملوا .. » .

فليتبع الأجر من الله بالعمل في سبيل الله لا في سبيل الخليفة . وإذا كان أبو جعفر يباهر بإعجابه بالحجاج قائلاً « ليت لي مثله » ! ، وكانت سيرة الحجاج لم تلوث بأقبح مما تلوثت به من قتل العلماء والتشليل بهم حتى ليحرف عن القبالة سعيد بن جبير كى يصلى وتضرب عنقه .

إذا كان ذلك أبا جعفر ، وهذا هو الخطر . فإن أبا حنيفة يتحدى بنفسه أبو حنيفة

الخطير . فحزم أمره واستخار ربه فخار له . ورفض ماطلبه إليه أمير المؤمنين .

وأصر إمام المسلمين وأصر أمير المؤمنين .

وحلف أبو جعفر ليهعلن . فحلف أبو حنيفة ألا يفعل : وقال : إني لا أصلح للتضاء .

قال الربيع بن يونس الحاجب : ألا ترى أمير المؤمنين يخلف ؟ .

قال أبو حنيفة : أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيمانه مني .

فأمر به أبو جعفر إلى الحبس في الوقت ثم دعا به : قال : أترغب عما نحن فيه ؟ قال : أصلح الله أمير المؤمنين لا أصلح للتضاء .

قال الخليفة : كذبت .

فانطلق أبو حنيفة يقول : قد حكم على أمير المؤمنين أني لا أصلح للتضاء لأنه ينسبني إلى الكذب . فإن كنت كاذباً فلا أصلح . وإن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لا أصلح

وظنق أمير المؤمنين ينازله في الأمر وهو يقول : اتق الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب . ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات لاخبرت أن أغرق . ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك . . . وكيف يخل لك أن تولى قاضياً على أمانتك وهو كذاب !

قيل : وداروا به في الأسواق أياماً كثيرة على أن يقبل القضاء فأبى وردوه إلى السجن . وقيل : إن الوزراء نصحوه أبا جعفر بإخراجه من السجن وجعله في منزله ومنعه من الفتوى للناس والجلوس لهم والخروج من المنزل . فكانت تلك حالته إلى أن مات بعد قليل من الزمان . وقيل بعد أيام معدودات .

وقالوا : إنه ضرب مائة سوط أو مائة وعشرة أو ثلاثين سوطاً . حتى سال الدم على عقبه . فتناك عبد الرحمن بن علي بن عباس عم الخليفة للخليفة : سللت على نفسك مائة ألف سيف . هذا فقيه أهل العراق فقيه أهل المشرق . فأمر له أبو جعفر بثلاثين ألف درهم : مكان كل سوط ألف درهم . فلما وضعت بين يديه رفضها

فقيل له : لو تصدقت بها : قال أوجد عندهم الحلال : : ؟

هكذا حبس الرجل الذي ظلت الحرية نصف قرن اسماً هو مسماه . والذي عاش سبعين عاماً يصنع الحرية بيده صنغاً ويخلقها في تلاميذه وفي تعاليمه : حبس الجسم من ذلك القلب الذي لم يحبس نوره أحد ولن يحبسه قيد أو صغد : إن مقاييس هذا العالم وقيوده للناس ولأولادها ولكنها ليست للعباقرة :

تلك كانت القضية الأخيرة التي سمع فيها قول أبي حنيفة نقل التاريخ إلينا منها جملة الواقعة ولم ينقل التفاصيل : وبحسبك أن تستعرضها لتستخلص ما فيها من القضايا :

فكيف يولى الخليفة على القضاء رجلاً كذاباً إن صح قول الخليفة . فإذا لم يصح قامت قضية أخرى كالقضية الأولى :

كيف يتولى القضاء رجل يقذفه أمير المؤمنين :

وكيف تسخر الدولة العلماء . وكيف يخدم الأئمة الخلفاء .

كانت قد أثقلته مفاخر السنين الطويلة التي حذل فيها كرامة العلماء في عصره وكرامة الرأي الإنساني في الأعصر كافة . وكان أخوف ما يخافه على القضاء نزوات السلطة وشهوات الحاشية . وما أفتك الطعنة إذا أصابت الرأس . فكيف يسلم زعيم الفقهاء نفسه لطغيان الأمراء . . ؟

ولئن كان في كنف السلطان رغبة تسيل اللعاب . إنها ليسيطر عليها القلق والعذاب والإسرهاب .

قالوا : دخل شريك يوماً على المهدي فقال له المهدي : لا بد أن تجيبني إلى خصلة من ثلاث : أن تلي القضاء أو تحدث ولدي وتعلمهم أو تأكل عندي أكلة . ففكر ساعة ثم قال : الأكلة أخفها على نفسي . قال الفضل بن الربيع : « فحدثهم والله . وعلم أولادهم . وولى القضاء لهم » .

لله در أبي حنيفة فيما قال لأبي يوسف عن السلطان إذ تفرس فيه أنه سيلي القضاء : : « فكن منه كما أنت من النار . تنتفع منها وتتباعدها ولا تدن منها فإنك تحترق وتتأذى منها . فإن السلطان لا يرى لأحد ما يرى لنفسه : : » .

وما رمى أبى جعفر لأبى حنيفة بالكذب إلا الخطوة الأولى : وقد خطاها ،
فماذا كان يخفى له الغد من نزوات ، وأى نذر كانت تلك النذر . . . !
لقد كان أبو حنيفة أعلى وأكبر من أن يقذفه أبو جعفر . وإن التاريخ ليعرف
أبا جعفر ويعرف أبا حنيفة ، ويشهد أن الذى صدق هو الإمام وأن الذى كذب
هو الخليفة . . . !

ولقد حمل أبو حنيفة لواء الحرية عالياً . ورفع صوته جهورياً مدويماً - فإن
يلقى أعلام الحرية تحت أقدام الخلفاء ، بل هو كان أجدر الناس بأن يقول
للمنصور . ما قاله الزهرى من قبل هشام بن عبد الملك : والله لو نادانى مناد من
السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت !

ولم يجز فى بال الشيخ أن يقدر له الزمان مع أبى جعفر من النجاح . ما قدر
مع الرشيد لأبى يوسف . ولئن استطاع أبو يوسف أن يجمع بين الدين والدنيا وتعظيم
السلطان . لقد كلفه ذلك كثيراً من عبقرياته !

وكم كان من الفروق بين العهدين وبين الرجلين وبين الرسالتين بعد ربع
قرن .

لكن لأبى جعفر من الحق على التاريخ أن يزن رأيه التاريخ . فلقد أهدته وظيفة
القضاء . على ما أسلفنا من المقال . وما كان أعظم حاجة البلدة التى تحمل اسمه
(بغداد - مدينة المنصور) إلى أبى حنيفة . فى حين لم يكن بأبى حنيفة حاجة إلى
تلك البلدة أو إلى الرجل الذى تحمل اسمه . وفى عصر قال فيه ابن المقفع : « الملوكة
أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوكة » وفى عهد كان يستباح فيه من أجل
الدولة مالا يباح .

كان المنصور يريد أن يقرن مجد البسالة الزائل بمجد العدالة الذى لا يزول .
وفى سيرته من التذلى والسدو مالا مشابه له إلا فى سير أفاض الساسة والمؤسسين .
كأنما تأبى السماء على الأرض أن تستوى أشيائها وتنسبط . أو تأبى الطبيعة على النفس
أن تستمر فى تخليقها السماوى . فتم بطونها بطبائع الغاب . والظفر والناجب .
فى هذا الرجل عدالة عمرية وفيه خيانات دونها الكثير من الحيانات . ! اختلاف

مع زوجته (أروى) أم المهدي ، فجعل لها أن تختار قاضياً في خصوصتها واختارت قاضي مصر غوث بن سليمان . فحمل القاضي إلى العراق ووكلت خادماً ذا ليخاصم الخليفة في مجلس القضاء . فقال غوث لأبي جعفر : «إن رأى أمير المؤمنين أن يساوى الخصم في مجلسه» ؟ فانحط عن فرشه وجلس مع الخصم وأقر بشروط لها في كتاب الصداق ، وقضى القاضي ضده .

وكانت آية إعجابه بحكم غوث ابن سليمان أن أمر باحتباسه ليتولى قضاء الكوفة بدلا من قضاء مصر واعتذر غوث بغر بته فرده إلى ضفاف النيل .

وكتب إلى سوار بن عبد الله قاضي البصرة أن ينظر في أرض اختصم عايبها أحد قواده مع رجل من تجار البصرة . وكانت الأرض في يد التاجر . وكان أبو جعفر يرى أن يدفعها إلى القائد . فأبى القاضي ، فكتب إليه : « والله الذي لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القائد » . فكتب إليه سوار : « والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجها من يده إلا بحق » . واستقبل أبو جعفر تحدى سوار وجهارته بصياح الفرح فقال : « مآلتها عدلا . وصارت قضائي تردني إلى الحق » .

واستتضى الليث بن سعد إمام مصر بل قيل إنه عرض عليه ولايتها فأبى . واستتضى يحيى بن سعيد الأنصاري إذ استقدمه من المدينة إلى الهاشمية . واستتضى عبد الله بن وهب . فلزم ابن وهب داره واتخذ منها محباً ! فهدم الوالي عليه بعض داره واطلع عليه أسد بن سعد وهو يتوضأ في صحن الدار فناجده : « ألا تخرج إلى الناس فتتقى بكتاب الله وسنة رسوله ! » فرفع رأسه وقال : « إلى هنا انتهى عقلك ؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء وأن القضاة يحشرون مع السلاطين ؟ »

وسمع الناس ابن وهب يقول : يارب يغدو عليك إخواني غداً علماء حكماء فتنهاء ، وأقدم عليك قاضياً ، لا يارب ولو قرضت بالمقاريض . . . ! » وألح أبو جعفر على عمرو بن عبيد ورجاله (المعتزلة) ليحملوا معه تبعات الحكم فرفضوا .

كان أبو جعفر بناء مثاليًا من بناء الدول وافداً من الميدان — والسنة في

الميدان سنتان — فيه عزمات الفتوة والتفادات المحنك . فأخذت يسراه تبطش
بخصوم الدولة . وانطلقت يمانه في بسط وإيناس . تحمل ميزان المعدلة في
الناس . . .

كان سخاؤه من أجل الدولة مضرب المثل ومن أجلها أيضاً كان شحه
مضرب الأمثال . حتى ليسمى بالدوانيقي أو (أبي الدوانيقي) . والدانق $\frac{1}{4}$ درهم .
طلب إليه سوار (القاضي) أن يسوى أجر كاتبين لسوار — مرتب أحدهما
أربعون درهماً ومرتب الآخر عشرون — فكتب أبو جعفر إليه أن ينقص ذا
الأربعين عشرة . وأن يزيد ذا العشرين عشرة ! وإنما أراد سوار أن يلحق صاحب
العشرين بصاحب الأربعين !!

ولما علم أن ابنه المهدي وهب عشرين ألف درهم لشاعر . استرجع من الشاعر
سنة عشر ألفاً !!

وقال له : إن المهدي غر خدعته ولا يعرف قيمة المال !

ومع ذلك تجده يمنح الرجل من بني العباس مليون درهم ليجعل له داراً
ومكاناً . . .

وبينما يصيح بأنه ملاء الأرض عدالة . ويجمع حوله التواقين إلى العلم وعشاق
الحكمة . إذا بنفسه تسول له أن ينقض العهد الذي عاهد عليه يزيد بن هبيرة
بعد مفاوضات ظل الشهود يختلفون فيها أربعين يوماً . فلما انصرف يزيد من
مجلسه قال أبو جعفر : عجباً ممن يأمرني بقتل مثل هذا . . . !

لكن القائل أبو جعفر . فلا عجب إذا كان القاتل أبا جعفر . . . لقد قتله
وقتل معه ولده داود قبل أن يجف مداد العهد و (في العهود وفاء لا غدر) !

ودعا إلى قصره أبا مسلم الحراساني الذي أخرجه وأخاه من محبتهما في الكوفة
من بضع سنين ليمنحه ويمنح أخاه من قبله دولة تبقى إلى سنة ٦٥٦ هـ في بغداد .
وخلافة تبقى إلى سنة ٩٢٣ بمصر . دعاه إلى قصره مبيتاً له بليل . حتى إذا كان
بين يديه وثب به عبيده فقتلوه .

ولما هزم عمه عبد الله بن علي قائد الجيوش العباسية المظفرة احتسى عبد الله

بأخيه سليمان بن علي بالبصرة فأعطاه المنصور أماناً حتى سلم الأخ أخاه . لكن المنصور حبسه حتى مات وقتل أنصاره .

فلما عرض الأمان على محمد بن عبد الله جمع مخازي أماناته فكتب إليه : « أما أمانك الذي عرضت فأى الأمانات هو ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي ؟ أم أمان أبي مسلم ؟ والسلام... »

قيل له : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو . قال : لأن بنى مروان لم تبل رمهم بعد ، ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء . فليس تتمهد هيبتنا في نفوسهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة .

فهي السياسة إذن تدفعه إلى البطش وتعميه عن المغفرة . والغدر عنده مصلحة عليا ، والبطش عنده حكمة بالغة .

لكنه لم يك يختان ويغدر حيث لا تلزمه السياسة أن يخيس بعنده .

شرط لزوجته أروى ألا يتزوج عليها ولا يتسرى . ولما هم بالزواج من سواها حجته بعنده . فكان يكتب للفقهاء تلو الفقيه . بالحجاز والعراق يطلب في كتاب الشرط رخصة فلا يجد . حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد؟! فهو فيما بينه وبين الله صاحب عهد! أما في السياسة فعنده للدولة يدور وجهه مع صالحها حيث كان . فإذا أمن الأذى عليها تراءى لك البشر الذي يستقبل به القضاء ضده ، والنصح العنيف له . . .

كان يستقبل عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة بالترحاب وينشد فيه :

« كلكم يمشى رويد .

كلكم طالب صيد .

غير عمرو بن عبيد » .

وكان عمرو شيخاً جريئاً يطلق لسانه في الملوك وفي الصحابة ! قال لأبي جعفر يوماً : « إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها . واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده . . . » فوجم أبو جعفر فقال حاجبه الربيع بن يونس : يا عمرو نعمت أمير المؤمنين . قال عمرو للخليفة :

« إن هذا وأشار إلى الربيع - صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً وما عمل واره بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه » قال أبو جعفر: فما أصنع؟ قلت لك خاتمي في يدك فتعال وأصحابك فاكفني . قال عمرو: لا . أدعنا بعد لك تسخ أنفسنا بعونك . ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئاً نعلم أنك صادق...»

ودخل عليه سفيان الثوري فأغلط له القول . فسأله أبو جعفر فأجاب: . ثم قال: فما قولك أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفتت من مال الله ومال أمة محمد بغير إذنهم . وقد قال عمر في حجة حجتها وقد أنفق ستة عشر ديناراً هو ومن معه: « ما أرانا إلا وقد أجهننا بيت المال » وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار وأنت حاضر ذلك وأول كاتب كتبه في المجلس عن إبراهيم عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود (سلسلة الكوفة) أن رسول الله قال: «رب متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه ، له النار غدا . » فقال له أبو عبيد الكاتب: أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا؟ فقال له سفيان: «سكت فإنما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون» . ثم خرج سفيان فقال أبو عبيد: ألا تأمرني بقتل هذا الرجل فوالله ما أعلم أحداً أحق بالقتل منه . قال أبو جعفر: «اسكت يا أنوك (أحمق) فوالله ما بقي على الأرض أحد اليوم يستحي منه غير هذا ومالك بن أنس .»

كانت حالة أحكام عرفية في دولة لم تكند تستقر بعد ، يحشد لما اتقوى من كل حدب وصوب ! ولقد أمر أمير المؤمنين أبا حنيفة ولم يطع . فنهى عنده الثورة ، وحلف عليه فلم يطع فهما ثورتان . بل إنه ليحلف على عدم تنفيذ حلف الخليفة . فنهى عنده ثورات .

لقد كان يخطب في نفس العام الذي دعى فيه أبو حنيفة للقضاء فيقول: إنما أنا سلطان الله في الأرض ! لقد كان السلطان الذي في يده أضعاف ما كان بيد الملك الذي قال بعد قرون: «أنا الدولة» ونعني به لويس الرابع عشر . وكانت خطبه مملأى بدعوى الحق الإلهي في الخلافة . كان يطربه ويطرب بني العباس أن يقال للرجل منهم: ابن عمك رسول الله !! حريصين على أن يكون

ملكهم قائماً على رضا الشعب لكنهم لا يقبلون أن يراجع كلمتهم أحد، وأشدهم في هذا أبو جعفر حتى حتى له بنو هاشم أنفسهم هامهم العوالى . .

قال مالك : « دخلت على أبي جعفر ورأيت غير واحد من بنى هاشم يقبل يده المرتين والثلاث ! ورزقني الله العافية من ذلك فلم أقبل له يداً ! »

ومن أجل ذلك تراه إذ قيل إنه منح أبا حنيفة عشرة آلاف فرفضها، يرجو ألا يذيع في الناس أنباء العطاء والإباء ، ففي الرفض ثورة أو استعلاء ، وهو لا يقبل الثورة ولا يطيق الاستعلاء . فكيف يعرض عليه القضاء فيقف في وجهه مرة إثر مرة يقول : لا . . .

لكن ما هال أبا جعفر من رفض أمره جعل حقاً على أبي حنيفة أن يأتي وأن يصر على الإباء .

فالدولة التي لا تأذن بأن « يخضع السلاح للوشاح » كما يقول المثل اللاتيني ، ويضرب فيها القضاة ، هي أخرى الدولات بأن يجانبها رجال الوشاح وهم العلماء ورجال القضاء . و« إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » . كما قال عليه الصلاة والسلام .

رفض أبو حنيفة القضاء بين يدي أبي جعفر وبين يدي ابن هبيرة وضرب بالسياط ، وكانت أمه إلى جواره تقول : يانعمان إن علماً ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه . فأجابها : « يا أمه لو أردت الدنيا لوصلت إليها إليها ولكني أردت أن يعلم الله أني صنت العلم ولم أعرض نفسي فيه للهلكة » .

وأدخل السجن فلم يقبل أن يأكل من طعام الخليفة وبعث إلى ولده حماد يقول : قد علمت أن قوتي في الشهر درهمان من سويق (الناعم من الحنطة أو الشعير) . وقد حبسته عني فعجله .

ومكث في السجن أياماً معدودات ثم صعدت روحه إلى بارئها .

هكذا تعدى أبو جعفر الإلحاح إلى الإكراه ، وتعدى الإكراه النفساني باليمين . إلى الإكراه الجثمانى بالسجن ، وتعدى ذلك كله إلى التعذيب والضرب : فأى جنابة تلك يستحق بها عذاب الله وحساب التاريخ . . . ومهما قيل عن

نبالة الغاية فإنها لا ترحض عنه الوصمة والمذمة . فإذا كان الضرب أو السجن أو
الأم النفسى أو الجثمانى قد سبب موت الشيخ وهو فى السبعين فى هول ما يلقى به
ربه أبو جعفر . . . !

كان التجنيد للقضاء نهجاً نهجه الخلفاء من قبل المنصور ومن بعده .
وقديماً كان عمر بن الخطاب يقول حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام : « إن
خروجه قد أخل بالمدينة وأهلها فى الفقه وما كان يفتيهم به » ولقد كلم أبا بكر
فى أن يحبس حاجة الناس إليه فأبى ذلك عليه . .

لكن عمر لم يفكر فى سجن معاذ كما سجن أبو جعفر أبا حنيفة . وإنما تداول
الفاروق مع الصديق فى إبقائه بالمدينة لحبسه عن السفر كما كان عمر يفرق الصحابة
فى الأمصار ويحبس زيد بن ثابت عنده لأن أهل المدينة « محتاجون إليه فيما
يجدونه وفيما يحدث لهم فيما لا يجدونه عند غيره » . والفرق بين الخليفين كالفرق
بين التوفيق والاندفاع . بين رجل الله ورجل الملك . وبين خليفة الصديق وخليفة
السفاح .

عرض المأمون القضاء على تلميذ أبى يوسف . معلى بن منصور غير مرة
فأبى : وعرض قضاء بغداد على تلميذ محمد . موسى بن سايمان الجوزجاني .
فامتنع فأجله سبعمائة وهدده إن لم يقبل ليعذبته وليحبسه فقال له : « يا أمير المؤمنين :
قد صح عندي أنك إذ عرضت على أحد الأخوين الصالحين سهل بن مزاحم
حيث كنت بمرو فامتنع عليك فعاقبته ثم ندمت فقلت لا أكره أحداً على العمل
بعد ذلك فرأيتك لا تكرهنى » . فجعل المأمون يقول : أخوين صالحين بمرو .
فتفكر ساعة ثم قال للجوزجاني . قم انصرف .

ولما كان بمصر دعا على بن معبد للقضاء فامتنع . فرجاه فى أن يولى أخاه
بدلاً منه كما يستعين هو بأخيه المعتصم . فاستعفاه ابن معبد .

ولقد جرت ولاية القضاء فى الوسط العلمى على أنها ابتلاء يفرع منه العلماء
فرع الأصحاء . من الرباء ! كما جرت على الألسن العبارات التقليدية : « ابني
بالقضاء . وامتحن بالقضاء » . حتى ليسترجع الناس ويترحمون على من اختار
الوالى لقضائه كأنما أصابه الله بقضائه !!

ولى عبد الرحمن بن حجيرة قضاء مصر وبلغ الخبر أباه في فلسطين فقال :
إنا لله وإنا إليه راجعون ! هلك الرجل !

وهذان قاضيان ووال يتداولون في شأن القضاء على أنه (شفير جهنم) !

كتب عمر بن عبد العزيز إلى واليه ليجمع بين إياس بن معاوية والقاسم
ابن ربيعة فيولى القضاء أنقذهما . فلما اجتمعا قال إياس للوالى : أيها الرجل سل
عنى وعن القاسم فقيهى البصرة الحسن وابن سيرين - وكان لا يجلس إليهما ،
وكان القاسم يفعل ذلك - فعلم القاسم أنهما إن سئلا أشارا إليه فقال : لا تسأل
عنى ولا عنه . فوالله الذى لا إله إلا هو إن إياساً أفقه منى وأعلم بالقضاء .
فإن كنت كاذباً فما ينبغى أن تولينى . وإن كنت صادقاً فينبغى لك أن تقبل
قولى . قال إياس للوالى : إنك جئت برجل فأوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه
منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف . فقال الوالى : « أما إذ فهمتها
فأنت لها . . » واستقضاه . .

وهذان مذهبان يتلاومان : ولى القضاء ابن سريج فعتب عليه ابن خيزان
بقوله : « هذا الأمر لم يكن فى أصحابنا . . وإنما كان بلية فى أصحاب أنى
حنيفة » .

بل إنه ليس بلية فحسب . ولا شفير جهنم فحسب . ولكنه : « ذبح بغير سكين » :
ولى سحنون قضاء أفريقية وسنه أربع وسبعون سنة فلما دخل على ابنته قال
لها : « اليوم ذبح أبوك بغير سكين » فعلم الناس قبوله القضاء .

ولئن عجبت لاعتبار ولاية القضاء ذبحاً بغير سكين ، إن العجب ليوفى
على الغاية من فهم السامع للمراد بهذا التعبير دون تفسير !
وهذا ابن مسكين . من تلاميذ سحنون ، يتولى القضاء إذ تكاد السيوف تسلمه
للحتوف .

جلس إبراهيم بن الأغلب أمير أفريقيا وبحضرته عيسى بن مسكين
فسأله :

ما تقول فى رجل قد جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء وألم به شعث

هذه الأمة ، فامتنع ؟ قال : يازمه أن يلي . قال الأمير : تمتنع . قال : تجبره على ذلك بجملد . قال الأمير الداهية : قم فأنت هو ! قال : ما أنا بالذي وصفت وتمنع ! ! فأخذ الأمير بمجامع ثيابه وأدنى السيف من نحره ، فتقدم بعد أمر عظيم واجتماع الناس عليه على اختلاف مذاهبيهم .

ولما عرض الرشيد القضاء على المغيرة بن عبد الرحمن فقيه المدينة بعد مالك - وكانت جائزته أربعة آلاف دينار - قال : « والله يا أمير المؤمنين لأن يختتنى السلطان أحب إلى من القضاء » . فقال الخليفة السمع : ما بعد هذا شيء وأجازه بألفي دينار .

وكذلك الذي يؤثر أن يختنته السلطان ، هذا الذي قيل إنه يؤثر أن يدعو الله على نفسه فيقبضه الله إليه .

سأل الأمير قاسم بن ثابت بن حزم أن يلي القضاء فامتنع . فأراد أبوه أن يكرهه عليه فسأله أن يمهل ثلاثة أيام يستخير الله تعالى . فمات في الأيام الثلاثة ! فكانوا يرون أنه دعا على نفسه .

ودعى ابن خيزان للقضاء فامتنع ، فحتم عليه الباب عشرة أيام حتى احتاج إلى الماء فلم يقدر عليه إلا بمناولة البحيران من الكوة ! فقال الوزير الذي حبسه : « ما أردنا بالشيخ أبي علي إلا خيراً . أردنا أن يعلم الناس أن في مملكتنا رجلاً يعرض عليه القضاء شرقاً وغرباً وفعل به مثل هذا وهو لا يقبل » .

وعرضت البخوانز على الإمام الطبري فرفض . وعرض عليه القضاء وولاية المظالم فرفض ، وأشار عليه صحبه قائلين : لك في هذا ثواب وتحي سنة قد درست . فبههم قائلين : « كنت أظن أني لو رغبت في ذلك نهيتوني عنه » .

ولما أبضأت عليه النفقة من مدينة آمل حيث كان أبوه ينفذ إليه الشيء بعد الشيء ، آثر أن يفتق كمي قميصه فيبيعهما .

وأكره التائم بأمر الله القيروز أبادي علي أن يتفاد له النظر في الأحكام والمظالم شرقاً وغرباً فامتنع ، فوكل به . فكتب إليه : « لم يكنك أن هلك

حتى تهلكنى معك» ؟ فبكى القائم بأمر الله وقال : هكذا فليكن العلماء إنما أردنا أن يقال إنه كان في عصرنا من وكل به وأكره على القضاء فامتنع : وقد أعفيناه :

صنع العلماء ذلك - وأمثاله كثيرة في التاريخ الإسلامى - خشية أن يزلهم الشيطان فيخطئوا أو يفرط عليهم السلطان ويطنى ، بل بلغ التحرج بالبعض أن يردوا شهادة الرجل إذا خرج لقدم الأمير استمساكاً بجرمة القضاء كى لا تثبت الدعوى بشهادة من يخاف الأمراء :

* * *

هؤلاء العلماء الأفذاذ قد نشأتهم آثار الفضل التى خلفها لهم سلف صالح فى قمة أسائه أبو حنيفة النعمان ، يحملون آثامهم فى وجه التاريخ مفاخرين ، كما حملوا رءوسهم على أكتفهم مخاطرين ، وكما صنع أبو حنيفة فى عهد القوة القاهرة ، والدولة المسيطرة ، والمستبد الذى لا يغفر أن تعصى رغبته ، ويكتسح سلطانه الأمراء والقواد والعلماء والأئمة ! . . .

فلم يكن عدلاً لهذا الجبروت إلا ذلك الاستعلاء . ولا كفتاً لهذا الطاغية العظيم إلا ذلك الإمام الأعظم :

وبهذا كان الدرس رائعاً ونافعاً للعلماء ولأئمة العلماء كلما ذكره ابن حنبل بكى وترحم على أبى حنيفة بعد ما ذاق ابن حنبل من إرهاب فى محنة خلق القرآن .

هنالك وضع نفسه رابع الأئمة حيث وضع نفسه أول الأئمة .

لم يقبل ابن حنبل أن يقول إن القرآن مخلوق . . ودعا نائب المأمون إليه العلماء ، كما طلب المأمون ، يسألهم فوروا ولم يجيبوا ، أما ابن حنبل فقال : هو كلام الله لا أزيد على هذا . . فوجه به إلى المأمون بطرسوس ثم إلى الرقة ، وكان المأمون قد مات ودفن بطرسوس ، بعد أن أوصى خليفته المعتصم بأن يحمل الناس على القول بخلق القرآن ، فرد ابن حنبل إلى بغداد مصفداً . ومكث فى حبسه ثمانية وعشرين

شهرًا وفي رجليه أربعة أصفاد .. وأخيراً حمل إلى المعتصم وإلى جواره قاضيه ووزيره
والمحرض الأكبر في فتنة خلق القرآن أحمد بن أبي دؤاد وطائفة من العلماء، ليناظروه
أياماً ثلاثة . فلما كان اليوم الثالث ، تقدم الجلادون يضربونه . كل منهم سوطين
والمعتصم يقول للجلاد : شد قطع الله يدك . ولما لم يجد العذاب فيه تقدم المعتصم
إليه يقول : إني والله عليك لشفيق . . ونخس ابن حنبل ناخس بالسيف وقال أتريد
أن تغلب هؤلاء كلهم . .

وقال قائل يا أمير المؤمنين دمه في عنق أقتله ؛ وجعل آخرون يقولون : يا أمير
المؤمنين أنت صائم . وأنت في الشمس قائم !

كانوا يخشون صيامه وقيامه . ويخافون الشمس . ولا يخافون جهنم التي
يوعدون

ثم قال المعتصم : ويحك يا أحمد ما تقول ! وعاد يقول للجلاد : أوجع
قطع الله يدك ! فجعلوا يوجعون . وعاد يقول : أجبني . ويقول للجلادين :
أوجعوا .. حتى فقد ابن حنبل وعيه . فلما أفاق وجد الأصفاد قد فكت . وقال
له أحد الحاضرين : إنا كبيناك على وجهك . وطرحناك على ظهرك ودسناك . .
وجيء به والدم ينزف منه . وكان صائماً وأنى أن يشرب . فقام وصلى حينما حضرت
الصلاة في الظهر والدم يسيل منه : قالوا : كيف تصلى كذلك . قال : « صلى
عمر وجرحه يشغب دماً » .

تعلم ابن حنبل على أبي حنيفة . وتعلم آخرون على ابن حنبل . كزميله
البويطي إذ حمل من مصر إلى بغداد ليقول مثل ما دعى لقوله ابن حنبل فأبى
ومات في أصفاده . وقتل الواثق أحمد بن نصر لنفس الأسباب .

وتعلم العلماء على أئمتهم فكرم الله بهم الإسلام في كل مقام .

سمع عز الدين موسك من أمراء دولة بني أيوب بمصر عن الإمام القاسم
الشاطبي إمام القراءات فدعاه ليمثل أمامه . فبرم الشاطبي بالدعوة وبعث إليه
برقعة فيها :

قل للأمير نصيحة لا تركزنن إلى فقيهه
إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

ترى هل يذكر الذاكرون اسم الشاطبي وهم يسلكون (شارع الموسكى) إلى
أقدم جامعة في العالم ! نعى الجامع الأزهر . ! لكأنما : خطت يد التاريخ من ذلك
الشارع تمثالا لكرامة العالم ، وإن أطلقت عليه اسم الأمير .

* * *

وفي عهد الأيوبيين أيضاً ولي السلطان نجم الدين أيوب على قضاء مصر شيخ
الإسلام أبا محمد العزبن عبد السلام . ورأى الشيخ أن يباع أمراء الدولة باعتبارهم
ممالك وتضاف أثمانهم إلى بيت المال ! فهاجوا وأرادوا قتله ، لولا أن حمته منهم
رعاية السماء وحمتهم منه عناية السلطان . فاشتراهم السلطان بماله ودفع إليه الثمن
ليصرفه في وجوه البر كما يرى .

وكان أحمد بن طولون صاحب مصر يعظم بكار بن قتيبة القاضي الحنفى فيجئ
إلى مجلسه ولا يحس بكار بمقدمه إلا إذا جاء إلى جنبه . فلما طالبه بلعن الموفق
(ولى عهد الخليفة العباسى) توقف وقال : ألا لعنة الله على الظالمين .

وقيل لابن طولون إنما قصدك بهذا القول . فطالبه ابن طولون برد الجوائز التى
أجازها بها فأخذها كما هى بخواتمها وسجنه فى دار اكتريت له . فكان يجلس فى
طاق ويحدث الناس بإذن التمسوه من ابن طولون .

فلما عرضت لابن طولون علته التى مات فيها وجه إليه يستحله ، فقال
للرسول : قل أنا شيخ كبير وأنت عليل والملتقى قريب والله الحاجز بيننا .

ومات ابن طولون فكان بكار يقول : مات البائس .

وكما اجتمع الناس حول بكار فى سجنه اجتمع آخرون ليملى عليهم السرخسى
من حبسه : فى جب السجن فى أوزجند . إذ نصح الحاقان فأسخطه فحبسه .

وتعالى العلم بالعلماء عن أن ينحنوا أمام الأمراء . فلما أصيب بالفالج شيخ
الحنفية ببغداد عبد الله بن الحسين الكرخى . كتب أصحابه إلى سيف الدولة فى
طلب ليعينه . وبكى الشيخ إذ علم . ودعا الله قائلاً : اللهم لا تجعل رزقى إلا من
بيت عودتى .

واستجاب إليه ربه فمات قبل أن تصل إليه عشرة آلاف درهم .

وسأل السلطان علي بن الحسن النيسابوري : لم لا تجيء عندي ؟ فقال : « أردت أن تكون خير الملوك إذ تزور العلماء ولا أكون شر العلماء حيث أزور الملوك » .

ولما تهيأ للحج شمس الدين الحيايلى وأخبره الصدر الأعظم بتعيينه للدرس قال له شمس الدين « إن أعطيتنى وزارتك وأعطانى السلطان سلطنته لا أترك هذا السفر » !

الخاتمة

في التاريخ

« سيذهب كل منا في طريقه ، أنا في طريق
لأموت ، وأنتم في طريقكم لتعيشوا ،
والله يعلم أي الفريقين أهدى سبيلا »
سقراط

لم تكن حياة أبي حنيفة وإن طالت إلا معركة واحدة سلخ فيها الفكر الإنساني سبعين عاماً بين التحضير والتدبير والملحمة ، ولم تكن لبطلها غاية ولا وسيلة إلا الحرية والتسامح ، في كل أطوارها .

والعالم الذى يقوم على التسامح هو وحده العالم الجدير بالحياة ، والوجود المنبعث من نفوس حرة هو وحده السبيل إلى عمارة الدنيا بالنشاط الفكرى والرخاء المادى .

وبعد أن ذاعت نظريات أبي حنيفة فى الإيمان وفى الحرية وفى الاجتهاد بالرأى ، استقل بإمامة ثلثى الأمة عن سائر المذاهب والأفراق ، ورقى سلم المجد إلى أسمى ذرواته ، لينزل فى التاريخ منزلة الإمام الأعظم لأهل الإسلام .

ولما ختم حياته فى سبيل الحرية كان كالذى كشف الغيب فوضع نفسه حيث وضعت الأجيال ، وكان كالمؤلف يضع على مؤلفه بعد الفراغ منه عنوانه .

فهل صحيح ما قيل من أن حبسه كان لسبب سياسى هو تشييعه لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المسمى بالنفس الزكية أو لأخيه إبراهيم ؟ أو أنه لم يجبس إلا من أجل القضاء .. ؟

إن من المسلم أن محمداً وأخاه إبراهيم قتلا فى سنة ١٤٥ حين خرج محمد بالمدينة على أبى جعفر وبعد أن خرج عليه إبراهيم فى البصرة .

وإذا كان من المسلم أن الأجل وافى أبا حنيفة عقب حبسه بأيام فى سنة ١٥٠ فإنه يكون عجباً أن يتشيع أبو حنيفة للموتى بعد إذ ماتوا بخمس سنين . وأعجب منه أن يرتاع رجل شديد البأس ، قوى المراس ، كأبى جعفر ، من العطف على ذكريات الموتى ، لو جاز أن يتشيع الناس لهم ذلك التشيع الذى يخرج الفقيه الأعظم عن حكمة السبعين عاماً !

لقد كان أبو حنيفة إذا سئل عن على ومعاوية وقتلى صفين أو خلافات الشيعة والأمويين يقول : « أخاف الله أن أقدم على شىء يسألنى الله عنه . وإذا أقامنى

يوم القيامة بين يديه لا يسألني عن شيء من أمورهم : يسألني عما كلفني : والاشتغال بذلك أولى .

وكان المنصور من الناحية الأخرى واسع الصدر بعيد النظر في آراء خصومه ، وأشياء خصومه . سمع أن عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة كاتب محمد بن عبد الله فسأله فيما سمع . فقال له عمرو : إنه يعرف رأيه في السيف - وهو أنه لا يرى الاستعانة بالقوة لتأييد أغراضه - فطلب إليه المنصور أن يحلف فقال : « لئن كذبتك تقيّة لأحلفن لك تقيّة » فارتضى منه ذلك .. وقنع من زعيم المعتزلة بما كان حرياً أن يقنع به من زعيم الفقهاء لو ثبت شيء ضده . أو قامت الشبهة فيه عنده .

ولئن قال نابوليون في أعقاب (مسكوف) « لا عدو بعد النصر » أو أمر مملوكه « رستم » بسقيا الجريح الروسي من الزاد الإمبراطوري ، فإن المنصور كان يصنع صنيعه في بعض من استيقن تشيعهم لمحمد وإبراهيم .

كان المنفضل الضبي (صاحب المفضليات) من أنصار إبراهيم إذ خرج على المنصور . فلما أظفره الله بإبراهيم ، وأمكته من المنفضل ، عفا المنصور عما سلف واستخلصه لنفسه وقربه نجياً ، فصار نجماً في البلاط ، وألقى إليه ولده المهدي يؤدبه ويرعاه .

وكان المنصور فتي جلدأ لا تروجه مدلهمات الخطوب . يخرج عند الثورة على دابة يحارب الجموع وحده . فكيف ينقم على المقهورين أو على الموتى بعد إذ ماتوا وتصرمت على وفاتهم السنون . وبعد أن مكن لدولته فبني مدينته . وملاً خزائنه بالمال ودواوينه بالرجال .

ولم يتم بنيان بغداد إلا في سنة ۱۴۹ وإن كان المنصور قد انتقل إليها سنة ۱۴۶ . بل قيل إنه كلف أبا حنيفة بعد ما في سورها من آجر : وضربوا مثلاً على ذكاء أبي حنيفة ابتكاره طريقة الحساب بعد ما في الذراع من لبنات ومقاس ما في السور من أذرع .

وقيل إن شقاقاً شجر بين المنصور وإحدى حليلاته فطلبت العدل بينها وبين سائرهن . فسألها المنصور عن ترضي للحكومة في هذه الخصومة . قالت بأبي

حنيفة : فأحضر . وجلست تلك من وراء الستر . قال أبو حنيفة : فليتكلم أمير المؤمنين . قال أبو جعفر : إنها تخصمني ، كم يحل للرجل أن يتزوج من النساء ليجمع بينهن ؟ قال أبو حنيفة : أربع . قال أبو جعفر : وكم يحل من الإماء ؟ قال : ما شاء ليس له من عدد . قال أبو جعفر : اسمعى يا هذه . قالت : قد سمعت . فانطلق إمام أهل الرأى يقول : « يا أمير المؤمنين . أحل الله ذلك لأهل العدل . فمن لم يعدل أو خاف ألا يعدل فينبغي ألا يجاوز الواحدة . قال الله تعالى : (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) فينبغي أن نتأدب بأدب الله فنتعظ بمواعظه .. » وسكت أمير المؤمنين وطال سكوته ، وخرج أبو حنيفة . فلما بلغ منزله جاءه غلام بهدية من السيدة التي أدب من أجلها أمير المؤمنين ذلك الأدب : خمسين ألفاً ، وجارية ، ودابة .

فقال للغلام : « أقرئها سلامي وقل لها إنما ناضلت عن ديني » وما مد يده إلى شيء حتى حمل من بين يديه .

دخل على أبي جعفر يومئذ وإلى جوار أبي جعفر الربيع بن يونس . وفي رواية أخرى محمد بن إسحاق صاحب المغازي . وكان الربيع ينفس على أبي حنيفة مكانته ، فابتدعه بقوله : يا أمير المؤمنين ، هذا أبو حنيفة يخالف جدك في الاستثناء المنفصل « فلقد كان جده عبد الله بن عباس يقول : إذا حلف الحالف ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين إلى سنة في قول ، وأبداً في قول آخر . جاز الاستثناء من اليمين ، في حين يرى أبو حنيفة أن الاستثناء لا يجوز إلا متصلاً باليمين . والاستثناء عنده لا يصح إذا صدر القول باتاً في المجلس . »

فلم يحزن أبا حنيفة قوله ، بل واجهه العاصفة بالأعصار ، وقذف في وجه الربيع بآية من آياته . قال : يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جنك بيعة ! قال أبو جعفر : وكيف ؟ قال أبو حنيفة : « يخلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستنون فتبطل أيمانهم ! ! » وبهت الذي أثار الثائرة لأن أبا جعفر كان يلتبس البيعة من كل الأقطار .

وضحك أبو جعفر وقال : يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة .

بلى . ولو أبيع الاستثناء المنفصل لم تكذب تقع يمين . إذ كان الناس يستنون بدلاً من الكفارات ويستنون حتى لا تطلق نساؤهم .

في تلك المقابلة أوفى نظائرها دخل أبو حنيفة على أبي جعفر : فوجد أبا العباس

الطوسي - وكان سيء الرأي فيه - فقال لمن حوله في صوت خفيض : « اليوم أقتل أبا حنيفة » . وأقبل عليه يقول : يا أبا حنيفة ، إن أمير المؤمنين يدعو الرجل فيأمره بضرب عنق الرجل . لا يدري ما هو . أيسعه أن يضرب عنقه ؟ فأجابه الشيخ بإحدى روائع القياس . قال : « أمير المؤمنين يأمر بالحق أو بالباطل » ؟ قال الطوسي : بالحق . قال : « أنفذ الحق حيث كان ولا تسأل عنه » والتفت إلى من قرب منه وقال : « أراد أن يوثقني فربطته » .

وأى رباط ! لقد وضع له الجواب من سؤاله . والسؤال عن وجه الحق لا يصدر إلا من رجل لا يعرف أن الخليفة يأمر بالحق أم بالباطل . وبهذا سلم المسئول وانكشف السائل .

هذه الأنبياء وأمثالها تدلنا على أن أبا حنيفة كان يدخل على المنصور بالهاشمية أو بمدينة السلام ، إماماً رفيع المقام ، مسموع الكلام . قبل أن يدخلها في طريقته إلى السجن . وتدل على أن غضب الخليفة كان غضب الفجاءة لأسباب جاءت كذلك فجاءة .

* * *

وفي الحق إن مدينة المنصور كانت كل شيء للمنصور . وكان أبو حنيفة في أخريات أيامه يحمل على مفرقه عدة من التيجان . فكيف تخلو المدينة الخالدة من الرجل الذي كتب له الخلود .

كيف لا تزدهى به مثلما تزدهى به الكوفة . وكيف تمتنع هذه التيجان التي تكلل هامة الإمام الأعظم عن أن تنتظم في جواهر التاج الأكبر ! لقد كان عليه أن يتبل القضاء في بغداد وأن يخنى رأسه للخليفة وإلا فإن الرفض ذنب عند أبي جعفر لا يغفر .

كان أبو جعفر يحس إحساس (تيزيه) إذ بنى أثينا . وإحساس رومولوس إذ شاد روما . والذي يشيد مدينة يعشقها فيهاها كهوى الغانيات بل أشد . لأنه يخلد فيها نفسه وأولاده ومفاخره وآراءه وحضارة جيله . وفي سبيل هذا التخلي هانت على البنائين كل التضحيات . فهم لا ينشئون مدائن فحسب وإنما ينشئون مدنيات ودنى كاملة . أين منها الصروح الممردة والآثار .

ولقد كلف أبو جعفر بالبناء حتى ليعتبر أبا المدائن بحق . بنى بغداد للدنيا وأحاطها بالقطائع ، وبنى الرصافة لولده المهدي ، وبنى الكرخ ، وكلف المهدي ببناء الرافقة بل إن أبا جعفر هو الذي بنى الدولة العباسية نفسها .

وانتقلت نزعة البناء إلى الوزراء . قال يحيى بن خالد لولديه الفضل وجعفر : « لا شيء أبقى ذكراً من البناء فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكراً » فاتخذ كل منهما لنفسه قصرًا ، وقيل إن جعفر - في عهد الرشيد - أنفق على قصره عشرين مليون درهم غير الأثاث .. !

ومنذ ألقى عام قبل المنصور تنازل « تيزيه » عن ملكه لينشئ « أثينا » . ومنذ ثلاثة عشر قرنًا قبله كان « رومولوس » لا يقتل الأعداء ولا يسبي النساء وإنما يأمرهم بهدم قراهم ودساكرهم وأن يقدموا لتعمير « روما » . وكان « تيزيه » أول من تنازل عن الملك لخير الشعب كما قال سقراط . وصار « رومولوس » فيما بعد إلهًا يخر له الرومان سجدًا إلى الأذقان !

وكان سلطان أبي جعفر أعظم من سلطان تيزيه ورومولوس معًا . فيجب أن يعمر بغداد وفق ما يهوى : والويل لمن يقف في الطريق .

فحبس أبي حنيفة إنما كان في سبيل أن يتولى لأبي جعفر قضاء بغداد وأن يصدع بما يؤمر . ولا يرد على الذهن أن يكون ذلك السبب اختراعًا . لأن بغداد كانت قد تم بناؤها . ولأن من السائغ أن يرى أبو جعفر أن الولاية على قضائها لم تكن تصلح إلا له . وليس تشييد مدينة السلام بحادث عادي . إنما هو الحادث الأعظم الجובר بدعوة الإمام الأعظم . والخليق لدى المستبد المطلق السلطان بأن ينزل به ما أنزل من العقاب في نفس الزمان ونفس المكان .

ولو كان الغضب من أجل محمد وإبراهيم لأحدث في أبي حنيفة آثاره أيام أحدث فيهما آثاره . فلم يكن الإمام الأعظم نكرة فينسى خمس سنوات أو عشر سنوات بعد أن نكل المنصور بالأخوين الشهيدين وبأبيهما وبأهليهما :

لقد بدأ المنصور البحث عن محمد وإبراهيم من سنة ١٤٠ ولما لم يعثر عليهما حج سنة ١٤٠ وطالب بهما أباهما فأنكر معرفته لمقرهما فحبسه وصادر أمواله ،

فكيف ينال عن أبي حنيفة كل ذلك الزمان ، وليس من طبيعة أبي جعفر أن ينال .
كان مالك في أوج مجده العلمي والديني في جوار النبي ، إذ قيل إنه أفتى بأن
بيعة الناس للمنصور كانت مكرهة أي غير ملزمة للناس ، مما أله منه محمد بن عبد الله
عند خروجه ، أو قيل إنه سئل عن البغاة ، أيجوز قتالهم ؟ فقال : « إن خرجوا على
مثل عمر بن عبد العزيز » . فقيل فإن لم يكن مثله ؟ فأجاب : « دعهم ينتقم الله
من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما » . فلم يحل ذلك المجد بين عامل أبي جعفر على
المدينة وبين جلد مالك .

ولئن راجع أبو جعفر واليه فيما صنع لقد كان ذلك خوفاً من الله لا خوفاً من
الناس . ذلك بأن أبا جعفر كان قد مكن للدولة فلم يكن يخاف ولم يكن يخفى .
والذي يخفى هو الذي يخاف . كالذي يخاف هو الذي يخفى .

فلو أخذ المنصور على أبي حنيفة مأخذاً لناقشه الحساب من فوره جهرة ، مثلما
أخذ محمداً وإبراهيم جهرة . وحبس أباهما في وضوح النهار .

ولم يك أبو جعفر ليأمن جانب الكوفة ، فيذر الإمام الأعظم في مسجدهما
خمس سنوات طويلاً يسكب في دروسه السخط المدمر - لو صح ما يقولون -
وأبو جعفر أعلم الناس بمبلغ ما أحدثته الدعاية على يديه ويدي أخويه أبي العباس
وإبراهيم الإمام وأشباعهم في الكوفة نفسها وفي خراسان وفي سائر البقاع .

وإذا روى عن تلميذ من تلاميذه أنه اعترض على أستاذه لحوضه في ذكر محمد
أو إبراهيم فإن ذلك لم يتأيد من مصادر متعددة وهو لا يثبت على المقارنة التاريخية
للسلاسل التي ألمنا بها في إنجاز .

وأبو حنيفة هو الإمام الأعظم لأهل السنة . أما الشيعة فذات فقه خاص
وأحاديث ومعتقدات خاصة . تضمنتها مؤلفات ضخمة دون منها الكثير زيد بن
علي وجعفر الصادق وغيرهما . ولم يعرف عن أبي حنيفة أنه روج لفقه الشيعة . بل
لم ينعكس على مرآته الصافية آثار فكر شيعي .

ولئن كان يعطف على الضحايا من أهل بيت النبي . إن أفئدة الأمة جمعاء تهوى
إليهم . لقد كان « صاحب الأغاني » حفيداً لمروان آخر خلفاء بني أمية . ومع
ذلك كان شيعياً .. !

وليس معقولاً أن يكون أبو حنيفة شيعيناً بفعله أو قوله أو بهواه ، دون أن ينكشف الحقي من أمره ، أو ينعكس أثره على عمله ، في معاركه الخالدة مع الخوارج ومع المحدثين ومع الولاة ومع الخليفة وسواهم .

وإنا نخاصم ابن هبيرة كان خصامهما حريئاً بأن يكشف أستار غيبه ، بل إن بنى العباس كانوا مع الشيعة حتى بويح لأبي العباس في سنة ١٣٢ ، فهم العليمون حقاً بأشياء الخفاء .

فكيف يكون من هؤلاء . ولا يأخذ السفاح أو المنصور عليه شيئاً مما أخذاه على زعماء أهل البيت في بضعة عشر ربيعاً كانت كلها النكال للشيعة .

وإذا صح ما روى من صلاة المنصور على قبره بعد وفاته . فإن المنصور لا يصلى على من أراد اقتلاع دولته من الأعماق .

لقد رفض أبو حنيفة القضاء لبني أمية كما رفضه لبني العباس . ولو كان يدفعه الهوى والغضب لكان هواه مع الدولة المقبلة من الشرق من بلاد أجداده . وبخاصة وقد ناله من أذى العهد المصرم ما كان قسیناً بأن يصل أسبابه بالنظام الجديد ، لو كان أمر امتناعه راجعاً إلى الهوى . أو إلى الأذى . أو إلى النظام .

* * *

إنما عافت نفس أبي حنيفة القضاء لأبي جعفر لأنه ليس القاضى المحسوب على الحكام والحاشية . وليس هذا القاضى إلا ألعباناً يعرض على النظارة فنوناً من الظلم على أنها العدل ، وما هي في الحق إلا نتاج العبودية والمهانة والابتدال .

والقضاء المسخر كالفكر المشتري والقلم الأجير أتعس ما في الأسواق من سلع وعروض .

والرأى هو العرض : يبيع عرضه من يبيع رأيه . ذاك لشهوات الحس واللمس وهذا لشهوات الفكر والنفس . بل إن من يبيع رأيه يبيع جسده . فما الصمت أو البيان ، أو اللسان أو البنان . إلا أجزاء من جسم الإنسان .

في بيوع الفكر يغطي المتبايعان عقود الاسترقاق بشتى مظاهر الاستقلال والاحترام ، ويغلو الفقيه العبد كل الغلواء في دعوى الإباء وحرية الآراء ، وبقدر ما يتطلب

من الغطاء يحدث من الضوضاء . وكلما ذلت النفس استحکم مركب النقص ، فكبرت الدعوى وكثرت الأستار .

ما أتعس هذا الفقيه لو قدر لك أن تكشف الغطاء الجسدى عن تفكيره في هواه أو هوى مولاه .

هنالك لا تجد الأشياء ولكن ظلال الأشياء ، ولا تسمع الأصوات ولكن تسمع الأصداء ، وتجد حساباً لما ليس في الحساب . المعلوم يتحكم فيه المجهول ، والعلل ينتجها المعلول ! وأسماء تعود المظلومون أن يسمعوها . كالمصلحة العامة والنظام وما هي إلا نهمة الدنيا وهماهم العيش وفساد الضمير .

هنالك تشهد الفقيه العبد في شوهته ودمامته وانحلال شخصيته كالممثل الهزيل في أعتاب الرواية هدنه الذبذبة الدائمة وقبحه الاصطناع . فأسمى مسخاً شائهاً ترى دمامته كل الأنظار وهو لا يكاد يراها .

هنالك الأرضى يحارب السماوى وتسمى بغير أسمائها الأشياء . هنالك تسيطر الأفكار التجارية ونزعات السوق ، ويتحالف أهل الرذيلة على أهل الفضيلة ، ويأخذك العجب وتتساءل : لماذا يتواصل أهل الرذيلة في حين أن ذوى النضل ، في أبراجهم ، لا يتواصلون .

هنالك النفوس الرديئة تحاول أن تغرد النفوس الجيدة . ويتعامل رجال الحكم ورجال العلم بقانون العرض والطلب ، والنفضة والذهب ، وانصاحة في شئ صورها وعروضها . كالوظيفة والرضاء ، والحياة الوادعة الساجية . وما هي إلا رشي مستورة من رغبة ورهبة أو منظورة ذات نعان ورنين .

رووا أن قاضياً من قضاة قرطبة كان كثير الاتباع ليحيى بن يحيى لا يعادل عن رأيه . فوقع قضية تفرّد فيها يحيى وخالف جميع أهل الشورى ، فأرجأ القاضى التضاء فيها حياء من جماعتهم . وردفته قضية أخرى كتب بها إن يحيى فصرف يحيى رسوله وقال له : لا أشير عليه بشئ . فلما انصرف إليه رسوله وعرفه بقوله ركب من فورهِ إلى يحيى وقال له : لم أضن أن الأمر وقع منك هذا الموقع وسوف أقضى له غداً إن شاء الله . فقال له يحيى : « وتفعل ذلك صديقاً ؟ » قال : نعم قال له : « فالآن هيجت غيظى . فإني ظننت إذ خالفتني أصحابى أنك توقفت مستخيراً لله . متخيراً في الأقوال . فأما إذ صرت تتبع الهوى وتقضى برضى مخلوق

ضعيف فلا خير فيما تجيء به ولا في إن رضيته منك ، فاستعف من ذلك ، وإلا رفعت في عزلك .

فرجع يستعفى فعزل .

وهكذا طب الفقيه العظيم بدوائه قاضياً ممن عناهم « فولتير » بقوله عن قضاة « كالا » : لا تذكروني بهؤلاء القضاة الذين نصفهم قروء ونصفهم قضاة ، بل قاضياً ممن توعدهم عمر بقوله : « ويل لديان من في الأرض من ديان من في السماء ، يوم يلقونه إلا من أمر بالعدل وقضى بالحق ولم يقض على هوى ولا على قرابة ، ولا على رغب ولا على رهب ، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه » .

ليس أبو حنيفة هذا القاضي ولا ذلك الفقيه : لقد قال له الأمير يوماً لم تغشنا ؟ .

فقال : لأنه ليس عندي ما أخافك عليه . وإن أُقربني فتننتي وإن أقصيتني أخزيتني .

والذي يقول هذا للأمير هو الذي يقول للناس : « من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا وكل شدة فيها » .

لقد عاش حياته في ذروة الفضل بين الناس وبين أقطاب الشرائع فلم يبق أمامه إلا أن يموت ميتة تليق بهذه الحياة . كان قد عمر سبعين عاماً ليست طويلة في أقيسة الزمان ولكنها عريضة الذكر عميقة الأثر ، رفيعة المثل ، والحياة لا تقاس بالطول بقدر ما تقاس بالعرض والعمق وارتفاع المقام والفعال النابه .

ولقد قضى حياته يفرق في الناس أرباح تجارته النافقة آلافًا وعشرات آلاف ، آخذاً نفسه بالتجرد اليومي من أعراض الدنيا في زهادة ونسك وتعليم دونها الزهد كله والتعليم كله . والذي يسلط على نفسه هذا التجريد اليومي من نعم الحياة إنما يسلط عليها سياط عذاب مستمر ، لا بالكف عن اللذات ولكن بالاقتطاع من صميم الذات ، وبالحرمان الفعلي لا النظري . حرماناً مما في يده

فعلا وهوله . لا مما في يد الناس ، ولا فضل عن الناس ، لمن تنازل عما في يد الناس ، فإنما هو يكسب لشخصه إذ يبرئ نفسه من أذى نفسه ، أما من صبر على الامتحان اليومي ، وقدر على التطهر الكلي ، فقد سما بالوجود الإنساني عن مستواه البشرى ، وأضحى ينظر إلى الدنيا من عل ، ويدق من قرب أبواب السماء ، ومن أجل ذلك يشعر الناس بقوة تلك النفس التي سمت على أنفس الناس جميعاً .

وكما جمع العبادة والزهادة والزهادة . قرن العلم بالعمل . فإذا رأى المنكر غيره بيده . يرى الشرطي يسخر رجلا ويذهب ليخلصه ويمتنع الشرطي : فيبطش به ويدفع الناس الشرطي حتى يطلق الرجل .

ويرى أمير الكوفة خالد بن عبد الله القسري يتشاغل على المنبر يوم الجمعة بقراءة كتب حتى يخشى على الصلاة فيصبح : الصلاة الصلاة . خرج الوقت ودخل آخر .

ذلك شأنه مع الشرطي ومع الأمير القسري . وهو شأنه مع ابن هبيرة أمير العراق . وهو هو شأنه مع المنصور أمير المؤمنين . لا ينحني أمام السلطان في أى مكان . ولا يسمح بالعبث في ذات العلم ولا يسهم في الظلم ، كالشيطان الأخرس ، بالسكوت .

كان قد فرغ من شئون مدرسته وفتح الباب على مصراعيه لشيئ المدارس التي أظهرت فقه الإسلام . فسلط على الفكر الإسلامى شعاعاً من النور هو حسبه . وخلف في دنيا الفقه أسماء راسيات كأنها الأعلام ، وقضاة كالملاك . وعلماء أثبت مجداً من الملوك . فلم يك باقياً إلا أن يضرب الضربة الكبرى فيهبى بالمادة . وأعراضها وأصحابها إلى الأعماق . ويخلق بالعلم وبالفكر في طباق السموات . وتطير إلى الأجيال الملاحقة فكرته الخالدة على ألف جناح . ويعلم الناس بالقدور والنداء مثل ما علمهم باللسان والقلم .

وفي كلمة واحدة يعلمهم بمماته ما علمهم بحياته .

لكنه لا يموت ميتة « ليكرج » إذ أتم رسالته في شرائع إسبرطة ومجدها فختم حياته منتحراً بالكف عن الطعام اعتقاداً بأن الزعيم الذي لم يبق له عمل في أمته جدير بالاختفاء .

ولقد كانت الأمة أحوج ما تكون إلى إمامها الأعظم . ولم تشأ السماء أن تعطل خاتمة حياته من إكليلها . إذا لم يدخل الناس في حساباتهم هذا العدوان عليه فقد سبق أن سطر عليه في اللوح المحفوظ ذلك المصير . والأذى هو الغذاء المستمر لمواهب الرجل الحر ، والمعارضة هي في الغالب رجوع الصدى للرأى . فأى أذى واعتراض يجتمعان على الرجل إذا اجتمعت عنده الحرية والرأى ، وأى امتداد لذلك التناؤش من بعيد ومن قريب يخالفه عند مماته بعد خمسين عاماً في معركة الحق . . في مواجهة الناس ومباينة الخليفة . وكما أتى من أمره عسراً تدفق من قلبه الإشراق لا الاحتراق ، كأن الشدائد مولد عظيم للتقوى في كيانه ، أو كأنها السلاح الذى يشق الأرض لتفجر الماء أو ليزداد الثرى بتقليبه ثراء ! !

إنما يعيش هؤلاء البشر في مستوى أعلى من البشر . يتلاقى عنده الإنسانى المخلق والربانى الذى يوحى به ، وفي هذه القمم الشواهد يستقبل الملهدون آيات السماء أول من يستقبل ، كأطراف السحاب في السماء وذرى الجبال في الأرض أسبق ما يتلقى شعاع الشمس وأول ما يتوهج في الظلام المحيط .

إنهم لا يحسون ما نحسه عذاباً . بل تتوتر أحاسيسهم إلى أقصى حدود التوتر إذا عاجلوا الصعاب ، وتبذل إلى حد العدم في محيط العذاب ، فإذا رأوا الأذى وردوه ، واستروحوه ، فمنهم من يقضى نحبه ومنهم من ينتظر ، فلا تطيب نفسه إلا إذا أترعته كؤوس التضحيات ، وعندئذ يدرك أنه قد ارتوى من نخب الخاود .

إنها لنعمة من السماء على الأرض أن يعذب أهل الأرض قوماً كأنهم من أهل السماء . فهؤلاء الشهداء يعلمون الناس بالأسوة الحسنة أن الحياة ليست البلهنية ولا الرفاهة . ولكنها كفاح دائم للخير تواق للكمال .

سجل علماء الإسلام هذه الحقائق بحروف من نور : فقضى عليهم بارئهم أن يشقوا لينعم البشر - فكان خلقاً إسلامياً خالصاً : وقضى على الأئمة الأربعة أن يردوا المحنة تلو المحنة في سبيل آرائهم ويسبقوا بإمامتهم الناس ليصححوا خطاياهم : سيق الشافعي من أقصى الجزيرة إلى أقصاها ، عاشر عشرة متهمين بالتشيع لقوا مصارعهم على عينه ونجا وحده . وجلد مالك من أجل أيمان البيعة أو من أجل جوابه عن السؤال عن البغاة : وذاق ابن حنبل بعض الموت في خلق القرآن . أما أستاذهم أبو حنيفة فقد مات في قضية القضايا : قضية الحرية ! أو قضية القضاء ! أو قضية تسخير العلماء في خدمة الخلفاء ! فأظهر أن الزهد أو العلم ليسا غاية الحياة وإنما « العمل » هو الغاية في الدنيا والوسيلة للآخرة . وكان المثل الحق لما يهدى إليه الوحي الذي أشاروا إليه من « أن الله سبحانه أوحى إلى نبي من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد : أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك إلى فقد اكتسبت به العز ، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك ؟ فقال : يا رب وأى شيء لك علي ؟ قال : هل واليت في ولياً أو عاديت في عدواً » :

إنما تكون العبادة الحق بالجهاد للحق في الخطوط الأولى للنار لا في الرهينة ولا في الاعتزال . رووا عن الإمام أحمد وغيره أثراً : « أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى ملك من الملائكة ، أن اخسف بقرية كذا وكذا ، فقال يا رب كيف وفيهم فلان العابد ؟ قال : به فابدأ فإنه لم يتمعر وجهه في قط ! »

بلى . بلى . فالعمل الصالح أزكى من مطلق العبادة ! هذا يحيى بن عمر يرجع من القيروان في تونس إلى قرطبة في الأندلس ليرد دانقاً كان عليه وهو يقول : رد دانق على أهله أفضل من عبادة سبعين سنة !

إنها ضريبة الرضا النفساني يؤديها الزاهد أو العابد أو العالم يكد ويكدح ليترك آثاره فيمن يحيط به من العالمين .

وإذا كان أبو حنيفة قد جانب السياسة في حياته لأن رسالته كانت أكبر من السياسة ، فقد جانبها وهو يختم هذه الحياة . لأن العالم الحق لا يفتن بما يفتن به الناس ولا يلقي بذاته كرجال الدولة فيما هم فيه يعتركون : بل إن رجل الدولة ، ليقذف

بنفسه في المهالك يهنيه أن يفور التنور وتغلي به القدور ، ليستخرج ما يشاء من معقبات ونتائج .

فإذا هاجم البطش المفكر في عقر داره ، أو فدح الخطاب وعمت الباري أو هددت الحرية أو الفضيلة ، حق على رجل العلم أن يحمل تبعاته ويحمي حماه . إنه لم يعد العالم ولم يبق الفقيه وإنما غدا القدوة :

إن هؤلاء الفقهاء يحملون من التبعات ما لا يحمل الساسة ولا الزعماء ، لما يستيقنه الناس من أنهم ورثة الأنبياء ، فلا جرم إذا التمسوا النجاة عندهم والأمل في روح الله لديهم :

لما والى الملك إسماعيل الإفرنج أيام الحرب الصليبية وسلم لهم صيдаء وغيرها من الحصون لينجدوه على الملك نجم الدين أيوب أنكر عليه عز الدين بن عبد السلام هذه الفعلة ، فغضب عليه وعزاه واعتلمه : ثم بعث إليه يعده ويمنيه : فقال له الرسول : « تعاد إليك مناصبك وزيادة ، وما عليك إلا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده » . فما كان جواب الشيخ إلا أن قال : « والله ما أرضاه أن يقبل يدي ، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد : : » :

سبق أبو حنيفة فضرب الأمثال للعلماء كما سبقهم في ميدان الاجتهاد ، فواجه النوازل في الفكر بالفكر ، والنوازل في العمل بالعمل :

اختارت له السماء مجد الخلد على مجد الساءة ، ورضاء الله على رضاء السلطان وأثر الآخرة على الأولى وسعى لها وهو مؤمن : واتخذ مكانه في هذا الثبت الفردوسى الحافل بأسماء الصالحين والشهداء :

هنالك تراءى لك الأعماق التي ينبع منها فكر هذا الجاهد الحر . خلافة للبصر ، وتتجلى لك القمم العالية التي ارتفعت إليها هذه الحياة عندما ختمتها يده القدرة خاتمة أروع من الخيال ، ويتراءى لك فيما بين البداية والنهاية حياة هي العمل ، ورسالة هي الخلق والابتداع ، ليست في تطبيقات كل يوم ، تلك التطبيقات الدارجة ، والفتاوى المفردة ، أو في خدمة السلطان :

إنما كانت وظيفة أبي حنيفة وظيفته الشارع نفسه ، لا وظيفة الذي ينفذ الشرائع :
والقضاء تنفيذ والتشريع خلق . والمشرع يضع النظام . والقاضي من حرسه
وسدنته .

كانت وظيفة الإمام الأعظم تتصل بالقرآن والحديث وبالعقل لاستنباط الأصول
والحلول ودفعها في الغداة إلى القضاء والعلماء والحكام والحنفاء والناس كافة ، يتناولون
بها جميعاً شئون الدنيا والدين ، ويقضى بها القضاة في كل قضية ، وكل دولة ،
وكل جيل ، وكل مكان .

كانت رسالته إنشاء المذاهب وإنشاء الرجال ، والتوثيق بين العلم
والحضارة :

كان هو نفسه الانبعاث التاريخي الذي خلده به الفقه الإسلامي نفسه . فأين
منه ، بل أين من بعض منه ، كراسي القضاء . على ما في وظيفة القضاء من إشراق
وكرامة وعبادة .

لقد ساهم التاريخ في تأكيد تلك الحقائق : فلم يل وظيفة القضاء في خدمة
الخلفاء واحد من الأئمة الأربعة الذي تقاسم مذاهبهم جمهور المسلمين :

تلك مكانة حصل الحديث فيها ابن وهب حيث قال : « إن العلماء يحشرون
مع الأنبياء وإن القضاة يحشرون مع السلاطين » .

أجل وكما قال أبو حنيفة : « إن لم يكن أولياء الله تعالى في الدنيا والآخرة العلماء
فليس لله ولي » .

وإذا كان ذلك شأن العلماء فكيف بأئمة العلماء . بل كيف بأحق رجل
في الإسلام بما قيل عن أرسطو « معلم العلماء » .

فأين : أين . . أين الأمراء من الأنبياء . وأين رجال القضاء من الفقهاء !

أين أبو حنيفة قاضي القضاة . أو قاضي الكوفة . أو بغداد أو الرصافة .

لو قدر وكان ، من الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ؟

لقد دالت دولة بني العباس ، ولم يذهب مذهب أبي حنيفة : ونسى الناس أبا جعفر وأولاده وحفدته : لكن اسم أبي حنيفة ما يزال يذكر كلما صلى الناس أو صاموا بل كلما واجهوا أمراً من أمور الشرع في شأن من شؤون الدنيا أو الدين .

* * *

أحس أبو حنيفة بالموت فسجد فصعدت روحه وهو ساجد في رجب سنة ١٥٠ . كأنما كان يسابق ملك الموت إلى لقاء الله في الصلاة .

جاءته الدعوة إلى لقاء الله وهو بين يدي الله يصلي ، وبين يدي التاريخ وهو سجين ، وبين يدي الفكر الإنساني وهو يتلقى العذاب من جرائه !

وأخرج من مكان حبسه فحمله خمسة أنفس فأتوا به إلى مكان غسله فغسله الحسن بن عمارة قاضي بغداد ، وكان من أصحاب الحديث وزهادهم : فلما فرغ من غسله قال : « رحمك الله لم تفطر منذ ثلاثين سنة ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة : كنت أفقهننا وأعبدنا وأجمعنا لحصال الخير وقبرت إذ قبرت إلى خير وسنة وأتعبت من بعدك » :

وما فرغوا من غسله إلا وقد اجتمع من أهل بغداد خلق كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى ، حتى خرج من باب خراسان ، كأنما نودي لهم بموته ، فاجتمعوا وحرز من صلى عليه فقبل بلغوا خمسين ألفاً ، وقيل أكثر ، وأعيدت الصلاة عليه ست مرات : وقيل إن المنصور جاء وصلى على قبره ، ولم يمكن دفنه إلا بعد العصر لكثرة الزحام :

ومكث الناس يصلون على قبره أكثر من عشرين يوماً . ولما بلغت المنصور وصيته بأن يدفن بالخيزران لأنها أرض طيبة غير مغصوبة قال : « من يعذرني فيك حياً وميتاً : ! » :

وقال الحسن بن عمارة على القبر : « كنت لنا خلفاً ممن مضى : وما تركت بعدك خلفاً : إن خلفوك في العلم الذي علمتهم لم يمكنهم أن يخلفوك في الورع إلا بتوفيق » :

وأتى نبأ موته مكة ، فرثته البلدة المباركة على لسان فقيها ابن جريح ، فاسترحم وتوجع ثم قال : « أي علم ذهب ! »

ولما وقف تلميذه عبد الله بن المبارك على قبره ، قال : « رحمك الله : مات إبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان وخلفنا خلفاً ، وميت أنت ولم تترك على وجه الأرض خلفاً » وبكى بكاء شديداً :

وفي منتصف القرن الخامس للهجرة (سنة ٤٥٩) بنى شرف الملوك أبو سعد محمد بن المنصور الخوارزمي (مستوفى مملكة عضد الدولة البارسلان محمد وابنه السلطان عضد الدولة ملك شاه السلجوقي) على قبر الإمام مشهداً وقبة وبني عنده مدرسة كبيرة للحنفية ، وبقي قبره مزاراً للناس في طريقهم للحج وعودهم منه ودفن إلى جواره جماعة من نخبة العلماء ، منهم الدامغانى شيخ العراقيين وقاضى بغداد :

ولما دخل الشافعى بغداد قصد إلى مقابر الخيزران وصلى على قبر الإمام الأعظم ركعتين ولم يرفع يديه - فسئل لماذا خرج عن قواعده ؟ فقال رضى الله عنه :

« أدباً من هذا الإمام أن أظهر خلافة بحضرته » :

وكان يجيء إلى قبره كل يوم ويقول : إني لأتبرك بأبي حنيفة :

* * *

بلى ، وأية بركة أصابت الشافعى وأصابها الإسلام . أما الشافعى فقد تلقى فقه أبى حنيفة محبوباً مؤصلاً متعمداً ، كما يتلقى الجوهرى الصناع كترأ من اللآلى والأعلاق . وأما الإسلام فهو يذكر لأبى حنيفة ما لا يذكره إلا لمن جاء بعد النبى عليه الصلاة والسلام من صفوة الطبقة الأولى من صحبة اخلصين :

فالفقه الإسلامى فى المعاملات أو العبادات أعلى كنوز الحضارة الإسلامية مكانة وأبعدها أثراً فى الأمة جيلاً بعد جيل لاتصاله بالقرآن والحديث فى منابعه الأولى . ولئن كان للغة العربية وآدابها - وهى لغة القرآن - ذلك الشأن الجليل الذى تنافخ به كل اللغات ، فإن للفقه منها مكان الصدارة .

هو الذى مكن للحضارة الإسلامية فى بقاع الهند والصين وتركيا وروسيا وأفريقيا وأوربا وآسيا . وحيث لم تصمد اللغة العربية صمد الفقه الإسلامى ، وسيطرت مبادئه فى نظام الأسرة والملكية والحرية فى الرأى والعقيدة والأصول العامة للشريعة :

ولئن غزا الإسلام هذه الأمم بالسلاح ، إنه استقر فيها بالشريعة :

لقد غلب السلاجقة المسلمين فى القرن الحادى عشر الميلادى ولكنهم أسلموا :
وغلب المغول المسلمين فى القرن الثالث عشر ولكنهم أسلموا أيضاً :

إن الإسلام ينتصر وإن هزم المسلمون !

وحيث وجد الإسلام وجد الفقه الإسلامى ووجد الفقهاء العالميون فى غير جزيرة العرب ممن سجلوه وخلدوه : يتسابقون فى حلباته ذلك السباق المتراعى فى حدود الوجود الزمانى والمكانى ، حتى إذا أقفل باب الاجتهاد فى عصور التقليد لم يسكت لهم صوت ولم تهدأ لهم حركة ولم يبرح إنتاجهم يثير الإعجاب :

ولو عجز الفقه الإسلامى عن أن يستجيب لحاجات الأمة فى هذه الأقطار المترامية لخيف أن تعمد إلى اطراحه لتعيش : وإذن لبخعت الحضارة الإسلامية نفسها فى كل مكان .

فأى فضل على الأمة يلقى به ربه ويلقى به التاريخ رجل مكن للفقه الإسلامى أن يكون عصرياً فى كل عصر : وإقليمياً فى كل إقليم ، فمكن للدين نفسه ووطد أركانه :

لا عجب أن قال بعضهم : إن النبى قد بشر به : فهو إن صح أو لم يصح ضرب من ضروب التمجيد وهو جدير بالتمجيد ، جدير بتفسير المفسرين لحديث « لو كان العلم عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس » وغيره ، تفسيراً ينظمه فى سلك المأمولين للإصلاح : وجدير بما قال بعض أئمة الزهد : « يجب على أهل الإسلام أن يدعوا لأبى حنيفة فى صلاتهم لحفظه عليهم السنة والفقه » :

لقد كان صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام ينظر بنور الله يوم قال

للمسلمين : « اقتدوا بالذين من بعدى أبا بكر وعمر واهتدوا بهدى عمار وتمسكوا
بعهد ابن أم عبد » وكان عمر مؤمناً ممن عناهم النبي بقوله : « اتقوا فراسة المؤمن
فإنه ينظر بنور الله » :

فلقد جعل النبي عماراً وابن أم عبد (ابن مسعود) ركنين من أركان الأمة كأبي
بكر وعمر .

وإذا كان أبو بكر قضى على الردة ، وكان عمر أنشأ الإمبراطورية الإسلامية ،
فإن رسوليهِ إلى العراق - عماراً وابن أم عبد - قد أديا رسالتهمَا نعم الأداء ، كأنما
بصر الرسول والفاروق ورسولا الفاروق من خلال السنين بما سيؤديه هذا الإقليم العظيم
للعالم الإسلامي فيحفظ له أمانة الفقه ويشيع في أرجائه الأسلوب الجديد ويحمي
الشريعة الإسلامية من أن تصيبها آفة القصور عن مطالب العصور :

ولئن كان خالد بن الوليد قد حمى الإسلام من الردة عند الصيحة الأولى على
هدى من أبي بكر . إن أبا حنيفة قد حمى الشريعة عند الصيحة الأولى إذ نادى
بذلك الحوادث وهو على هدى من عمر وعهد من ابن مسعود :

ولقد نظر ابن مسعود بنور الله يوم ضرب الأمثال في الاجتهاد عند أساطين
مسجد الكوفة ليأول مجلسه بعد قرن كامل إلى أبي حنيفة الذي نهج نهجه وورث
عهده ، ذلك العهد الذي أوصى به الرسول :

نفحات من السماء جاءت بأبي حنيفة في أوانه ، كما جاءت بابن الوليد في
إبانته ، لتؤكد لنا أنه سبحانه وتعالى صدق وعده ووفى عهده

في سنة ١٥٠ مات أبو حنيفة وولد الشافعي ، كأن السماء لم تشأ أن تحرم
الأرض ذلك الإمام إلا إذا حببها هذا الإمام .

كان نابليون يقول عن نفسه : « كل شيء ينتهي على بعد ستة أقدام تحت
الثرى » . ولئن صدق هذا القول على رجال السياسة أو رجال الدنيا ، إنه لا يصدق على
المفكرين . فأولئك يبدأ كل شيء بالنسبة لهم عند ذلك . إنهم يذرون أجسادهم

تحت الثرى ويبعثون أفكارهم إلى الأفلاك ، وأسماهم إلى الأزل ، لتصير حديثاً في
 فم التاريخ وطنيناً في سمع الزمن : أو كما قال هيجو : أيها العظماء : هل تريدون
 المجد ؟ : : موتوا !

استقبل أبو حنيفة وهو سجين في السبعين من عمره ، حياة الخلد كما استقبلها
 سقراط من قبله بعشرة قرون ، في السبعين من عمره ، محكوماً عليه بالإعدام ، فنظر
 إلى قضاة وقال : « : : سيذهب كل منا في طريقه ، أنا في طريق الأموت ، وأنتم
 في طريقكم لتعيشوا ، والله يعلم أي الفريقين أهدى سبيلاً » :

المراجع

- ١ - مناقب الإمام الأعظم : الموفق بن أحمد المكي
- ٢ - مناقب الإمام الأعظم : ابن البزاز الكردي
- ٣ - عقود الجمان في مناقب : الحافظ محمد بن يوسف بن علي بن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان : يوسف الدمشقي الصالحى
- مخطوط بدار الكتب المصرية تحت ن ١٠٧
- ٤ - الخيرات الحسان في مناقب أنى حنيفة النعمان : ابن حجر
- ٥ - الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة : للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر الفقهاء
- ٦ - تاريخ بغداد : أبو بكر الخطيب
- ٧ - الرد على أبي بكر الخطيب : الملك أبي المظفر عيسى بن عبد الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب
- ٨ - تأنيب الخطيب على ما ساقه : محمد زاهد بن الحسن الكوثري
- ٩ - إحقاق الحق بأبطال الباطل في مغيب الخلق وأقوم المسالك في بحث رواية مالك عن أبي حنيفة ورواية أبي حنيفة عن مالك : محمد زاهد بن الحسن الكوثري

- ١٠ - حياة الإمام أبي حنيفة : الأستاذ سيد عفيفي
- ١١ - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي : الحجوى
- ١٢ - وفيات الأعيان : ابن خلكان
- ١٣ - الفوائد البهية في تراجم الحنفية : اللكنوى
- ١٤ - طبقات الفقهاء : أبو إسحق الشيرازى
- ١٥ - طبقات الشافعية الكبرى : السبكي
- ١٦ - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب : ابن فرحون - المالكي
- ١٧ - نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة : أحمد تيمور باشا
- ١٨ - فجر الإسلام : أحمد أمين بك
- ١٩ - ضحى الإسلام : أحمد أمين بك
- ٢٠ - تاريخ التشريع الإسلامى : الحضرى بك
- ٢١ - تاريخ التشريع الإسلامى : الأساتذة عبد اللطوف السبكي ومحمد على السائس ومحمد يوسف البربرى
- ٢٢ - تاريخ الفقه الإسلامى : دكتور على حسن عبد القادر
- ٢٣ - الموافقات في أصول الشريعة : الشاطبي
- ٢٤ - أعلام الموقعين : ابن القيم

- ٢٥ - مجموعة رسائل « فقه حنفى »
مخطوط ن ٧٣٢ دار الكتب
المصرية : مفتى زاده
- ٢٦ - مجموعة رسائل « فقه حنفى »
مخطوط ن ٣٢٨ دار الكتب
المصرية : عبد الغنى النابلسى
- ٢٧ - رفع الملام عن الأئمة الثلاثة
الأعلام (دار الكتب المصرية) ابن تيمية
- ٢٨ - رسالة فى مدى استعمال
حقوق الزوجية : دكتور السعيد مصطفى السعيد
- ٢٩ - علم أصول الفقه : الأستاذ عبد الوهاب خلاف
- ٣٠ - الإسلام وأصول الحكم : الأستاذ على عبد الرازق
- ٣١ - السياسة الشرعية : الأستاذ عبد الوهاب خلاف
- ٣٢ - السياسة الشرعية : الأستاذ محمد البنا
- ٣٣ - الفقه على المذاهب الأربعة :
الشيخ عبد الرحمن الجزيرى
- ٣٤ - رد المختار على الدر المختار : ابن عابدين
- ٣٥ - المجموع شرح المهذب : محيى الدين بن شرف النووى
- ٣٦ - مجلة القانون والاقتصاد
السنة الأولى : الأستاذ أحمد بك إبراهيم
- ٣٧ - مجلة القانون والاقتصاد
السنة الثانية : دكتور محمد كامل الغمراوى

٣٨ - مجلة القانون والاقتصاد

: الأستاذ محمد أحمد أبو زهرة السنة الخامسة

٣٩ - مجلة القانون والاقتصاد

: الأستاذ عبد الوهاب خلاف السنة السادسة

٤٠ - مجلة القانون والاقتصاد

: الأستاذ عبد الوهاب خلاف السنة السابعة

The moslem Creed. Wensinck. Cambridge 1932 - ٤١

Le Dogme de l'Islam. Goldziher — Paris 1920 - ٤٢

٤٣ - شرح الأحكام الشرعية : محمد زيد الأبياني بك

٤٤ - الحراج : أبو يوسف

٤٥ - الفهرست : ابن النديم

٤٦ - تاريخ الطبري : الطبري

٤٧ - تاريخ الدولة العباسية : محمد الحضري بك

٤٨ - تاريخ الإسلام : حسن إبراهيم حسن

٤٩ - الطبقات الكبرى : ابن سعد

٥٠ - فلاسفة الإسلام في المشرق

: محمد لطفي جمعة والمغرب

٥١ - الإمامة والسياسة : ابن قتيبة

٥٢ - الكتاب والوزراء : الجهشيارى

٥٣ - العقد الفريد : لابن عبد ربه

٥٤ - دائرة المعارف الإسلامية



- ٥٥ - دائرة معارف البستاني
- ٥٦ - الأمل : أبو علي القالي
- ٥٧ - المقدمة : ابن خلدون
- ٥٨ - Islamic Civilisation Khuda bukch University of Calcutta 1929
- ٥٩ - الحيوان : الجاحظ
- ٦٠ - مناقب الإمام الشافعي : محمد بن عمر الرازي
- ٦١ - القضاء في الإسلام : ابن عرنوس

فهرست

صفحة	
٥	مقدمة
٧	الباب الأول - الرجل
٢٩	الباب الثاني - التاجر
٤٧	الباب الثالث - في المسجد
٦٩	الباب الرابع - المفكر
٩١	الباب الخامس - التلاميذ
١١٧	الباب السادس - في العراق
١٣٣	الباب السابع - في الكوفة
١٤٥	الباب الثامن - في الفقه
١٦٧	الباب التاسع - إمام أهل الرأي
١٩٣	الباب العاشر - في القضاء
٢١٧	الخاتمة - في التاريخ
٢٣٩	المراجع

للمؤلف

- ١ - الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول
- ٢ - مالك بن انس إمام دار الهجرة
- ٣ - أحمد بن حنبل إمام أهل السنة
- ٤ - الإمام جعفر الصادق
- ٥ - الإمام محمد بن عبد الوهاب
- ٦ - أئمة الفقه الإسلامي
- ٧ - نحو تقنين جديدة للمعاملات من الفقه الإسلامي
- ٨ - نحو تقنين للعقوبات من الفقه الإسلامي
- ٩ - المنهج العلمي المعاصر مستمد من القرآن
- ١٠ - المحامون وسيادة القانون
- ١١ - مجموعة مذكرات قضائية (جزءان)
- ١٢ - تطوير التشريعات
- ١٣ - توحيد الأمة العربية
- ١٤ - من أجل مصر - البطل أحمد عصمت